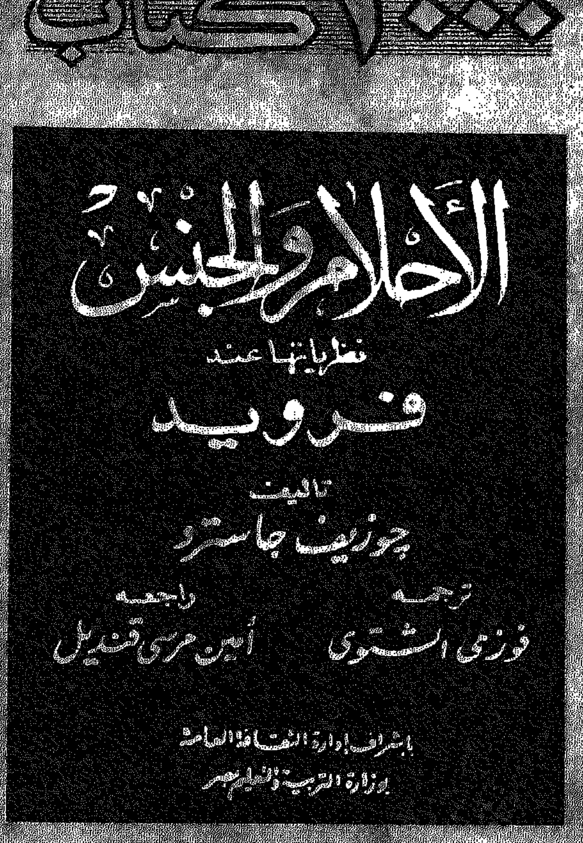


١٠٠٠ كتاب

الأحلام والجنس

نظرياتها عند

فرويد

تأليف

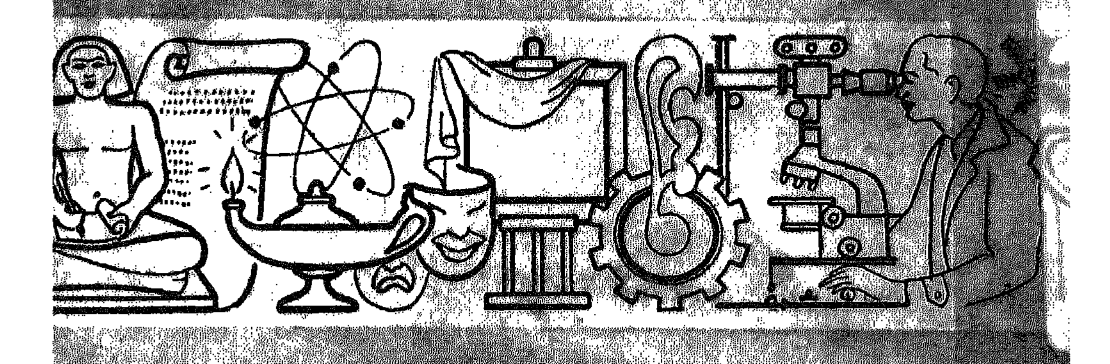
جوزيف جاسترو

ترجمه
فوزي الشتوي

راجعه
أمين مرسي قنديل

بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم بمصر

الجزء الثاني

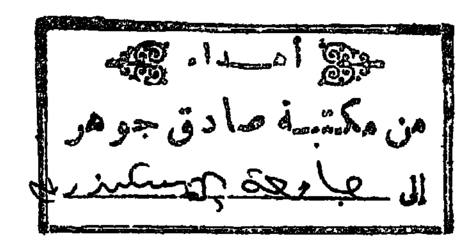


نشرته دار الكتاب المصري



الألف كتاب (٦٩)

الأحلام والجنس



بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

جوزيف جاسترو

جوزيف جاسترو – مؤلف هذا الكتاب — من النفسيين الممتازين الذين ظفروا بتقدير الهيئات العلمية النفسية ، فى أمريكا . وقد ولد فى مدينة وارسو ببولندا فى ٣٠ يناير من عام ١٨٦٣ ، أى أنه كان أصغر من فرويد بنحو سبع سنوات ، وتلقى تعليمه فى أمريكا ، فظفر حتى عام ١٨٨٦ بدرجة الدكتوراه من جامعتين من أهم جامعاتها ، وعين أستاذاً لعلم النفس بجامعة « هوبكنز » ، فشغل هذا المنصب نحو أربعين عاماً . وقد ألف عدة كتب فى علم النفس ، تناول فيها تحت الشعور ، وصفات الانسان ، وخلقه ، والعقلية ، والتفكير .

وتوفى جوزيف جاسترو فى ١٨ يناير عام ١٩٤٤ ، فكان كتابه « الأحلام والجنس ونظرياتها عند فرويد » من أهم الكتب التى صنفها . وقد صدر فى مايو عام ١٩٣٢ ، فكان عنوانه الأول « البيت الذى بناه فرويد » .

« المترجم »

الألف كتاب (٦٩)

الأحلام والجنس

نظرياتها عند فرويد

لجوزيف جاسترو

الجزء الثانى

ترجمة
فوزى الشتوى

راجعه
أمين مرسى قنديل

«سيجموند فرويد» أبو التحليل النفسى ، وهو من رجال عصره العظماء حقاً . وهذا الكتاب يوضح للقارىء العادى النظريات الأساسية لفرويد وكيفية تطبيقها فى حياتنا اليومية

الناشر : دار الكتاب المصرى

٨٢ شارع القصر العينى ت ٢٦٥٨٨

هذه ترجمة كتاب :

FREUD

His Dreams & Sex Theories

(The House That Freud Built)

Joseph Jastrow

مقدمة المؤلف

كان الجزء الأول من هذا الكتاب تمهيداً لنقد نظام شامخ هدفه فهم النفس البشرية من حيث طبيعتها وتصرفاتها ، فعرضنا أجزاء البناء وتصميمه وتكوين البيت كما أقامه فرويد ، ولا ريب أن فرويد قد ظفر بمركز مضمون بين عظماء المفكرين فى طبائع النفس البشرية ممن تجاوزت أطماعهم أو معتقداتهم ما أدوه من أعمال . ولعل هـذا المركز يجمع بين التكريم والرثاء لما لقيه من لوم وتقريع مما يحل عادة بالأبطال فى أى عمل . فان كانت مجموعته التى ينضم اليها فى مجال المجد والشهرة هى جماعة الفلاسفة ، فهو أول من انضم اليها عن طريق فتح عهد جديد فى علم النفس .

وقد حاولت أن أقدم نظامه من وجهة موضوعية ، متوخياً الحياد ما أمكن . ولكنى تجاوزت عن هذه السياسة لأوفر الراحة للقارىء ، فقدمت أيضا الفكرة الانتقادية لأتيح له تقدير النص ، والتعقيب عليه فى نظرة واحدة . وهدفى من البداية انتقادى . وكتبت وأنا متأكد بأن أزمة عن مصير الفرويدية قريبة الحدوث. والآن فإنى أنتقل إلى موضوع النقد نفسه ، وبما أن التحليل النفسى قد عرض كعلم ، فمن الواجبات الأوليـة أن نختبر مدى تحمله للمقاييس العلمية .

وفى مثل هذا البناء المعقد يتساوى التنفيذ مع التصميم: فكلاهما جوهرى ضرورى . وأية قضية تكسب أو تخسر بما يؤيدها؛ وكذلك بطريقة عرض مبادئها ، والتحليل النفسى فن ، والمحلل هو من يمارسه . والنقد يبدأ بعرض المبدأ : إلى البرهان ، إلى التطبيق . فألى أين يتجه التحليل النفسى؟ ذلك هو السؤال الختامى . وعندما يواجه الناقد فرويد وكل مؤلفاته ، فإنه يجابه مركزاً خاصا إذ يجد فى نفسه ميلاً إلى موافقة جزئية متحفظة حيال المبدأ ، وعدم ثقة متغلغل حيال التطبيق والتنفيذ . فهو لا يستطيع مدح عظمة وهم ضخم ؛ وهو فى الوقت نفسه غير قادر على الحكم عليه حكما قاضيا. أن هو قدرما فى المغامرة من محاسن فى معناها ومبناها . وكلا الموقفين يحتاج إلى صراحة واخلاص . ويتطلب أقيسة مميزة ؛ وأحكاما حاسمة . والحكم الحاسم عند جمهور الناقدين : أما الآن فهو بين يدى القارىء . .

الباب السادس

التحليل النفسي والعلم

المنطق كرقيب

أدعو القارئ إلى فحص منطقي للبيت الذي أقامه فرويد بحماسة صحبته طول حياته ، وأظهر فيه قدرة ابتكارية نادرة ، وبراعة ممتازة في التطبيق ؛ وهما صفتان رائعتان تعاونتا على اثارة اهتمام الناس اهتماماً عظيما بما قدمه من بحوث ، ولكنهما كانتا ضعيفتي الاثر في الحكم الأخير الفاصل ، وهو مدى قدرة متانة بنية الصرح على اجتياز الاختبار الهندسي بنجاح . ولن تكون رحلتنا حبا في تمضية وقت فراغ من يوم عطلة، بل هي مهمة دقيقة، ولاغنى عنها ، أن أردنا تقدير مجموعة الآراء الشاملة التي أثر بها فرويد تأثيراً عميقا في عالم العقل الذي نعيش فيه .

ولولا حقائق ثابتة كقوانين الجاذبية ، وأنواع الضغط ، والأثقال ، والصفات الثابتة للخشب والآجر والحجارة والفولاذ وتأثير الرياح والجو ، لولا هذه الحقائق لكان فن العمارة شيئا

عرضياً . ولهواً يتسلى به الناس. وتواجه المنشآت الذهنية مثل هذه الشروط القاسية من حيث قوانين المنطق سواء أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة . وهذه المنشآت الذهنية تتقرر أيضا لمواد بناء التفكير

فالمنطق يتحكم فى أنواع المبانى التى أقامتها العقول. ويُعد معونة أولية ، ودعامة لمزيد من عمليات التفكير : وهو يفحص النتائج . ويختبر فى دقة مقاييس الأدلة ومدى صلاحية النتائج . وهو أعمى حيال المغريات التمثيلية ، وأصم إذا ما واجه تعبيرات رائعة بالغة الجمال . والمنطق رقيب أيضاً . وأن تكن رقابته من مرتبة أخرى تخالف الرقيب الفرويدى، رغم أن كلا منهما يحرس «مبدأ الواقعية» ويحرص على رؤية الأشياء كما هى فى الواقع .

وإذا ما تخلصنا من القيود ، بنينا قصوراً فى الهواء ، أو فى أرض خيالية ، وأضفينا عليها مثل الكمال لحظة من الزمان . وإذا تهاونا فى ولائنا للمنطق ، فاننا ننغمر فى تأملات تتجاوز نطاق التفكير الاستدلالى المعترف به ، ولسنا فى حاجة إلى الترخيص لأقامة المنشآت الذهنية . فان الحكم يصدر عليها بعد بنائها . فهل يستطيع التحليل النفسى أن يجتاز امتحان الرقابة المنطقية بنجاح ؟ هذا هو السؤال .

والتفكير المنطق لا يخضع فى سهولة للرغبة . وعند ما نقيم

النظريات على أسس من الحقيقة ، فاننا نجد فى كل خطوة واتجاه مجالا لتدخل خبيث ماكر يعمل لفرض التفسيرات المفضلة عندنا، ويعمل للعثور على ما نبحث عنه ؛ ويعمل على تفسير « البيانات » تفسيراً يطابق النظريات وينسجم معها. وهذا الاغراء ينطبق بصفة خاصة على أنواع المنشآت الشبيهة بالتحليل النفسى . حيث لا مفر فيه من أن يؤثر التحيز العقلى والنتائج بعضها فى بعض ، ولعله من الخير أن يذكر النفسيون عبارة بيكن (Bacon) الخالدة . وهى أن الطبيعة أوسع حيلة وأكثر دهاء من الحجة والبرهان .

والرقابة المنطقية الصارمة تبعد التحليل النفسى من دائرة العلوم . وهـذا هو الجانب الذى لزمه « دنلاب » (Dunlap) فى كتابه «الروحانية، والفرويدية، وعلم النفس العلمى»[1]. وقد أصدر حكمه فى غير تحفظ ، فالفرويدية فى إغرائها وطريقتها ونتائجها ، تعد نوعا من الروحانية ، وتستمد شيوعها ، ومكانها اللائق بها على أرفف المكتبات ، حيث تنسجم فى تلاؤم كامل مع علم الفراسة « والفكر الجديد » ، « وتحضير الأرواح » ، ونظم السفسطة الخاصة بقراءة الخلق ، وذلك بسبب تلهفها الملح على إيجاد حلول « درامية » مؤثرة للمشكلات البشرية . ولا أستطيع قبول الحكم المسرف الذى يعتبر

---

(١) "Mysticism. Freudianism and Scientific Psychology"

مطالبة الفرويدية للاعتراف بها كعلم طلبا يمكن تجاهله ، فانى أومن بأنه من الأفضل أن نهذب المنطق ونلطف من قسوته ليتلاءم مع أنواع النقص فى علم النفس . وبهذا نستطيع أن نقدم منطق نبى جديد إلى ساحة التقدير عندما يتيح لنا الحكم على هذا الموضوع المعقد ، حكما أكثر تسامحاً .

والواقع أن سفسطة الفرويدية متشعبة ، وأن عدوانها على الذوق السليم والمنطق السديد متعدد وفاضح ؛ ولكن النية العلمية لم تفارقها ، فبحث فرويد امتداد شرعى لدراسات النفسيين ، ومحاولاتهم لفهم الطبيعة البشرية . وقد سلموا بأن علاجه « العيادى » تشخيص فعال لحالات العصاب وتخفيف حدتها ، فإن كان قد أخطأ فى عملية البناء ، وصار واحداً من « بناة الأوهام » كما سماه «وارد» (Ward) وأن كانت مكانته «بين المسحاء الكذبة» كما وضعه « جيليس » (Gillis) ، فإن خطأه لم ينشأ عن لوثة مرض البرنويا ، ولا عن ثقته بنفسه ثقة نبى أو مسيح . وإذا كان قد استمر فى مشروعه فى خفة حتى ضلل الآخرين وخدع نفسه بالوهم ، فإن الزلة الكبرى هى سوء تقدير منطق من طراز آخر .

وفى المسألة الفرويدية نواجه اعتبارين جوهرين ، فالى أى مدى يُعد تصميم البيت الذى أقامه فرويد علميا ، وهو الاعتبار الأول ؛ وإلى أى مدى أقامه على الطريقة العلمية ، وهو اعتبار

آخر . وعندما تنبأ وطسون « Watson » السلوكى بأن كل من سيستخدم وسائل التحليل النفسى أو ألفاظه سيعد فى القريب العاجل من أنصار وسائل علم الفراسة ، فإنى خالفته فى يقين ، لأن الخطأ فى برنامج علم الفراسة نشأ عن سوء فهم كامل للعلاقة بين الجسم والعقل . وعندما أعلن « جال » Gall ادعاءه بأنه اكتشف نظاما نفسيا كاملا للرأس والمخ بغية كشف مغلقاتهما ، فإن عماده كان أدلة واهية لا يقبلها العقل .

وهكذا كان إغراء فكرة خاطئة سبباً فى تحول عالم بارع فى التشريح إلى باحث نفسى سخيف غير معقول ، فإن حلوله للرموز كانت خاطئة ، كما كان علم نفس تلك الأيام فجا ، ومثله فى ذلك المعلومات الشائعة عن التشريح . وربما كان فرويد متطرفا فى عمله ومتمسكا بعقيدته فى تأييد موضوعه كما كان « جال » فى تأييده لفكرته ، ولكن مبادىء الحلين من حيث الوصول إلى أسباب السلوك البشرى ووسائله كانت مختلفة كل الاختلاف . ومع أن الباحثين كانا منفصلين بقرن من الزمان ، فإن الخلاف المنطقى بينهما يقدر بعدة قرون .

وإذا ما بحثنا عن أشباه ونظائر ، لوجدنا « مسمر » Mesmer معاصر « جال » بنظريته عن المغناطيسية الحيوانية ، وما تحققه

من شفاء للأمراض ، فنجد نظاما روحانيا ليس له من أى سند مادى . وللدفاع عنه واستخدامه اشترك من هو نظرى وطبيب ودجال فى وقت واحد ؛ ورغم هـذا الاقحام غير العلمى ، فإن ظواهر « المغناطيسية » لم تحرم من حقيقتها ؛ بل كانت ملاحظات « مسمر » العيادية فى بعض اعتباراتها أقرب إلى الحق من بيانات المنكرين الأكاديمية . وقد أثارت هـذه الملاحظات اهتماما أدى إلى اكتشاف التنويم المغناطيسى . وهذا بدوره أدى إلى الاعتراف بالايحاء وأعمال العقل اللاشعورية . وفى هـذه الأجهزة النفسية الذات ؛ وهى أجهزة معترف بها الآن ، واصل فرويد البحث العلمى ، ووجد مفاتيح تفسيراته .

والقضية الفرويدية لا يمكن قذفها خارج الحكمة . فإن هذا العمل إجحاف بفرويد . كما أنه ليس من الحكمة بالنسبة لعلم النفس . وإذا ما سألنا عن الخطأ فيما قدمه فرويد . فيجب أن نمنحه نفس النية العلمية التى ظفر بها انصار المدارس النفسية المختلفة التى لا نوافق على آرائها لأسباب أخرى . ولو لم يكن التحليل النفسى جديراً بالاعتراف العلمى لما وضع هذا الكتاب .

والعلوم الطبيعية والعقلية تتساوى فى ولائها للمنطق ، ولكنها تختلف فى طريق تحقيقها لالتزاماتها حياله . ومن ثم فإن ادعاءات التحليل النفسى يجب أن تقدر بشىء من التسامح ، فإن صدق مبادئه

لن يتأيد بأدلة رياضية حاسمة . وسيكون مدى قبولها من النفسيين وأطباء النفس الانتقاديين بسبب تلاؤمها مع مجموعة كبيرة ، وأن تكن غير منتظمة من الخبرة والتجربة ، وبسبب ما تجده من تأييد فى الأسس البيولوجية ، ولأنها قابلة للتطبيق على الحالات العيادية كما تطبق على تحليلات الخلق فى نطاق السلوك السوى . وهذه المبادىء سترفض أيضاً بسبب قصورها فى هذه الاعتبارات ؛ فإن قلة اهتمام فرويد بالمبادىء المنطقية من سوء حظ التحليل النفسى ؛ ولكنها لا يجوز أن تحط من قدر البناء كله .

الإنسان الفرويدى

قدمنا (فى الجزء الأول) كيف اكتشف فرويد أو كون « إنسان التحليل النفسى » . وننتقل الآن إلى فحص طبيعة ذلك المخلوق ، لا كما يظهر مجسما من المحراب العيادى ، بل وفقاً لما ظفرت به البصيرة هناك من توجيهات لإعادة بناء الإنسان عامة . وبما أنى كهذا الإنسان ، فإنى قد أتساءل بطريقة عملية شخصية ، إلى أى مدى تحسن فهمى لنفسى من حيث أنا مخلوق ، أو لزملائى الآخرين كنتيجة لما أمضيته من الساعات الطويلة ، وما بذلته من الجهد العقلى فى قراءة فرويد والفرويديين ، أو حتى إذا حللت نفسى تحليلا نفسياً ؟ .

وبما أنني من فئة معينة من فئات الإنسان ، ويطلقون عليها اسم النفسيين ، فإنه يهمنى أن أجعل الفرويديين على صلة بالمذاهب النفسية الأخرى فى تكوين المواقف الأساسية التى أدت إلى وجهة النظر الفرويدية عن الإنسان بكل ما فيه من متناقضات . وعند ما أوجه هذه الأسئلة ، فإننى لا أنسى مجموعة الأسئلة التالية ، وهى : إلى أى مدى يعد الإنسان الفرويدى أصيلا ، وإلى أى مدى هو مصطنع ، أو مصاب بالعصاب ، وإلى أى مدى هو وصمة وسبة ؟ .

ولكن وأولا : من أى شىء صنع هذا الإنسان سواء أكان حقيقياً أم مزعوما ؟ .

وبكل اختصار أواجه ثلاثة مدركات ترشدنى : وأولها هو الأنسان اللاشعورى Subconscious Homo فإن علم النفس وصل إلى نتيجة اعترف فيها بأنه أيا كانت دراسة الحياة العقلية الشاملة المستنيرة التى تظهر فى التفكير الشعورى ، ومهما ساعدناها بشتى وسائل التنقيب ، فإنه لن يتيسر الكشف عن الإنسان الباطنى الكامل ، فإن هذه الدراسة تحتاج إلى تضمين اللاشعور . والواقع أنها تحتاج إلى توجيه كثير من الاهتمام إليه . وبالانضواء تحت لواء هذا المبدأ فأنى — إلى هذا الحد — أعد نفسى منضما إلى حلقة الفرويديين . وفرويد لم يكتشف الحياة اللاشعورية وحيلها ،

فكثيرون قبله وبعده اسهموا ببحوث مختلفة تتعلق بالسلوك النفسي المغمور .

ووجود قارة اتلنتيس[1] في النفس مسألة معترف بها من الجميع. ومن سنوات اقترح « ستانلي هول » Stanley Hall أن تشبه النفس بجبل جليد ، فيمثل الشعور الجزء البارز على سطح الماء ، أما الجزء الأكبر ، وهو الكتلة المغمورة وغير المرئية ، فتمثل اللاشعور . وعندما قدم « هول » هذا التشبيه ، فإنه قُبل في لهفة . وأكثر من هذا ، ما أراه في مشروع فرويد العام لاستكشاف نواح معينة من الحياة المغمورة والمفاتيح التي أرشدته إلى منابعها ، فهو يبدو سليما من حيث المبدأ . وقد أضاف كثيراً من الأهمية الأولية إلى مجموع وجهات نظرنا عن البواعث البشرية والأجهزة .

وسواء أكان « الاسلوب المعين » الذي فيه أدرك فرويد اللاشعور وأتقن اشراكه في الحياة النفسية ، جائزاً شرعا أم صحيحاً ، فإن هذا موضوع يختلف كل الاختلاف . وهنا يجب أن أوضح أن ما اسجله من الرفض يفوق ما اسجله من قبول ، واوجه رفضي إلى مسائل جوهرية ، « فاللاشعور » الفرويدي يبدو لي في أسسه ضعيفاً علميا ، كما أنه في تطبيقاته يضلل من

---

١ — اتلنتيس قارة يقال أنها كانت تقع في المحيط الأطلسي ولكن البحر ابتلعها . (المترجم)

نواح متعددة . ولا ريب أن اعتراضاتى الكثيرة على النتائج الفرويدية تخرجنى من حلقتهم . وإذا لم أكن منهم فإنى أعد نفسى ضدهم .

والفكرة التوجيهية الثانية التى تكون طبيعة الإنسان الفرويدى هى اللبيد ، «الإنسان اللبيدى» Libidinal Homo وفحوى هذا أمر بسيط للغاية ، فمن المفيد أن نحصل على كلمة عامة شاملة تلخص ذلك الشىء المجهول الأساس الذى يدفع الحياة إلى الاستمرار . ولك أن تسميه الطاقة أو « الدافع الحيوى » ، أو مركباً من الدوافع الحيوية ، أو التحمس للحياة والاهتمام بأمرها ، ولا تنس أنه حيوى « بيولوجى » فى لبه ، لكنه يحصل على أفراط فى النمو النفسى المترف حيث يعيش ، ويتحرك ، وحيث يظفر بوجوده المعقد . وهذا هو اللبيد .

ومن الواضح أن شيئا يدفعنا إلى مواصلة الحياة ، ومن العجيب أننا عشنا طول حياتنا بدون هذه العملة السهلة التناول . ولكن الترحيب باضافة لفظ جديد إلى المصطلحات الفنية لا يعنى فى حد ذاته معلومات جديدة . وايا كانت البصيرة التى يضفيها هذا اللفظ ، فانها من الجائز أن تتحول إلى نوع من بلبلة الخواطر إذا فهمت القوات المؤلفة للبيد بشىء من التحيز العقلى . وإذا اتسم

الليبيد كله بطابع جنسي ، فان العملية النفسية تتحول إلى شيء آخر مختلف كل الاختلاف . وتعاود المشكلة الخطيرة الظهور ، فنعود إلى التساؤل : ما هي طبيعة ذلك الحافز المعقد الدافع للحياة ، والحياة متعددة الالوان ؟ وهل فهم فرويد له صحيح ؟ .

وفى هذا الموضوع يختلط الاثر عندى . واعترف بفائدة اللفظ ، وادرك موضعه فى علم النفس ، ولكنى لا اقبل ذلك التطور الذى أوصله اليه فرويد . وعلم النفس الليبيدى علم شرعى ، بل الواقع ، أنه جوهرى ؛ ويرجع الفضل إلى فرويد فى توجيه علم النفس إلى هـذا الاتجاه ، ومنه تضمين البواعث النفسية اللاشعورية ، والوظائف الاولية ، مما نجده أيضا فى المستويات العليا الخاصة بالنمو الثانوى ؛ فالليبيد فيه مقوم لاشعورى جوهرى أيا كان اعتراف الإنسان العاقل به ، وأيا كانت أدارته الشعورية له حكيمة أو غير حكيمة .

والفكرة التوجيهية الثالثة فى المشروع الفرويدى هى «الاعلاء» Sublimation . وأنا أوثر التوسع فى معنى هذا اللفظ عما أضفاه عليه فرويد . فالاعلاء هو توجيه دافع معين يحتمل أن يكون منفذه محدودا أو غير مرغوب فيه ، إلى تعبير أكثر قبولا ، ومن مرتبة أكثر سموا ؛ وهو يشترك فى جميع عمليات أعادة توجيه

الدوافع التى تظهر المنتجات النفسية السامية ، والمهذبة المقبولة من الناحية الاجتماعية .

ومن الاوجه الهامة للاعلاء الاشتراك الاجتماعى ، ومعناه أنسجام أكمل مع سلوك الاخرين ، ومراعاة لهم فى جميع الحالات والعلاقات . ولن يذهب الناس كثيرا فى الاعلاء بغير التأثير الاجتماعى ، فنى الاعلاء يحتفظ بالدافع الاصلى ، على حين تتحقق تعبيراته السامية ، فهو يلخص النمو التقدمى ؛ وعندما تتوافر الاساسيات ، فانه يكون وثيق الصلة بالجانب الاكثر ثروة ، وبالاتجاهات التى ترضينا فى الجزء الفائض من حياة الفراغ والترف ؛ والاعلاء يصحب عملية النمو ، واننا لنزداد أعلاء كلما أزداد نضجنا النفسى .

ولولا المراحل المتعاقبة للاعلاء لبقينا فى الحالة البدائية التى كان عليها الانسان وهو يعيش فى الكهوف والمغاور . فالحياة المتمدينة هى الحياة التى ظفرت بنصيبها من الأعلاء . وبما أن اللبيد هو الاسم الشامل للدوافع ، فهو فى معنى عميق ما ظفر بالاعلاء . وفى كل هذه الاعتبارات يعد علم النفس الفرويدى علم نفس يشمل اللاشعور المغمور أو المكبوت ، فهو علم نفس لبيدى يرد السلوك إلى الدوافع الاساسية ؛ وهو علم نفس إعلاء يتعقب مسار النفس من اتجاهها الأولى إلى شكلها النهائى . وإذا كان الاشتراك

فى هذا البرنامج باعتباره حيويا يجيز للفرد أن يوضع فى مرتبة الفرويديين فانى أطالب بهذه التسمية . وعلم النفس الذى من هذا النوع هو ، ولا ريب ، الدراسة الواجبة للجنس البشرى .

فرويد وعلم النفس المعاصر

أن النتيجة التى تلتقى عندها الفكرة السائدة فى « السيمفونية » الفرويدية ليست بالضرورة من تأليف فرويد فى أى ايقاعاتها . وفى رأيى ، لا يوجد فى الموضوع الفرويدى — ولا فى تلمسه لعلم النفس بما فى ذلك أدلته فى الشواذ — ما يدفع إلى عزف البرنامج الفعلى بما فيـــه من تنوعات حافلة بالنشاز ، وعدم الانسجام ، والاسراف والمبالغة . وفى وسعى أن أتخيل « علم نفس أعماق » يتضمن الأجزاء الرئيسية الخاصة باللاشعور بما فيه من النواحى المغمورة ، والمندمجة والمكبوتة ، والخاصة بالدوافع الأساسية سواء سميت لبيدا أو غيره ، والخاصة بالاعلاء فى شتى مظاهر تحوله ، مما يؤدى إلى تقدم معرفتنا بالسلوك البشرى ، ويدعم تحكمنا فى أنفسنا ، ولا سيما فى مسألة علل المصابين بأمراض العصاب ؛ ورغم هذا كله ، فان علم نفس الأعماق هذا الذى أتخيله يظهر مختلفا كل الاختلاف ، ويقوم فى مجموعه على أساس علمى سليم . وهذه الفرويدية المحتملة الحدوث ستكون أقل بريقا من النظام الحالى ، ولكنها ستكون سليمة وأصيلة أكثر منه ؛ ومع ذلك تبقى الحقيقة

قائمة فى أن هندسة بيت التحليل النفسى تحمل إمضاء فرويد، فخطط البيت وتنفيذها ستكون كما قدمه . وليس فى وسعنا أن نختار كيف تأتى مراحل التطور التاريخ الذهنى ، ولا كيف تتسلسل الحوادث البشرية سواء أكانت سياسية أم اقتصادية . وتبقى بعد هذا أيضا الحقيقة القائلة بأن التحليل النفسى قد برهن عن طريق مغرياته الواسعة النطاق ، وتغلغله الاجبارى فينا ، على أنه مشكلة تتطلب تجديد علم النفس وطب أمراضها ، فقد أثر على سبل الحياة والتفكير تأثيراً شاملا . وهذه الحقيقة تنقش اسم فرويد فى سجل تاريخ الآراء مما يبرر مغامرتنا الحالية لنقده .

ولقد كانت اتجاهات أخرى فى علم النفس المعاصر تسير نحو نفس الغاية المنشودة ، فعلم نفس الطفل . وعلم النفس الاجتماعى . والاهتمام المتزايد بالشخصية فى علم النفس العام . كلها تعبر عن الاهتمام ذاته بالاستجابات العميقة ، والوجدانية ، والبدائية التى نجابهها فى حياتنا اليومية . ودراسة السلوك البشرى دراسة حية ، من حيث الدوافع والبواعث النفسية قد أضاف الكثير إلى البحث الأكاديمى المحدود للعمليات الذهنية . والجهاز العقلى : بل أنه قد حل محله وأفاد الفهم البشرى ، وتسيير أمور الحياة فائدة كبرى . ورغم هذا فقد بقى لفرويد أن يوجه علم النفس اتجاها جديداً سيظل محتفظا به إلى النهاية ، ففرويد هو القائل « اعرف نفسك الخفية »

ولقد كانت أكبر بحوث علم النفس الحديث ، كما تشكلت فى معامل « فنت » (Wundt) بمدينة ليبزج ، تدور حول الجهاز الخارجى للعمليات الذهنية . وقد استنفدت هـذه المدرسة نشاطها الأول دون أن تمس أعمالها الهامة المسائل الحيوية للحياة النفسية العميقة فى صميمها . وكان القصد والهدف الباعثان للفكرة الفرويدية يعبران عن روح العصر ، والبدعة أو « المودة » التى شاعت فيه . والأمر الذى أثار الاحتجاجات لم يكن اقتراح « علم نفس الأعماق » بل كان وجهة نظر فرويد اليه ، لأنها صورت النفس البشرية صورة كريهة مشوهة ، وهى النفس التى أشاد بها علماؤها ممن يعنون بالناحيتين الأخلاقية والذهنية ، فجعلوا منها مثلا أعلى .

وعند ما ظهـــر التحليل النفسى ، كان تجسيما لدراسة النوع البشرى ، دراسة غير لائقة به . وكان من العوامل البعيدة الأثر فى نشوء المعارضة واحتدامها ضد المبادئ الفرويدية ، النفور من النظر إلى الانسان كما هو فى الواقع ، ويضاف إلى ذلك الانهماك الأكاديمى فى دراسة وجوه خاصة للتعبيرات العقلية . وفى هـذا المجال كان منطق الحجة كله فى جانب فرويد ؛ فالحقيقة شىء مستقل كل الاستقلال ، ولا تتقيد بأقيستنا الأخلاقية ، ومدى تذوقنا للجمال ، رغم أن الأخلاقيات ، ومـدى تذوقنا للجمال تعبيرات حيوية للاعلاء .

وكان الوضع الملائم لانحراف ذلك الانسان الأكاديمى الذى أخرج على طبيعته يقبع فى التجديد البيولوجى الذى يستمد قوته المحركة من نظريات داروين . فالنفس البشرية مهما سمت بالثقافة يجب أن تنسجم مع التطور البيولوجى للإنسان . وما عناه « فنت » فى تسميته لكتابه الرائد فى موضوعه ، إذ سماه « بعلم النفس الفسيولوجى » Physiological Psychology ، كان أكثر قليلا من ارتباطه الوثيق ، واعتماده الكبير على علم وظائف الأعضاء فيما يختص بتحليله أجهزة الاحساس والحركة ، وفى جعله المخ أساس الانسجامات النفسية . وبعبارة أبسط ، فانه كان يرمى إلى أعطاء النفس أساساً جسمياً .

أما المسألة الجوهرية الخاصة باعتبار كل أشكال الحس والحركة كعلامات للغة تطورية ، وبتعبيرات هذه اللغة يجب أن يفسر علم النفس وكذلك علم الوظائف إذا أريد فهم معناها ، كانت هذه المسألة غير ممثلة تماما فى حركة « فنت » ، ولكنها قفزت إلى المقدمة منذ ذلك الحين . وقد سميتُ هذا الموضوع « بعلم النفس الطبيعى » (Naturalistic Psychology) على منوال الاصطلاح القديم « التاريخ الطبيعى » ؛ فالباحث النفسى باحث طبيعى ، ولكن فى مجال العقل .

وقد يدرس النفسى الطفل فى غرفة حضانته ، أو حيوانا فى موطنه ، أو شيئا من الأفعال المنعكسة ، أو لونا من الاستجابة المتقنة للراشد الناضج ، أو العادات الاجتماعية للانسـان البدائى أو المتحضر ؛ وهو فى كل من هذه الدراسات طبيعى ولو كان أكاديميا فيها . فاذا ما شارك الشعوب التيوتونية فى غرامها بالالفاظ ذات الوزن الثقيل ، فله أن يطيل الكلام فى أندماج التاريخ الطبيعى بتاريخ الثقافة ، فان أهم الحقائق عن الإنسان هى استعداده لتقبل الثقافة .

والتاريخ ليس إلا المستوى العلوى لتسلسل الحوادث ذات الصبغة البشرية التى تسبح فى آفاق بعيدة ، ولكنها لا تنفصل عن جذورها البيولوجية . وفى الحركة ذاتها وبغية مزيد من الفهم ، نشأت الدراسة الشائقة لكل ما هو شاذ ، مما يجعل كل نواحى المواهب البشرية الفطرية تتجلى فى صور مختلفة ، فبدت كالمطياف وقد اختل نظام الوانه . وهذه الدراسة أيضا تحتل مكانها فى الجانب الطبيعى ، وتعرض كيف تسير الطبيعة النفسية فى طريق خاطىء . وكل هذه الاتجاهات المتقاربة كانت تسير فى مجالات متوازية ، كما تجلى فى الحركة الفرويدية .

ولقد بدأ علم النفس الفرويدى بوحى هبط فى عيادة ، ثم

نما إلى تفسير عام للنفس. ولهذا يجب أن يجتاز الاختبار الطبيعى، ويجب أن تتأقلم طبيعته داخل الأمبراطورية العظمى للعقل . والحقائق التى تنطوى عليها مدركات مثل اللاشعور ، والليبيد ، والأعلاء . يجب أن تظفر بطريقة ما على دعامة لها فى ميراثنا الحيوى ، وتتكامل معه . أن مركبات التحليل النفسى تؤلف المحور المركزى لنظام فرويد ، وتجعل الحياة البشرية شديدة التعقيد إلى درجة الانهيار . ولست أذكر أنه بحث كيف أستولت هـذه المركبات على الإنسان ، وأقلقت الليبيـــد ، ولا أذكر تعليله لوجوب أعلاء الـكثير من الطبيعة الاصلية . وهو بحث له صلة بهذا الموضوع .

وهذه الأسئلة بالذات هى التى أعتبرُها جوهرية أكثر من أى شيء آخر ، وتجب إثارتها ولو تعذرت الأجابة عنها ، وإلا فإن أسس أى نظام للتحليل النفسى ستظل مفككة ومثارا للنزاع ، ومجرد تأملات بغير أسس . وهذا العرض لعلاقات الفرويدية بغيرها من البحوث النفسية ، قد يؤدى إلى الأنصاف فى تقدير صلاحية التحليل النفسى ومعرفة قيمته ، أيا كانت وجهة النظر النهائية إلى ما يقترحه فرويد من حلول .

« اللاشعور »

دراسة « طبيعية » :

عند ما يجابه العالم النفسى الطبيعى أبتكارات فرويد الهامة . فان منطق العلم يثير فى ذهنه عدة تحفظات ، وبالنظرة ذاتها يجب أن نبحث فى شأن علم النفس الذى تطالب الفرويدية بالاعتراف به ، فان الصراع بين أنواع علم النفس من الأسباب التى تبين صعوبة الحكم على الفرويدية ، ومعرفة مواطن النقص واسبابه فيها ؛ فالمشروع ، وخطة العمل ، والنظام ، والمبادىء ، والتفسير الكلى الذى يتلخص فى عبارة «التحليل النفسى» ، كل هذا لا يكفى فيه القول بانه خطأ أو صواب ، وهو لا يقبل على أنه جاء ليحل مكان علم النفس المعترف به ، وفى الوقت نفسه لا يمكن حرمانه من مكان يتبوءه فى نطاق هذا العلم وبنيته .

ويضاف إلى ذلك مكانة علم النفس ذاته فانهـا لم تظفر بعد بحدودها النهائية ، كما أن مبادءه الأساسية لم تقرر بعد فى صيغ دقيقة ، بل أن حدود محتوياته لاتزال مائعة يتعذر معها تسجيل مدى تقدم برامجه . ومرونة علم النفس أن هى إلا نتيجة الريبة والتحفظ والتسامح ؛ ولولا هذا لما ظهر التناقض الحاد بين الحلول

ولما كان « تبلبل » الالسنة بين النفسيين من الامور المحيرة ؛ فبناته يعانون من أكثر من انقسام فى التعبير . وهم يعملون تبعا لتصميمات مختلفة ، ولكنهم يعتقدون أو يرجون أن تنسجم الواجهات مع بعضها البعض ؛ أو هم يعملون فى اطمئنان متجاهلين مشروعات الآخرين . وهذا موقف سيء الحظ ،ويصيرا سوأ لو ان الفرويدية وضعت نفسها فى مركز المنافس لهم جميعا ، وهو مايبدو أنها تدعيه الآن فى جرأة .

ولاقتناعى بان الدراسة الطبيعية للاشعور تقدم أفضل الامال فى توفيق شامل ، فانى ساعرض التحليل النفسى من هذه الوجهة . وأول ما ساتناوله بالفحص هو أهم المدركات الفرويدية واكثرها ضرورة لها ؛ وهو « اللاشعور » الذى بغيره ما كان ثمة وجود للتحليل النفسى . ولقد قامت الحركة كلها على حل واجابة بارعة عن سؤال فى صميم الموضوع . والسؤال يتكافأ فى أهميته مع ما اثار فضول نيوتن (Newton) بشأن سقوط التفاحة . وهذا السؤال هو : لماذا تتخذ أعراض الهستريا أشكالها الخاصة فى أنواع عجز معينة وغير بيولوجية ؟ .

وهذه الأعراض « غير طبيعية » من الناحية الفسيولوجية ، فهل من الممكن أن تبدو كشيء طبيعى من الناحية النفسية ؟ هذا جائز إذا اشتملت طبيعة النفس على اللاشعور ؛ فان المريض كان

يبدو ضحية الأعراض لا محركها . وكان يشعر بقوتها القاهرة شعورا قويا . ولكنه كان يجهل أصلها ومنشأها ؛ وكانت الأعراض غير مطابقة لأى الألوان الفسيولوجية أو التكوينات الشعورية ؛ فالذراع المشلول ، والغشاوة على البصر لا مقابل لهما فى عجز الأعصاب أو العضلات ، ومع ذلك ، فان العجز لم يكن خياليا أو مفتعلا ، فكيف نشأ ؟ .

من العسير أن نفرض وجود « لا شعور » لمجرد أننا نريده لتفسير الحالة . وفى العصور السابقة كانت أعراض الهستريا وما شابهها تفسر على أنها مسة من الشيطان . وإذا كنت مستعداً لافتراض وجود الشياطين ، وأن من طبيعتها انزال مثل هذه الأعراض المرهقة بضحاياها ، فإن هذا التفسير مناسب كل المناسبة؛ وتبعاً لهذا الفرض وجهت التهم إلى السحرة ، فحوكموا ، وأعدموا ، ولكن عقولنا تنفر من مثل هذه الأشياء « غير الطبيعية » ، والتفسيرات البعيدة كل البعد عن الأمور العلمية ، فإن منطق محاكمات السحرة يتنافى مع معاييرنا المنطقية كتنافى أعدام المتهمين بالسحر مع معاييرنا الأخلاقية . أما « اللاشعور » الفرويدى الذى يحدث الأعراض الهستيرية ويفرضها ، فمن الميسور أن يفهم على أنه شيء طبيعى لا كعامل خارق للطبيعة . وهو ينشأ إلى حد ما فى داخل النفس .

ولقد عرف « اللاشعور » قديما وحديثا ، ولكنه فسر بتعبيرات غير عملية ، نشأت كلها كما حدث لفرويد من دراسة النواحي الغامضة عند حدود النفس وحافاتها . ولم تكن تلك الدراسات في المناطق ذاتها ، ولكنها كانت في أنواع من الهستريا . فهي تشمل ، فضلا عن التنويم المغناطيسي ، ما يقال عن كشف الغيب وتبادل الفكر على البعد مما شهد به الكثيرون . وقد ظفرت نظرية « هدسون » (Hudson) في كتابه « قانون الظواهر النفسية » (The Law of the Psychic Phenomena) بانتشار واسع (باستثناء القراء النقادة) من سنوات عديدة مضت . فقد أعلن في جرأة أن لنا عقلين، إحداهما « ذاتي » ، والآخر « موضوعي » والعقل « الموضوعي » هو الشعوري الذي يتولى العمليات العقلية التي تتصل بحياة اليقظة العادية المعترف بها . أما العقل « الذاتي » فهو اللاشعور : وهو المسئول عن جميع أنواع الغموض والعجائب الظاهرة ، والظواهر الخاصة بكل ما هو نادر وشاذ . وتوسع « هدسون » في فرضه ليشمل مخاطبة الأرواح ، فكان فرضه شاملا كل الشمول دون حاجة إلى هذا التطبيق . ولو كان لنا عقلان ، وكانت هذه هي وظائفهما لظفر علم النفس بحل شامل أكثر قبولا من مسات الشياطين ، ولكنه أيضاً لا يجد سنداً يؤيده . وقد أوحت دراسة « كاربنتر » Carpenter بهذه الفكرة من قبل.

وهى دراسة تمت بطريقة علمية فى المجال نفسه . وذكرها فى كتابه « علم وظائف العقل » Mental Physiology وفيه حاول أن يضع نظرية استثارة المخ بشكل لاشعورى .

وسقطت أراء هدسون خارج الدائرة الشرعية للعلم ، رغم أنه دعا هو الآخر إلى علاج يؤسس على هديها ، ولم يعد هذا الحدث يعتبر اليوم هاما فى تاريخ اللاشعور إلا من حيث هو فصل فى قصة الخطأ ، ومغزاه لا يحتاج إلى تفسير . واللاشعور الفرويدى يجب أن يظفر بطريقة ما بأساس (طبيعى) ، وإلا فانه هو أيضا سيرد إلى فصل آخر من الكتاب نفسه ، وإن كان أكثر أهمية .

ويعتبر « دنلاب » (Dunlap) « لا شعور » فرويد بغير أساس علمى فى الواقع . ولهذا فهو يستبعده استبعادا تاما ، كما يستبعد « مسة الشيطان » التى يقول بها بعض رجال اللاهوت . أو العقل الذاتى عند هدسون . وغالبية النفسيين وأطباء النفس يسلمون بوضعه الطبيعى ، ولكنهم يجدون أدلته ضعيفة إلى درجة أنهم لا يستطيعون قبول رأى فرويد فى اللاشعور ، على أنه رأى صحيح .

وفى رأيى أن « اللاشعور » الفرويدى غير شرعى فى لبه (لم يفرض فرويد عقلا لاشعوريا ، ولكنه عرض مجموعة من

الاجراءات اللاشعورية) ، فاللاشعور الفرويدى أمتداد منحرف لعلاقة فعلية ، ومن الممكن العثور على تفسير طبيعى لها . وأرى أنه من الهام للغاية البحث عن هذا التفسير رغم أن فرويد لا يعترف بالحاجة اليه ، ولم يقلق نفسه من أجل عدم وجوده ؛ بل أنه قبل « لاشعوره » كشىء واقعى ، واقتنع بأنه كشف عاداته وموطنه ، ومن ثم استكشف طبيعته ونماها وطبقها فى ثقة على تفسيرات كثيرة أخرى فى عالم النفس وحدوده القصية . وفى هذا الاتجاه ، وعلى مثل هذه القاعدة الأفتراضية ، وبهذه التطبيقات البعيدة المدى تقوم أسس رفض الفكرة .

أسس بيولوجية .

كان ريفرز Rivers أول من أدرك أهمية البحث عن أساس فسيولوجى « للاشعور » ؛ وإذا كان عالم العقل منظما فى الواقع حول وظائف شعورية وأخرى لاشعورية ، فان أسس هذه التفرقة تتغلغل إلى أعماق البنية العضوية . وقد وجد «هيد» Head وريفرز دليلا على التميز بين« الحساسية » الانفعالية الاولية »[1] Protopathic (البدائية) »، والحساسية المميزة « Epicrictic ؛ وقد

(١) تعذر على باحثين آخرين تحقيق هذه التجارب والاكتشافات . ويوجد أيضا نوع الاستجابة الانفعالية التى يصعب تمييز درجتها فى حالة الانفعالات الحادة وعليها تطلق التسمية نفسها . (المترجم)

أجريا بعض التجارب على نفسيهما ، فلاحظا أنه إذا قطع عصب فى الذراع ، فان استعادته للحساسية عندما يشفى طرفاه المقطوعان ، تتبع نظاما معينا ، فيظهر أحساس مبهم بالالم ، وفج ، قبل ذلك الأحساس الحسى المحـدد الموطن الذى تستخدم به أطرافنا ومفاصلنا وجلدنا عن أدراك وتمييز .

وبتعميم هذا التمييز ، وصلا إلى نتيجة توحى بوجود حياة أنفعالية أولية يجوز أن تعين حدود النفس فى الأحياء الوضيعة . وتستجيب بشكل فج للتغيرات سواء أكانت سارة أم غير سارة . وهذه تسبق من حيث الزمن النموذج الاسمى للحساسية الذى يشغل الأفق الشعورى وتنطوى عليه . وهذه هى حياة «الحساسية المميزة» ، حياة الأدراك والمهارة والعلاقات المتبادلة والغرض . والجهاز الحسى الحركى يمدنا بدليـل نموذجى للمنظمة العصبية ؛ فنوعا الحساسية ، يظلان باقيين ويتحدان ويؤلفان « النفس » الجلدية . وفى اندماجهما تسود الاحساسات المميزة ، وتتراجع البدائية مخلفة بقايا مضطربة . كمظاهر بيولوجية عجيبة ؛ ومن أمثلتها الدغدغة والتهاب الجلد . ومن الجائز أن نقبل الحواس الجلدية كمفتاح بيولوجى يكشف عن الحياة الحسية البدائية ، فالعين والأذن من أكثر الحواس تمييزا فى مرتبة التطور .

وبالتوسع فى هذا التمييز يتضح أن الحياة الشعورية مميزة ،

وأن الحياة اللاشعورية تأوى جانبا من الحياة «البدائية» ؛ ولا نعنى بذلك حياة بدائية كل البداءة ترجع إلى العصر الباليوزوى كما عرفناها ، بل نعنى شيئا يشبهها من الناحية البيولوجية ؛ وكما أدت تجربة «الفعل الشرطى المنعكس» التى قام بها بافلوف [1] Pavlov إلى تزويدنا بنموذج فسيولوجى أولى للاشكال البسيطة للعادات ، فان تجربة هيد وريفرز زودتنا بنموذج للتمييز النهائى ذى أثر بعيد. وكلا التجربتين تشيران إلى مقومات ونماذج تتدخل فى السلوك .

وبالتوسع فى مدلول تجربة الغدة اللعابية نجد عامل «الشرطية» قد نما واحتل فصلا هاما فى علم النفس ، ومنه انتقل إلى التربية . ومن الجائز أن تكون تجربة القطاع العصبى « لهيد وريفرز » ذات أهمية أكبر كاستهلال للفصول العظيمة لحياة اللاشعور والشعور ، فعلم النفس القائم على النماذج التجريبية، وعلى القواعد الراسخة ليس من المسائل النهائية ، ولكنه موضوعى وإيحائى يفتح لنا أبوابا كثيرة .

والاطلاع على التفاصيل يقدم مزيدا من الايحاءات . ففى فترة النقه يتحول الجلد ذو الاحساس المميز عادة إلى حالة أحساس

---

(١) بافلوف : عالم روسي اشتهر بتجاربه عن الفعل الشرطى المنعكس . وكان تجريها على الكلاب . وفى أول الأمر كان يقدم الطعام للكلب وفى الوقت نفسه يدق جرساً فتفرز الغدة اللعابية عند الكلب إفرازاتها . وبعد عدة محاولات صارت الغدة تفرز موادها بمجرد سماع رنين الجرس دون تقديم الطعام . (المترجم)

لا يتحدد فيها موطن معين له . بل أنه يكون شائعا منتشرا . ومن الجائز أن تشعر به على بعد غير قليل من نقطة التأثر ؛ فإذا شفى العصب عاد الاحساس المميز ، ويجوز أن يختفى مرة ثانية إذا وضعنا شيئا بارداً على الجلد . وفى العادة تزحم الحساسية المميزة ما تتمسك به الحساسية البدائية وتطرده . وكان التفسير البراق لريفرز ينص على أنه عندما كان العصب المنفصل ، ثم الملتحم فى ذراعه فى فترة استعادته لحساسيته المميزة ؛ فان ريفرز كان فى حالة احساس سقط من الخبرة البشرية من دهور طويلة ، إذ تعرض للكبت البيولوجى فى عملية أندماج العناصر البدائية بالمميزة .

ويقول ريفرز إن « استخدام الجانب الاكبر من العمليات المعقدة التى تحدث الحساسية البدائية بفعل أجراءات الأندماج ، هو المصير المحتوم ؛ وإن الجزء الأصغر وحده هو الذى يتعرض للمصير الآخر وهو «الكبت » . وإذا ما قبلنا ما يحدث فى المجارى العصبية التى تمد الجلد ، واعتبرناه نموذجا أوليا ذا بنية أكثر تعقيدا وأحللنا« النشاط العقلى والخبرة الذهنية »محل الأحساس الجلدى ، فاننا قد نصل إلى نتيجة ؛ وهى أن مفتاح علاقة اللاشعور بالشعور هو الانتفاع عن طريق الأندماج . ومع ذلك فان علم وظائف الأعضاء يعمل على تزويدنا بعامل « أحتاج إلى الكبت ، وهو أجراء أخطر واحسم » .

والغرض من ذكر هذه التجربة . هو أن نبين أن مدركا علميا بشأن اللاشعور يجب أن يبحث عن أساس (حيوى) بيولوجى يقوم عليه . أو إن ينسجم معه على الاقل . وإذا ما وجدناه ، فانه لا يكون إثباتا بل مفتاحا فحسب . ومن الجائز أن يوضح كثيرا ضد اللاشعور الفرويدى ، أو فى مصاحته . واكتشاف نوع من الكبت الفسيولوجى يقرى مركز قضية الكبت النفسى ، ولكنه لا يجعل الأثنين شيئا واحدا ، بل لا يستطيع أن يشبههما بعضهما ببعض .

وسيكولوجية « اللعاب » أو « الجلد » ليست نموذجا لعلم النفس المخى : فان السلوك البشرى فى مستواه العادى المعقد الذى يعرفه السلوكيون أو الفرويديون أنما يصدر من جهاز عصبى شديد التكامل . وقول واطسن Watson بأن السلوك البشرى الراقى يمكن أن يفسر « بالشرطية » Conditioning التى يمكن مقارنتها بتجربة بافلوف ، أنما هو تفسير خاطىء للتمثيل البيولوجى الذى كان دائما فى ذهن واطسن . ومن الجائز أن يرتكب الفرويدى نفس الخطأ إذا قرران أنواع السلوك البشرى المعقدة يمكن تفسيرها بكبت يضارع الطراز الذى يقول به ريفرز . ومع ذلك فان كليهما يقدم لنا تشابها بيولوجيا لم يفكر فيه فرويد .

وبغير تجربة قطاع العصب ، لكان لكل باحث نفسى «طبيعى»

متمسك بطبيعته أن يتساءل بحق أن كان هناك من أختبارات مكبوتة كبتا أساسيا كما يدعى فرويد . وبغير تجربة الغدة اللعابية ؛ له إن يتساءل أيضا ، أن كان تكوين العادة على هذا النمط شيئا أساسيا . وحتى أن صدقت التجربتان ، فانه لايزال صحيحا ، وهاما أن الحياة المعقدة لعاداتنا المدربة ليست خبرة « لعابية » معقدة ، ولا هى خبرة جلدية معقدة كذلك ؛ فالتكوين البدائى ليس هو التكوين النهائى ، وإن كان ذا علاقة به . وأشكال « الشرطية » « والكبت » المتأخرة الحدوث والسامية ليست من المرتبة ذاتها ؛ فهناك عوامل أخرى تنشا مستقلة ثم تندمج فيها . وهكذا يتلقى المنظر العام للسلوك ضوءا من « الشرطية »، وآخر يعادله ، ويتجلى من القاعدة الانفعالية الأولية والمميزة ، ثم ما يلى ذلك من تكامل يتم بطريقة الاندماج .

وإذا ما وضعنا نصب أعيننا هذا القياس الأولى ، فانه من الأفضل أن نقبل اللفظين الأكثر شمولا ، والدالين على الوظائف « الأولية » و « الثانوية » . ولا غنى عن هذه المرتبة البيولوجية فى علم نفس الأعماق سواء منه ماقام على القواعد الفرويدية أوغيرها ؛ فالوظائف الأولية تندمج مع الوظائف الثانوية التى تحتل مكانها ؛ وهذه الوظائف الثانوية شعورية « ومميزة » إلى حد كبير ؛ واللاشعور يقدم الوظائف الأولية التى تدعم السلوك الشعورى دائما .

والانغمار قد يكون على أى عمق ، والظهور أو الطفو قد يكون بأية درجة من الوضوح . ولكن قاعدتها كلها هى الاندماج ، الاندماج فى جميع المستويات ، وفى مختلف أنواع التكامل. والاندماج يسيطر على الكبت . وعلم النفس الذى قدمته فى كتابى « اللاشعور » Subconscious هو علم نفس أندماجى . ولفظة « لاشعور » مقبولة أكثر من مجرد لفظة ، لأن « الكبت » عامل ثانوى فى الغالب ، إن كان كبتا ، وليس مجرد انغمار ، بل هو فى الواقع أحد العوامل الخفية لكلا الأندماج فى مجرى الشعور والأنفصال عنه . ويبدو لى ولكثير من النفسيين ، أن فكرة التفكك Dissociation صحيحة كل الصحة فيما يختص بهذه العلاقات المختلفة ، ولكنها تخضع لاتجاهات أخرى ، ومنها العوامل الفرويدية الهامة ، وما تحوى من صفة الكبت المراقب ، مما يبدو فى بعض الأحيان كبواعث غريبة ، وفى أخرى كبواعث بسيطة .

التفكك والكبت

كيف يحدث التفكك ؟ إن تخلف شطر من شطور الحياة النفسية عن المجرى الرئيسى لمشكلة كبيرة الأهمية ؛ وهو (التخلف) يشبه تكوين مجرى فرعى لنهر بفعل جسر يعوقه . وهى مشكلة تجعل التداعى والتفكك وظيفتين متوازيتين . ولفرويد يرجع

الفضل الخالد فى أنه إدرك مدى أتساع هـذه الحركة النفسية وشمولهـا ، وأنه بين عاملا جوهريا بشـأن مصدرها . وهو مفتاح أهمله النفسيون — وأنا منهم — ممن درسوا الظواهر « اللاشعورية » أهمالا كبيراً ، ومع أن أهمالهم لها لم يكن كاملا ، ولكنه تم بغباوة . وهذا المفتاح هو العامل الدينامى أو المحرك للبواعث النفسية .

وقبل عهد فرويد كنا نـكثر من دراسة « تحت الشعور » على أساسى وصفى (أنى استخدم هذا اللفظ « تحت الشعور » موضوعيا لا تشخيصيا باعتباره دلالة مريحة ، لا باعتباره حقيقة مستقلة ، فليس هناك شىء اسمه «تحت الشعور»، وإن وجدت أوجه « تحت شعورية » ، ومقومات لا شعورية فى المجرى الكلى للنفس) . وكنا نحلل العـلاقات بين ما بقى فى المجرى العـام والفروع والبواعث النفسية وبين ما فقدته ، فاهملنا القوى المسببة للقنوات المتشعبة الأخرى .

ومن الممكن فهم هـذا الأهمال وتعليله ، لأن الظواهر المعترف بانها لا شعورية كانت من طراز الـكتابة الآلية وما شابهها من العمليات التى من ابرز سماتها الغرض الذهنى فى وسط نثار متفرق . وكانت المشكلة هى كيف تمـارس عملية السيادة الذهنية

والمعرفة التى يبدو انها تتم دون اتصال بالنفس الموجهة المعيارية . وكانت الكفاية العظمى اكثر وضوحا من العجز وعدم القدرة . أما حالة الغيبوبة وحدها سواء أكانت خفيفة أم عميقة ، فكانت توحى بالحرمان من بعض الوظائف ؛ وفى الوقت نفسه كانت وظائف أخرى مما لا يخضع لاشرافنا فى العادة ، تواصل عملها .

وبتعبير بسيط كل البساطة فان التنويم المغناطيسى يغوص إلى أعماق المجرى الأساسى ، ولكن البواعث المحركة ظهرت فى حالة السير فى أثناء النوم ؛ (أطلقت عليها من قبل اسم « مطالب ») ، وفى حالة فقد الذاكرة مما يدل على الهرب من قيود الحياة المنزلية ، وفى حالة ازدواج الشخصية أو أصطراعهما لتعبر عن أوجه الرغبات الفاشلة أو الممنوعة ؛ وفى كل هذه الحالات لفقدان الذاكرة كان يوجد نموذج التفكك الكامل الدال على الكبت ، وذلك إن صح أن الناس فكروا فيه على هذا النحو من قبل . وبفكرة واحدة سجل فرويد لفظة « كبت » على الخريطة النفسية ، فكانت من التكلمات التى قدر لها البقاء ؛ فالاراء ، ونظم الانفعالات أو الذكريات ، وضروب من تنسيق الحركات ، يمكن أن تطوى فى النسيان بمعناه العادى : أما فقد الذاكرة فمن الجائز إن يكون انتاجا ديناميا فى ظروف خاصة ، كما لو قذف النهر بحاجزه الرملى المعرقل لحركته .

وهكذا تم « اكتشاف » مبدأ حتمية « اللاشعور » ، فازدادت ثروة علم النفس . وتظهر الحيل هذه فى الهستريا وأشباهها من أنواع العجز التى شغلت فرويد . وهنا ظهر وجه جديد للشعور : ولم يكن وجها آليا ، بل كان عجزا باعثه غريب . والنسيان عملية سقوط أمر من الذاكرة فى العادة ، ولكن من الجائز ان تفكر فيه كشىء مدفوع إلى أسفل ؛ فالجهاز الذى يحرك أبواب السهو يستحق الفحص الدقيق . ومرة أخرى نواجه السؤال الهام : هل عمل فرويد على تطوير هذا الاتجاه فى السيكولوجية الخفية بطريقة مفيدة وصحيحة ؟

ويرى « ريفرز » — وهو يعمل على وضع الاساس «الطبيعى» (أى الوظيفى) للاشعور — أننا فى حالة الكف Inhibition ، نملك حيلة تشترك فيها مستويات الخلق الراقية والوضيعة ، الكف ضرورى لكل وجه من اوجه النشاط ؛ ويتعرض للتعبير الشاذ ، وينطوى فى حدوده على التخدير ، والتنويم المغناطيسى ، وكثير من الحالات الاخرى .

ولشرح هذا الجهاز نبدأ قولنا بأنه توجد مجار عصبية للتنبيه ، ومنها تخرج الياف عضلية مفردة أو فى جماعات متناسقة . وهذه المجارى العصبية المنبهة يحتمل أيضا أن تدفع الغدد إلى أفراز

موادها ؛ وتوجد أيضا اليـاف مانعة أو كافة ، وعملها هو حجز ما يجتازها ووقفه .

وقد قيل حقا ، أن الطبيعة تسير وهى ممسكة بلجامين ؛ أحدهما للضبط . وأنواع الكف والمنع الشديدة التعقيد فى حالة الخجل ، وصعوبات إطلاق الدوافع فى حالة وجود دوافع مضادة ، والشلل الناشىء عن الخوف . وتخشب التنويم المغناطيسى ، والتردد الناشىء عن الارتباك أو الريبة ؛ كل هذه الظواهر مألوفة لكل مراقب للسلوك البشرى ، كما أنها تظهر فى أشكال اكثر بساطة فى تجارب الباحثين فى علم وظائف الاعضاء ؛ فهى تمثل أنواعا من الصراع بين عمليتى الإطلاق والإمساك أو الكف ، والكبت الذى يجعل خبرتنا لا شعورية ، إنما هو نوع خاص من عملية الكف » . وهذه القاعدة الهامة التى وضعها « ريفرز » ذات أثر بعيد فى أضفاء الاوضاع الطبيعية على الكبت : وهى تدعم المدرك الفرويدى ، ولكن هذا لا يعنى أنها تدعم طريقة التطبيق الفرويدية بالضرورة .

ويتوغل « ريفرز » فى دراسته . فيقرر كيف أن الطراز الفج للاستجابة « الكل أو لا شىء » — كما هى الحال فى استجابات الأطفال العنيفة — يخلى المجال للاستجابات المرتبة والمتدرجة ، وهى من خواص السلوك المكفوف ، الناضج ، والمميز ، والموجه . فالطفل يندفع اندفاعا تاما ، أو يتوقف توقفا تاما ؛ بينما الشاب

يكيف ميلا أو اتجاها بآخر . والترابط فى مهد المخ Thalamus الذى يعد مقر الاستجابات الانفعالية (كانون Cannon وغيره) ويقابله الضبط الصادر عن لحاء المخ — هذا الترابط يوحى بأنه يوجد فى بنية المخ أساس وظيفى لذلك التمييز البعيد الأثر بين الوظائف الاولية والثانوية . وهذا هو موضوع « علم نفس الأعماق » .

وأضيف كلمة إلى لفظتى أولى وثانوى الثمينتين لأن أهميتهما جوهرية ، ولأنى أعتقد ان استخدامهما بدلا من التعبيرات الفرويدية فى حديثنا وتفكيرنا سيوضح كثيرا من العلاقات ، ويجنبنا كثيرا من الغموض . وقد استخدمهما يونج فى حرية . وشرح نشأتهما فى رسالة إلى الدكتور « روباك » Roback فقال أنه استعارهما من « أوتو جروس » Otto Gross فى كتابه « الوظائف الثانوية المخية » Die Cerebrale Secundärfunction الذى صدر فى عام ١٩٠٢ . فقد استخدمهما فيه من الناحية الفسيولوجية ، ولكن لهما دلالاتهما النفسية الهامة . ويحمل علم النفس البدائى ومشتقاته — وهو الخاص بالحالات الوضعية والسامية — هذا التميز الذى يوحى الينا بكثير من الأفكار . وكل هذا يؤلف مدركا شاملا ، ولا غنى عنه فى كثير مما تنطوى عليه الدراسات الحديثة ومنها الفرويدية . وسأستخدم اللفظتين بكثرة وبدلالاتهما ، ناظرا فى ذلك إلى البدايات والنهايات الفسيولوجية والسيكولوجية .

وألخصها بقولى أن الأفعال المنعكسة ، والتأثيرات الغددية ، والاحساسات العضوية . وأنواع التناسق الثابتة ، والاستعدادات الفطرية ، والدوافع الغريزية ، والطباع ، وأنواع الكف ، ومستوى حياة الطفل ، والتركيبات البسيطة فى الحيوان والمراحل الثقافية المبكرة ، كل هذا يمثل الوظائف الاولية سواء أكان التمثيل كليا كاملا ، أم بشكل غالب عليها . إما التمييز ، والعادة ، والتوجيه ، والتفكير ، والانفعالات الناضجة ، والعواطف ، والأذواق ، والمهـــارات ، وأنواع البراعة ، والإشراف ، والانسحاب ، والقاق ، والاراء ، والمعتقدات ، والمثل العليـا ، والمعايير ، والوساوس ، والمبادىء والتأملات عامة ، كل هذه وظائف ثانوية تماما ، أو يغلب عليها أن تكون كذلك . وفيما بينهما يجد علم النفس مشكلاته ، كما تجد الحياة عقدها التى تحيرها .

وفى مثل هـذه القوى الدينامية المعقدة تكثر الفرص لاختلاط العلاقات ولاضطراب الوظائف وضلالها . وهذه الطريقة فى التقدير ذات قيمة ثابتة للنفسيين ، سواء اكان طابعهم العقلى نظريا أم عمليا . ومع أنها ، ككثير غيرها ، ليست من الاسهامات الفرويدية ، فانها ظفرت بثروة (كما أصابها الاضطراب فعلا) باستخدام التحليل النفسى لها مما جعلها شيئا آخر مختلفا كل الاختلاف عما هى فى وضعها الطبيعى .

ومن الخير أن نوضح مرة ثانية أن استخدام اللفظ نفسه للدلالة على عمليات متباعدة بعضها عن بعض فى القياس الفسيولوجى وفى القياس النفسى بشكل خاص ، لا يعنى تحديد هذه العمليات أو واحدة منها ، ولا يدل على أن بينها وجوه شبه ؛ ومن الجائز أن يكون التناقض من حيث « الحالة » أكثر أهمية من تشابه يحتمل أن يبرر وضعها ضمن أحدى السلاسل التطورية لاغراض المقارنة . وفى هذا المعنى يمتد « الكف » من أنسحاب الطفل من بين ذراعين غريبين ، إلى تأنيب الضمير الحى عند رجل متدين ؛ وهذا لا يعنى أن أحدى الظاهرتين هى الأخرى بأية حال من الأحوال ، كما أن الخجل ليس تأنيبا ، والتأنيب ليس خجلا .

والحقيقة القائلة بأن «جهازا» ما قد أعد لحالتى الفحص كليهما ، إنما تزود المدرك بدليل طبيعى يؤيده ؛ والمحظورات والأفعال المنعكسة الكافة يجب أن تبحث فى مجموعها بشكل مختلف كل الأختلاف . ومع ذلك فاذا ما منحنا الحيل النفسية الملائمة ، فاننا نصل إلى حالة الكف عن طريق أساسى فى حالة الحظر ؛ وهذا هو التطور فى داخل النفس ، والمشروط بالتطور داخل الجسم . والحال كذلك مع الباحث فى علم الأحياء ، فانه قد يبدأ دراسته من كائن حى العين فيه نقطة صغيرة ، ثم ينتهى بانسان

له زوج من العيون يرى بهما معا ; وهى كذلك عندما يقول داروين عن الجذور أنها « مخ » النبات ، فكلها تشبيهات ، وليست حقائق . ولهذه الأسباب وغيرها ، فان أتجاه مشروع فرويد ومقصده يعد داخل نطاق التقدم الجوهرى فى علم النفس أيا كان رأينا فى طريقة تنفيذ هذا المشروع . ومن المفيد أن ندرس الاصول البدائية للتشكيلات النهائية للسلوك ، ونرى العظيم منها فى الوضيع .

وهذا شىء هام للباحث النفسى « الطبيعى » لانه يزوده باحساس بالطمأنينة فى تعقبه لشعب السلوك اللاشعورى إلى ابعد ما يستطيع ، حتى إذا صار أثرها مبهما . وهذه الدراسة تجعله ميالا إلى مبادىء المشروع الفرويدى ، وفى الوقت نفسه تصر هذه الدراسة على أن يظل نمو اللاشعور مخلصا للادراك « الطبيعى » الخاضع للمنطق . وتمييز وجوه شبه ، وعلاقات فى برنامج تطورى هو لب العلوم « الطبيعية » ; فاعتبارها شيئا واحدا ، مع أهمال ما بينها من وجوه الخلاف الشديد من حيث حالتها ومعناها ، مغالطة مضللة ثبتت إدانة فرويد والفرويديين فيها .

نقد اللاشعور :

النتيجة العامة التى وصلنا اليها على ضوء جميع الظواهر التى يصح أن تندرج تحت اللاشعور ، هى أن « اللاشعور » عند

فرويد أنما يقوم بدور صغير فى نطاق السلوك البشرى . إلا أنه دور حقيق . ويصح أن يفسر بحق على أنه عامل من العوامل التى فى جملة نواحى النظام النفسى اللاشعورى . والدور الرئيسى فى هذه العملية وما قد تؤدى اليه هو الأندماج — اندماج الوظائف الأولية والثانوية ، والتكامل المتوالى فى النطاق الأولى الواسع . والسيكولوجية السائدة هى الأندماجية . فاذا ما تراجعت أو أخفق التكامل ، فقد ينطوى ذلك على نوع أو درجة من التفكك الأرتدادى إلى جانب الترابط السائد .

وفى الأشخاص الذين لديهم الاستعداد ، يجوز أن تصل هذه الحالة إلى تفكك عميق ، مؤقت أو طويل الامد . وهذه الحالة بدورها قد تكون جزئية من حيث تكييفها الفسيولوجى ، وهى فى الغالب نفسية التكييف . وفى هذه الخطة الشاملة لحالات التفكك (أو عملياته) ، من الممكن أن يتلائم « اللاشعور » الفرويدى ، بل أن هذا التلاؤم واجب .

ولا ريب أن فرويد يقر الناحية الاندماجية . وهو يسميها « مقدم الشعور » Fore Conscious وأنا أشـــير إليها كدعامة « تحت الشعور » من حيث أنها تدعم الشعور ، فالوظيفة الأولية تدعم الوظيفة الثانوية ، وفى مجال التشابه البعيد نقول أن الحساسية الأولية الغامضة تدعم وتخلى الطريق لأنواع الحساسية المميزة

وأوجه النشاط المميز . وتجد فكرة أداء تحت الشعور لوظيفته فى كل الدرجات حجة بيولوجية سليمة تؤيدها فى مسأله تكامل طرز التركيب العصبي . وعندما يحدث (الانفصال) التفكك فى لحظات « الشرود » ، وفلتات الانتبـــاه ، وحالات الغيبوبة ، والحركات الآلية ، والأحلام ، والسير فى أثناء النوم ، فان الأدوار يعاد ترتيبها ، مما يزودنا ببصيرة اضافية بالعلاقات العادية التى بين اللاشعور ومقومات الشعور .

وتبقى فى هذه العلاقة وجه واحد هام ، ولفرويد أن يوضحه لنا ، إذ يظهر بجلاء فى تحليل الحالات العصابية ، ومن الجائز أن نسميه مؤقتاً « باللاشعور العصابى » ويجوز أيضاً أن نسمى وجه التفكك « بلا شعور الغيبوبة » أو « لاشعور الآلية » . ومن حيث المزاج ، يحتمل أن يتعرض كل منا إلى مدى ما إلى أى هذين الميلين . فالمجال واسع فى كليهما للتفاوت بين الأعراض الخفيفة والبارزة ، وبين السوى والشاذ ؛ ومن المبادئ العامة فى سيكولوجية الشواذ أن كل هذه العلاقات تظهر أيضاً بدرجات خفيفة فى الأشخاص العاديين ، وإن يكن ظهورها حاداً ومبالغاً فيه فى الشواذ . وقد استقر هذا المبدأ وهو مستقل عن الأدلة الفرويدية وإن كانت قد دعمته وزادت ثروته .

والعبارة التى ذكرت توآ من أن اللاشعور العصابى يحدث فى

السلسلة السوية كلها ، يجعل هـذه التسمية بعيدة عن العدل ، فاللاشعور العصابي ، بعبارة أدق ، وجه من البواعث النفسية التى تظهر فى بعض الأوقات (وليس فى كلها كما يدعى فرويد) . وهو فى حالات عصابية معينة يلعب دوراً حاسماً ، وهو فيها ينتحل صفة عصابية لا يعرضها فى العـادة . وأعنى بهذا أننا جميعاً نحتضن ونرحب بنوع من اللاشعور الفرويدى ، كما أننا نـكومه ونتفق معه. ولـكنه لا يصل أبداً إلى المناسيب العصابية أو علاماتها. ولكل منا أنواع صراع تشترك فيها عوامل شـــعورية وأخرى لا شعورية . وبما أن مثل هذا الصراع يسوده الانفعال ، فاننا نستطيع أن نلقبه كذلك « باللاشعور الانفعالى » ، وإذا ما فهمنا اللفظ على أنه لا يتضمن إلا اتجاه انتحال الأعذار ، والهرب ، وهما من حيل التحول الفرويدية ، فان « اللاشعور » الفرويدى يصير متميزاً ومقبولا معاً .

وملخص نقدى هو أن فرويد يلجأ إلى هذا « اللاشعور الانفعالى » عندما يكون اللاشعور المتفكك (نوع من الفشل فى الاندماج) كافياً ، وطبيعياً ومقنعاً إلى حد بعيد . ولعل مثلا نضربه يساعدنا فى فهم هذه المسألة ، وليـكن المثل بسيطاً ، وبغير علاقة هامة بموضوع فرويد الرئيسى ، بل بمنطقه فحسب ، فان عامل التفكك البسيط لحالة عقلية من حالات الذهول يمكن أن يعلل بأنه فلتة تعليلا كاملا ، بل أنه ليعللها عادة .

وهب أن خطيباً وقف فى إحدى المناسيات ليجد أعمال شخصية عظيمة ، ولكن لفظتين اختلطت مخارجهما فنطقهما فى لفظتين أخريين تتفقان فى الحروف والجرس ، وإن اختلفتا فى الترتيب مما يكسبهما شيئاً من محاولة التهجم على رئيس الخطيب[1]. فى مثل هذه الحالة يدرك أكثر السامعين ما يعنيه الخطيب . فقد ألفوا منه تلاعبه بالألفاظ ، وما ينجم عن ذلك من فلتات ، كما يعرفون أيضاً أنه ليس على وفاق مع رئيسه .

وإذا ما قبلنا الباعث اللاشعورى ، فمن الجائز أن نستنتج أن العواطف عبرت عن فكرة عميقة كبتت بطريقة دبلوماسية لبقة. وبما أنه كان معروفا بارتكاب مثل هذه الغلطات ، وبدون وجود مثل هذا الباعث ، فإنه يبدو من الاوفق أن نعتبر هذه الغلطة أيضاً حدثا عارضا نشأ عن الغفلة وعدم الانتباه ، وأن نكف عن جعل الحبة قبة ونؤلف الكتب الخيالية المتكلفة عن « العلل النفسية فى حياتنا اليومية » من موضوع يصح ان يكون خطاباً ارتجاليا عارضا يلقى عقب مأدبة غداء اقيمت لجماعة من علماء النفس .

---

(١) ذكر المؤلف مثله عن احتفال بيوبيل الملكة فيكتوريا وان الخطيب كان كاهنا أراد ان يقول « ملكة عزيزة » Dear Queen فزل لسانه وقال Queer Dean أى رئيس غريب .

ولعل اخطر الفلتات شأنا هى فلتة حاسة مراعاة التناسب . ومن أمثلة هذه الفلتات : جاويش يتولى تدريب بعض الجند . فى لحظة اضطراب يصدر إليهم أمراً فى الفاظ حروفها مختلطة[1] ولكنهم يفهمونه على أنه « إلى الأمام سر » ولو كان بينهم أحد الفرويديين البارعين لحلل زلة الجاويش وتساءل — لماذا يحدث هذا الخطأ المعين ؟ فلا بد من سبب له ، فإن إحدى عباراته من ألفاظ الهنود الحمر وتعنى زوجة ، ومن ثم يستنتج أن الجاويش ليس على وفاق مع زوجته ، وأنه يخشاها ، ويتلق منها الأوامر . وهذا فى عرفه هو المفتاح اللاشعورى للخطأ . ولكن هل هذا علم أم هو مجرد لعبة فى وسع أى إنسان أن يلهو بها إن وجد فيها ما يسره وما يستحق الاهتمام ؟ .

وكان من المعروف قبل التعديل الفرويدى وبعده ، أنه توجد مجالات متوازية لأفكار شعورية ولاشعورية ، وأن اللاشعور يزود الشعور ، وفى بعض الاحيان تعترض إندماجهما وتكاملهما عقبات وفجوات ؛ كما عرف أنه يحدث بين حين وآخر أن جزءا من باعث يستعجل النتيجة ويظهرها . كل هذا واضح

---

١ — ذكر المؤلف اللفظة المختلطة على انها Squaward وصحتها بالانجليزية Foreward Squad ولفظة Squaw تعنى زوجة بلغة الهنود الحمر .

فى عمل اللاشعور الذى يخضع فى بعض الأحيان لضغط الكبت . وهذا لا يحتاج إلى « لاشعور » متمايز عميق لاحياء ذلك الوجه المغمور الذى لم يخلف أثراً أو دليلا ينم عنه حتى يقتضى الأمر وضعه فى قسم منفصل .

ومما عرفناه عن التفكك الشاذ نسلم بأن الانهيار يحتمل أن يكون عميقاً فى العصابيين فى أى مكان أو زمان . وأن ما هو مغمور لا يمكن احضاره إلى السطح إلا بوسائل غوص خاصة ، ولكن هى التنويم المغناطيسى ، أو الانطلاق عن طريق التفكك ، أو الافاضة فى الحديث الحر بمساعدة التداعى ، أو تفسير الأحلام ، أو أية وسيلة أخرى .

وهذا الرأى المرن السهل التشكل عن مدى اللاشعور ، وعن الباعث النفسى ، الذى يحتمل أن يكون كبير القيمة أو صغيرها ؛ هذا الرأى ينسجم إلى حد بعيد مع جملة المعلومات عن التكامل النفسى للوظائف الأولية والثانوية ، وهو أيضاً أكثر تلاؤما مع الناحية الطبيعية، وهو مدعاة لتجنب التطبيقات المتطرفة للباعث أو للكبت المغمور فى أعماق بعيدة ، فهو يفرض علينا أن نرجع باستمرار إلى النظام التصاعدى للوظائف الذى تنمو فيه العلاقات. وهذا الرأى كان جديرا بأن ينقذ فرويد من زلته التى لا تغتفر ،

والتى جعل فيها العقد النفسية عامة ، مما جعل اللعنة الأبدية الجنسية تحل بكل من ولدته امرأة .

ويضاف إلى هذا أن فرويد يخلط بين مصدرى محتويات اللاشعور ؛ فأحدهما يستمد محتوياته من خبرة الفرد الخاصة ، ويمثل المجموع الكلى لما أريد أنا نفسى نسيانه من حوادث الماضى والحاضر ، سواء أكانت اعتداءات أم ذنوبا أم عقبات ، فهى خفاياى الشخصية التى يحتمل ، بل يجب، أن أعرفها ولو معرفة جزئية. والمصدر الثانى لمحتويات اللاشعور فطرى إلى مدى بعيد ، وهو بدائى وعتيق حتى أنه ليبدو « سلاليا » وتطوريا ، ويصل تياره إلى مراحل الطفولة ؛ فهو يعمل فى شكل غير تام من أشكال النفسية ، ومع ذلك فهذا اللاشعور الغامض ، المبكر ، والناقص ، هذا اللاشعور نفسه هو الذى يظفر من فرويد بقدرة سحرية تجعل صداه يتردد ويحس بعد سنوات طويلة ، فتحس تفاصيله ومعالمه بكل وضوح ، وتصاغ آثاره فى صورة واضحة حية . ومن الجائز أن يكون اللاشعور واحدا من المصدرين، ولكنه من العسير أن يكون كليهما ، فإن حدث تآلف منهما معا ؛ فإنهما لن يكونا متساويين. ومن العسير أن يتعرض الشاب لإحياء انطباعات الجنين المؤدية إلى رغبات العودة إلى الرحم ، وإلى الخوف من الأماكن المغلقة وهو فى سن العشرين لمجرد أنه سبق أن أرهب أو حبس وهو فى سن

السابعة . وكل هذا يحدث بالاجهزة النفسية ذاتها .

وهذا اللاشعور المبكر ، البدائى ، العتيق إذا ما استمر على أى وجه من الوجوه ، فإنه سيكون فى طبيعته عبارة عن إحساسات وجدانية وتوترات حركية غامضة عديمة القيمة لأغراض التحليل النفسى . ومن المؤكد أنه لن يكون أفكارا أو ذكريات أو غير ذلك من المنتجات النهائية التى تظهر كعقد فى عيادات التحليل النفسى . ومن المشكوك فيه إلى حد بعيد أن يستمر هذا اللاشعور لأن مجراه الطبيعى يختفى اختفاء تاما بالاندماج فى المراحل المتأخرة لنمو المصالح المتصلة . وقد واجه « يونج » هذه المشكلة ذاتها ، وفى جرأة أضاف لا شعوراً جماعياً إلى اللاشعور الشخصى . وهو افتراض يضيف تعقيدات جديدة لا سبيل إلى التوفيق بينها .

وقد تحول فرويد بطريقة تعسفية مضطربة من المستودع البدائى إلى الشخصى لتحقيق أغراضه ، فهو كيونج يتشبث بموقفه ، وينسجم مع نفسه على حساب أستنتاج متكلف بعيد « وغير طبيعى » . ولهذا رأى فرويد أنه من الضرورى أن يفترض وجود تفتح نشوئى تظفر فيه الاحداث المبكرة العتيقة الطفلية بقيم نوعية واضحة فعالة فى تكوين سمات ناضجة بشكل عام ، وفى تكوين

الأعراض العصابية بشكل خاص . ومن هنا نشأت الفروض المذهلة الخاصة بالحياة الجنسية فى الطفولة والتى فسرت على نمط ما عند الشبان الراشدين ؛ ومن هنا الرواية الخيالية عن « غرام الاسرة » ، ومن هنا أيضا ما تؤدى اليه من أنواع العقد والتثبيتات ثم أنواع ندب الولادة ، والسمات الخاصة بالفم والشرج والقناة البولية ، ومن هنا أيضا نشأ الكثير مما وصف بأنه « أساطير » فرويدية ؛ وكل هذه ليست إلا عدوانا كبيرا على المبادىء الاساسية لعلم النفس « الطبيعى » .

وزيادة على ذلك فان التفسير الفرويدى غير « طبيعى » من حيث أن حالة اكتمال الكبت فيما يختص بالنفس الشاعرة يجب أن تتلائم مع قوة البعث المذهلة التى للامر المكبوت . فاللاشعور الفرويدى مدفون ، ولكنه مدفون بالحياة . أما الوفاة ، وطقوس الجنازة ، فتظهر على هيئة كبت. والشبح المزعج يبدو فى أنواع الصراع والتثبيتات والعقد النفسية والانحرافات وغيرها من الاشباح الحية فى الواقع ، والتى تواصل تحالفها الطويل الدائم على ذواتنا المزعوم أنها ماتت ، والتى أخفقنا فى السمو بها ورفعها ، بل أننا فى الواقع هبطنا بها إلى حضيض الأمراض العصابية والبؤس والانحرافات . ويمثل هذه الطرق المختلفة يؤدى

التفسير المضلل الكاذب للاشعور إلى نتائج وخيمة العاقبة فى فهم مظهر البشرية وتكوينها . وهو بذلك يسهم أيضا فى أبتكار طرق ضارة مشكوك فيها ، وفى حلول كاذبة عن توجيه الحياة البشرية فى صميمها .

وهكذا فان ماقد يبدو زلة طفيفة ، وهى زلة نظرية فى جملتها ، يؤدى إلى ابتعاد التحليل النفسى ابتعادا كبيرا عن العلم ؛ فان أنحرافا بسيطا فى الأساسات يكفى لجعل المبنى كله يميل ثم ينهار . فمصادر الاخطاء والفوضى ترجع إلى تنفيذ تفصيلات الخطة الفرويدية ، وهى التفصيلات التى تعين المعالم الخاصة للبيت الذى بناه فرويد . ولا مفر من إن أختم قولى بأن اللاشعور عند فرويد ليس إلا أسطورة رائعة نمت عن طريق العدوان على المبادىء المنطقية .

ويخلّف هذا الاعتراض والأستنكار أثرا سلبيا حيال جملة ما جاء به التحليل النفسى ، ومع ذلك فاننا نعترف بأن هيكل التحليل النفسى ، واتجاهاته مساهمة ممتازة فى علم النفس الحديث تنير له الطريق . وفى وسعى أن أقول أننى أقبل قائمة محتويات الموضوع كعناوين لفصول ، ولكنى أرفض المحتويات نفسها ، وبتعبير آخر أننى أوافق على شخصيات المسرحية ، ولكنى لا أوافق على المسرحية بالشكل الذى عرضت به . وأعتقد إن التحليل النفسى

يقيم فى معبده الملائم ، ولكنه يحتل فيه مقعداً غير مقعده .

وفى رأيى أن الاندماج السيكولوجى القائم على العلاقات بين الوظائف الأولية والثانوية وتكاملها ، إنما يتضمن بما فيه الكفاية الحقائق الأساسية فى النظام الفرويدى ، وفى الوقت نفسه يتجنب مبالغاته وتشويهاته وسفسطته الحادة العنيفة .

الليبيد والاعلاء

سألتزم فى نقدى لمدرك الليبيد نفس الطريق الذى سلكته من قبل . فإن أبناء جيلنا الحاضر والاجيال المقبلة سيكونون مدينين لعبقرية فرويد بتقديره النواحى الليبيدية فى الحياة النفسية حق التقدير . وموضوع النقاش هو مجرى الليبيد ، وكذلك مضماره ، وحجته لا مبدأه . وعلى هذا الأساس سأستأنف المناقشة من حيث الحجة الفرويدية ،فهى فى الواقع تؤلف أساس الخلاف ، وتفصل بين معسكرى الفرويديين واللافرويديين ، وأتباع كل منهما.

أما موضوع الاعلاء فهو ، بحكم نطاقه الواسع ، خارج حدود هذا البحث ؛ فقصة الاعلاء هى قصة المدنية . وأنى لأقبل كل القبول مسألة الاعلاء من حيث هى عملية فى النمو ، وكأداة لتوفير الصحة العقلية ، لكن هذا لا يتفق تمام الاتفاق مع وجهة نظر التحليل النفسى .فالاعلاء عند الفرويديين هو احلال الاهتمامات

أو طرق البحث عن اللذة محل الاهداف الجنسية الطفلية ، وهى اهتمامات ووسائل لا تعتبر جنسية بطريق مباشر ، وأن تكن متصلة بها من الناحية النفسية ، فضلا عن أنها من مستوى اجتماعى مرتفع .

وعلى هذا الأساس تعرض أوجه النشاط الاعلائى على أنها خلو من الناحية الجنسية « أو محظورة الغاية » ويتضمن الاعلاء أيضاً اتجاهات تعويضية فى وظائف مرتبة بالاجراءات الجنسية، ومنها النرجسية أو عشق الذات . وهـذا اللفظ فى ذاته يلخص حدود المدرك الفرويدى ، وهو أن جميع أشـكال عبادة « الانا » المتأخرة الظهور المستمدة من الرضى الشهوانى الذاتى الناشىء من شخص المرء ذاته من حيث هو نفسه موضوع حب . على النمط نفسه تتسامى سادية لبيدية ذاتية فتتحول إلى قسوة عامة ، أو إلى اختيار المهنة كجزار أو جراح مثلا ، وبذلك تقدم مخارج متوازية .

وبما أن شرعية هذين المدركين وثيقة الارتباط بمسألة النمو الجنسى النفسى التى تتغلغل فى كل وجوه الحجة الفرويدية ، فمن الافيد أن نتناولها بالنقد فى هذه المناسبة ، وحسبنا الآن أن نبتسر النتيجة ، وهى أن الفـكرة الفرويدية عن اللبيد والاعلاء منحرفة بتأثير المغالاة فى تقدير العامل الجنسى ، كما أن الوظائف

« اللاشعورية » تسير فى طريق خاطىء (ولأسباب أخرى) بفعل المغالاة فى تقدير عامل الكبت . وكلا الانحرافين يلتقيان فى نقطة واحدة ، رغم أن نقد المعلومات الجنسية والأمراض النفسية عند فرويد يقدم عدة مسائل خاصة وأخرى عامة تستدعى الهجوم العنيف .

وعندما تقدر الفرويدية بميزان العلم ، فإن نقصها يظهر بجلاء . وأهم نقص فيها هو خطأها فى فهم الأوجه « اللاشعورية » فى الاقتصاد النفسى ، وأكبر فضائلها هو توجيه العناية إلى هذه الناحية بالذات ، وما يعمل فيها من بواعث نفسية . وقد حرصت على مناقشة هذه المقومات المنطقية بالتفصيل لما لها من نتائج كثيرة ولما لى من خبرة سابقة بالسيكولوجية الفرويدية .

والنقص الكبير الثانى فى الفرويدية هو شـــدة مغالاتها فى صبغ اللبيد بالصبغة الجنسية ، مما يؤثر على تطبيق التحليل النفسى ووسائل ممارسته ويشكل ماله من اغراء يستهوى الناس ، كما يحدد مواد الحجة الفرويدية . وسنعرض هذه الأوضاع العملية للمناقشة فى الفصول التالية . وإذا قدر للتحليل النفسى أن يصير علما ، أو أن تتحول ممارسته إلى فن علمى ، فلا مفر من صب مبادئه فى قوالب جديدة ، وأن يصلح من شأن طبعه واجراءاته ؛ أما فى

شكله الحالى : فهو كتلة مدهشة من النتائج التى لا تجد ما يدعمها ، ومجموعة من الفروض غير الطبيعية التى انتقلت إلى مرحلة التنفيذ والتطبيق ، وهى معتمدة على وسائل تأملية سخية ووثيقة الصلة بعدم تقدير المسئولية مما يجعل التحليل النفسى طريداً فى ميدان العلم .

كان على فى هذا الفصل أن أعرض على المعنيين بالدراسات النفسية أسباب الرفض البات للاشعور الفرويدى ، أما للقارىء العادى ، فإنى أعرض النتائج باسلوب ايسر ؛ فليس هناك دليل على وجود مثل هـذه المنطقة أو العملية ، والوظائف التى عزاها فرويد إلى « اللاشعور » غير طبيعية . أما إجراءات « تحت الشعور » فتظهر فى أمراض العصاب ، وفى الاحلام ، والفلتات ؛ وهى واضحة كل الوضوح من نواح متعددة ، أما تفسيرها الشرعى ، فمسألة ضخمة من مسائل علم النفس .

الباب السابع

الحجة الفرويدية

التحليل النفسى فى حاجة ملحة إلى فحص تحليلى شامل ، ولتحقيق هذا الغرض وضع هذا الكتاب . وتتبع الأدلة فى موضوع الفرويدية فى مواجهة سائر أنواع علم النفس الآخرى يعد حجة فى حد ذاته . والحجة الفرويدية أنما تتعلق بالطرق التى يستخلص بها الفرويديون « حقائقهم » ، ثم يفسرونها ويصوغونها على أنها نتائج يطبقونها فى ثقة ويقين . ومثل هذه الحقائق لم تأت عفوا ، بل ظهرت بعد بحث مستفيض ، وكان هدفها المشترك هو تأسيس موضوع .

وهذا أجراء شرعى لاغبار عليه ، وكثيرا ما يكون ضروريا ، لأن الباحث لايستطيع أن ينطلق فى المسائل العامة على غير هدى . والحقائق الهامة فى جميع مجالات البحث ظهرت من السير فى نفس الطريق الذى سلكه الفرويديون . ومثل هذه الحقائق تصطبغ فى العادة بالنظريات ؛ ولا نعترض على هذا أيضا ، إذا مُيز على هذا الأساس ، ولكن قيمة الحقيقة والنظرية واحدة ، فهما كرأس

المـال وما يدره من ربح فى مؤسسة أستغلالية واحدة . ومن الجائز أن تـكون « أوراقه » كبيرة الأهمية فى سوق العلوم . ومن الجائز أن تـكون طفيفة ومشكوكا فيها ، بل تافهة ، أو ما هو أسوأ من ذلك . وهذه العبارة تلخص طبيعة الأدلة المقدمة فى قضية التحليل النفسى .

وفى رأيى أن الحجة الفرويدية تغلب فيها السفسطة ، فتجدها فى كل الأهداف والتفاصيل لسبب بعينه أو لاسباب أخرى . ولهذا كان تقديرى النهائى لها ضعيفا ، رغم أن هذا التقدير غير شامل ، ومن غير تفريق بين المسائل المختلفة . وأنى لواثق من أمكان الحصول على تحليل نفسى معقول ، حتى أنى آسف للاتجاه الذى سارت فيه هذه الحركة الواعدة التى تبشر بنتائج طيبة . وفى رأيى أن التحليل النفسى مخطىء فى منطقه مما حرمه بلوغ المستوى العلمى . ويضاف إلى هذا آن مسلكه المنطقى « مضطرب » ضار بالسعادة العقلية عند الناس .

وتقوم نظريات فرويد على نسيج من فروض تأملية بشكل غريب ، ممـا جعل نتائجها فى صراع حاد مع الأوضاع المستقرة التى دعمتها الأدلة السيكولوجية تدعيما جيداً من عـدة مصادر . وهكذا تتجاهل الحجة الفرويدية الإوضاع المألوفة وتجرفها لتشمل مدى التأمل كله مما يقبل بشكل سطحى ، وينغمر إلى حد السخف

البالغ . لجة فرويد متعاطلة سخيفه ، مضللة خداعة . طموح ، خبيثة ، ومتضاربة . وقد أنتشرت أنتشارا واسعا من غير تقدير للمسئولية . وفى هذا المجال لا أملك إلا أن أذكر بعض نماذج من أخطائها الضخمة واعتداءاتها الكبيرة مما يظهر فى تفسير الفلتات والأحلام ، وفى تعقب مجرى النمو الجنسى ، وفى تقدير سمات الخلق .

ولا ريب أن هذا حكم كاسح ، وأتهام شامل أعرف مضمونه كل المعرفة . وهو يحمل بين طياته اتهاما آخر إذ يفترض أن مئات من ذوى العقليات القديرة أندفعوا إلى أرتكاب أخطاء خطيرة ، فاضاعوا مواهبهم ، وساعدوا عمليات الأضطراب والنكوص ؛ وهذه الأحداث شائعة فى تاريخ الآراء الملتوية الكثيرة الدروب . وهذا الفصل فى ذلك التاريخ فريد من نواح متعددة . ومن واجبى أن أعرض على القارىء فرصة الحكم على الأسس التى بنيت عليها نتائجى . وهذا يتضمن رحلة طويلة ، لأن النظرية الفرويدية واسعة المجال مترامية الأطراف ، وفى كل من نواحيها وأجزائها أطلب إلى القارىء أن يذكر مواقف الفرويديين كما عرضتها ، وكانت فى بعض الأحيان مشفوعة بتعليقاتى النقدية . وإذا ظهر الطريق طويلا ، فلنذكر أن المؤلفات الفرويدية ضخمة

إلى حد مذهل . ومن واجبي أن أعرض على الأقل وثائق منتقاة تمثل ما أعارضه من نتائج .

إستدلال بالعوارض

يصر فرويد على أن مراتب معينة مألوفة من الأخطاء العقلية كزلات اللسان ، أو القلم ، وسوء التناول ، ، والنسيان والفلتات عامة ، أنما هي حيل نفسية لها بواعثها ، أو هى نوع من التسرب من « اللاشعور ». وأول عقبة تواجه الحجة هى أنها غير قابلة للتطبيق فى الجانب الأكبر منها ، وذلك من حيث نظام السلوك المفروض أن يتمثل فيه المبدأ . أما مدى أهمية ذلك ، أن كان صحيحا ، ومتى يمكن أن صحيحا ، فمسألة أخرى . وتعتبر الحجة هذه الزلات الشائعة أجزاء من بواعث نفسية أفلتت باقتحام حاجز المقاومة اللاشعورية . وإذا ما أنطلقت من معتقل المكبوتات فانها تتسلط على عضلات العادات المنظمة وتحركها .

وهذه هى الفلتات الأيجابية (الحركية) ؛ أما النسيان ، وفقد الأشياء (إلا إذا كان الفقد ناشئا عن طريق وضع الأشياء فى غير محلها) فيقال عنها أنها تطرد من اللاشعور ، فهى فلتات سلبية . وعندما تفسر الفلتات وفقا لهذه القاعدة ، فان « علم الاعراض »

الفرويدى يتجاهل التفسير الواضح والملائم ، وهو أن الجهاز العقلى البشرى ناقص ، وأن العقل يقع فى هذه الاخطاء باستمرار ، فالخطأ سمة بشرية . ولكن يظهر أنه من خواص الفرويديين أن يتنبأوا بأسباب خفية غامضة ، ويفضلوها على الاخرى الواضحة كل الوضوح .

وكل أنسان يعرف مدى أستعداد العمليات المنسقة تنسيقا دقيقا للتصدع مما تفسره الكتب المدرسية الاولية فى علم النفس . « والسبب » الواضح للفلتات من النوعين الايجابى والسلبى هو أنها تظهر كنتيجة « طبيعية » لا مفر منها بفعل أنصراف الذهن إلى شيء آخر ، أو بفعل الارتباك ، وعدم الانتباه والغفلة . وهذه تحدث بطريقة ثابتة ، وأن تكن غير منتظمة ، وتتناول فى الغالب مسائل تافهة ، وأكثرها يتسم بالطابع الانسانى . والتعرض للفلتات ضعف بشرى عام مؤلم ، متعب كل التعب ، وله ثمنه الكبير . ولا يخفى أن كل شيء من الاشياء المريحة والثمينة معرض للضياع ، أو إن يوضع فى غير مكانه ، أو أن ينسى أمره فى شتى نواحى النشاط البشرى . وفى كل مصلحة للسكك الحديدية ، وكل متجر كبير تجد مكتبا خاصا للاشياء التى يعثر عليها بعد أن يفقدها أصحابها .

ولو كانت كل سلعة تصل إلى تلك المكاتب تنطوى على قصة فرويدية ، — فتفقد لانها مرتبطة بذكريات غير سارة — لما

أقبل الناس على المطالبة بها ، وأستردادها فى لهفة ؛ ولما أعلنوا عنها . وقدموا الجوائز نظير ردها . ولعل الإنسان الوحيد الذى ينجو من أنفاق شىء من وقته فى تتبع مفاتيح فلتاته اللاشعورية هو المتزمت المتعصب للأخذ بالنظام فى دقة متناهية ؛ فالفلتات لا شعورية من حيث تناولها بنصف أنتباه فى حالة الأنشغال بشىء أخر ، وعندما يحتم على ذاكرتنا أن تسقط بعض محتوياتها لأن عقولنا شديدة الانهماك فى أمر ، أو تستجيب لطلبات لاحصر لها . ومن الجائز أيضا أن نفسر اخطاء تلبية عاملات التليفون والموظفين لطلباتنا ، على هدى أنواع الصراع الفرويدى الناشب فى صدور أولئك العمال والموظفين بسبب مسائلهم الخاصة . ولا ريب أن هذا « نتيجة عرجاء واهية » ؛ وسيتلوها آخرى تتساوى معها فى العجز .

وهنا يخامرنا شك جوهرى ؛ فإذ كان فرويد ، ذلك العقل المدبر للتحليل النفسى ، فى تقديمه إحدى حججه إلى أقصى مداها يتجاهل مثل هذه المسائل الواضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، فكيف يستطيع الإنسان أن يثق بأية نتيجة من النتائج التى وصل إليها ؟ .

ولعل الاستشهاد بالدكتور « تاننبوم » Tannenbaum ينير لنا الطريق ، فقد كان ممن مارسوا التحليل النفسى فترة من الزمان إلى

أن أقتنع بخطئه وخطأ وسائل التحليل . وقد بين كثيراً من الأخطاء فى سيكولوجية الخطأ على الطريقة الفرويدية . وروى حدثا منزليا ، فقال أن السيدة « ت » كانت تقشر بطاطس عندما دعيت فجأة وفى وقت واحد للاستجابة على ثلاث طلبات ملحة عاجلة ، إذ دق جرسا الباب والتليفون ، وفى الوقت نفسه غلى الحساء حتى فاض من إنائه ، واحتارت لا تدرى أى الأعمال الثلاثة تؤدى أولا . وفى عجلتها وارتباكها جرحت إبهامها بسكين تقشير البطاطس .

ومن الواضح أن اشتغال السيدة بمجموعات من العادات الحركية المتضاربة تضمن عدم الانسجام بينها ، ومن ثم حدثت الزلة ، وحدث جرحها لإصبعها . وفى وسع أى إنسان أن يبتكر تفسيراً فرويديا ينطوى على أنها تعاقب نفسها بنفسها : أو تشعر بذنب ما . ومن الميسور أيضاً أن نجد رموزاً لشيء ما فى الإبهام والسكين والبطاطس أو البصل أو أى نبات آخر يسبب الحدث ، ولكل منا أن يقدره وفق مرامه سواء أكان رمزاً شريراً داعراً أم رفيقاً ؛ ولكن ماضرورة هذا ؟ ولماذا يتفق ظهور القهر الداخلى مع الاضطراب الخارجى ؟ .

وإذا ما تخلينا عن قواعد الذوق والمجاملة ، قلنا أن الفرويدى المتحمس ينسى الحلول الواضحة لأنها لا تلائم نظريته ، أما الاجابة

العلمية فهى أن باعثاً ضعيفاً — وليكن من الطراز الفرويدى الذى فرضت عليه الرقابة — لا يمكن أن يحتل مكان العوامل الأخرى التى تدخل فى حساب سيكولوجية الخطأ . والخلل الأساسى فى كل الفرويدية القائمة على الأعرض ، هو التجاهل الواضح لعمليات العقل المألوفة . ولا نزاع فى أن القواعد الفرويدية قد تنطبق ببراعة على بعض الحالات ، واحيانا وفى حالات أخرى تنطبق إنطباقا جزئياً . ولم تكن كل هذه الاتجاهات مهملة كل الإهمال قبل فرويد ، ولكن الفضل يعزى إليه فى تمييزها بجلاء ، فهو الذى وضع هذه الاحداث فى نطاق البواعث النفسية ، وهو الذى أضاف إليها لازمات معينة تعدهى الأخرى — بوصفها صفات ثانوية لخلق المرء — أعراضاً لها دلالتها .

وستحتل الزلات ذات الدلالة مكانها بين الآليات العقلية التى قد يوحى فشلها العرضى أو يكشف عن « محول » اللاشعور الذى يكون فى غير موضعه ، فيخرج مجرى التفكير أو السلوك عن الاتجاه الذى قصد به أن يسير فيه . وعلة الفصل الذى كتبه فرويد هى أنه بدل أن يكون خفيفاً بسيطا ، ومتوخيا للحذر والإيحاء انغمر فى سلسلة من العاب بهلوانية عقلية مربكة جعلت من الحبة قبة ، ومع ذلك فجوهر حجته صحيح . أما بُعد البواعث وتحريف الحيل التى استغلت فى التفسير ، فإنها جعلت موضوعا كان من الجائز

أن يكون إسهاما علميا متواضعاً — لو أنه نفذه بحكمة — جعلت منه لونا من مغالطات الدعاية وسفسطتها .

وبمجرد أن نقرأ امشاج العينات المختلفة الالوان التى قدمها فرويد للاعراض ذات الدلالة عنده ، ولا سيما إذا ما أعدنا قراءتها ، فاننا نهم بالتساؤل أن كان هو أو نحن قد فقدنا عقولنا . فان كانت القراءة الأولى عابرة ، فما على القارىء إلا أن يعود ويقرأ بعين الناقد ما عرضه وفسره فرويد المحلل من فلتات ، وما عرضه منها فى تحليله لذات نفسه . فيراه فى الفلتة الأولى شارد الفكر ، ويصعد من درجات السلم اكثر مما يريد ؛ ويجده فى أخرى يلتقط فى سرعة شوكة رنانة بدل مطرقة ؛ وفى ثالثة يسقط فى حركة غير رشيقة غطاء أداة من على مكتبه المزدحم بالادوات ؛ وفى رابعة يركل فى لحظة نشوة حذاءه الذى يلبسه فى المنزل فيسقط تمثالا صغيرا . وبعد هذه القراءة الثانية الدقيقة ، على القارىء أن يسأل نفسه فى جدية تامة أن كانت تلك التفسيرات علما حقا أم هى مجرد مزاح صيغ فى قالب علمى .

ومن منا لم يتجاوز مقصده فى أثناء سيره عندما يشت عقله مما هو بصدده إلى التفكير فى بعض مسائله الخاصة ؟ ومن منا فى عجلته لم يلتقط شيئا بدلا آخر ؟ ومن هو ذلك الذى لم يقلب بعض

الأشياء سهوا ؟ ومن منا لم يخضع لدافع لجائى ؟ واخفق فى أن يكون حريصا محتاطا لنفسه ؟

الواقع أن الفاظ شرود الفكر ، والعجلة ، وعدم الأنتباه ، والاندفاع ، أنما هى تعليل كاف لهذه الفلتات : وهى أيضا التفسير الملائم الذى تقتضيه الفلتات نفسها : أو يمكن أن تسمح به . ولك أن تتخيل نوع الحياة التى نعيشها إذا والينا أجراء تحليل نفسى لكل ما نعمله من فلتات .

ويبدو أنه خير لنا أن نعود إلى عهد الخرافات عندما كانت كل حركة تافهة تفسر على أنها نوع من التطير ، وعندما كان كل حدث يؤخذ على أنه بشير خير أو نذير شر ؛ حتى التوافه من أنواع السلوك الفسيولوجى من العطس إلى التهاب الاذن أو خدر الأطراف ، كانت تفسيرات على اساس مبادىء حتمية سحرية مزعومة . وما يثير الحنق فى هذه التفسيرات ، ليس ما تحدثه من مضايقات ، بل سخف إجراءاتها ، فبمثل هذا المنطق يستطيع المرء أن يثبت اى شىء ، اولا شىء على الاطلاق . وان كانت هذه هى البراهين عند الفرويديين ، فانى لا الوم كل ذى عقل او كل مشتغل بامور مفيدة مربحة ، إذا ماعف ورفض ان يستجيب لنداء احد الفرويديين إذ احب ان يتحدث اليه بالتلفون .

ومن الشائع أيضاً فى استخدام الفرويديين لحجة الأعراض والعلامات ، أغفالهم للمألوف . ويبدو كأن الغرور يدفعهم إلى جعل ما يعرفه كل إنسان كشفاً مبتكراً من اكتشافاتهم. وهذا الميل إلى إحداث صخب قوى بشأن مسائل تافهة من الصفات الثابتة فى الفرويديين حتى أنه ليثير الانتباه ؛ وهو يكشف فى وضوح عادتهم العقلية ، وعقدة التحليل النفسى . وهى عقدة مسئولة أكثر من أى عقدة أخرى أنشأتها الطبيعة ، أو اصطنعها الإنسان ، عن جانب كبير من المؤلفات الفرويدية .

وتحدث فرويد عن ناحية من مهنة التمثيل المسرحى كما تؤديها « الينورا دوز Eleonora Duse» مما يبين « من أى أعماق تستقى فنها » .وقد سار جونز Jones على منواله وأضاف قوله « أن التمثيل يوضح تعمق الممثلة العظيمة فى دراسة الخلق » . وما هو هذا « الفعل ذى الدلالة » العميقة ؟ لا شىء أكثر من أنها فى لحظة تأمل وعلى أثر شجار مع زوجها ، ودخول حبيبها كانت تعبث بخاتم زواجها ، فتخلعه ، ثم تعيده إلى مكانه ، وأخيراً إزالته . . . بجرد عملية مسرحية واضحة كل الوضوح ؛ وبشعور تام ، لأنها إذا كانت لا تؤديها ، فإن جمهور النظارة لن يستطيع تتبعها بإدراك ، وبالتالى يضيع التأثير المنشود .

مثل هذا الاسراف فى الاكبار من شأن التوافه كثير فى

التعاليم الفرويدية مما يدعو إلى التشكك ، ويشعر كل قارىء ناقد بأن العلم والطابع العلمى وسيلة استغلالية فى يد محام يريد خداعه ، أو فرض شيء عليه . وقد لوحظ مراراً أن العلم يجعل المجهول معروفاً ، والمعروف أكثر وضوحاً . والعلم الكاذب فى نزوته الضالة يحاول أن يضفى على ما هو مألوف جواً مفتعلا من التمويه والغموض . وعلم « الأعراض ذات الدلالة » ، مثل كثير غيره فى الحشد الوافر من المكتشفات الفرويدية ، يسير دون أن يعنى بمظهر سليم معين اتفقنا على أن أفضل وأكرم اسم له هو الذوق السليم .

حدود الحتمية

مما لا نزاع فيه أن وجها أو آخر من وجوه الحجة الفرويدية ينطبق فى بعض الأحيان ، انطباقا كثيراً أو قليلا ، وبطريقة شبه مقبولة أو محتملة ، ونحن فى لعبة دائمة نميل فيها مرة إلى الهزل وأخرى إلى الجد بين تعبيراتنا وبين ما نتعرض له من كبت . ومن المؤكد أن شحنات ضعيفة من جملة بواعث نفسية ثانوية تختلط بالبواعث الهامة ، فإذا ما أخفقت فى اختلاطها انبأت عن مصدرها الذى لم يكن ليخطر لنا على بال ، ولكل هذا شيء من الأهمية فى النطاق المعقول . وكل اعتقاد ، أو نظرية أو تفسير

يفلت من هذا النطاق عن أى طريق ، يتخذ شكل الوهم والخداع

ولا يكون الأمر فى الحجة هنا نزولا بها إلى حد التسفيه ، ولكنه إحكام لهذا التسفيه، وهذا نوع من الغلط المنطقى (المغالطة) إمتاز به الفرويديون إلى درجة يحتمل معها أن يعرف فى المستقبل باسم « المغالطة الفرويدية » ؛ فالمحلل النفسى ، أكثر من أى إنسان اخر ، فى حاجة إلى المؤهلات التى أدعاها ، وهى أن نظرته إلى الأمور أصدق وأعمق وأكثر موضوعية من أصحاب العقول غير المدربة . فإذا كان ظفره بالنظرة العميقة قد أعماه عن رؤية المنظر الواضح على السطح ، لكان حالة أجدر بالرثاء والأسف مما قبلها . وإن كان اعتناق الفرويدية يحتم على المرء أن يكون متعصبا فى اخلاصه لها ، فإن هذه « الفلتة » من العسير أن توحى الثقة فى صلاحيـــة المحلل النفسى لهداية عقل ضل وغوى إلى الطريق المستقيم . وتوجيه هذا الاتهام الشامل إلى الحجة الفرويدية يقصى عنها كثيرين من الباحثين الذين يعطفون على أسسها لأن الافراط فى الاستدلال يؤدى إلى التورط فى غير المعقول.

ومن الجائز أن تكون مغالطة التسفيه هينة وضعيفة نسبيا فى الفلتات الاربع التى رويناها عن فرويد ، ولكنها تصير فاضحة عند التطبيق على الفلتات السلبية كحدث نسيان الشاب الذى

رافق فرويد فى سفره ، لإحدى الكلمات من شعر فرجيل (الباب الثانى) ، أو كالفلتة الايجابية عند ما أخطأ فرويد فى وضع القطرة فى عينى السيدة العجوز . ولو كان هذا نموذجا للعادات العقلية عند محلل نفسى لكان من العسير أن يرضى إنسان بأن يضع سعادته الروحية فى يدى أحد أتباع هذه المهنة .

ولقد توقفت هنا قليلا كى أحلل اخطاء الطرق الفرويدية بالشكل الذى طبقت به على العلل النفسية فى حياتنا اليومية ، لعدة أسباب : فهى ليست شديدة الضرورة للنظرية الأساسية التى تتركز حول أنواع العصاب ، وهى كثيرة التنوع ، تمس أنواعا مختلفة من السلوك العادى المألوف ؛ والمبدأ الذى تنطوى عليه قويم ، ونظريته لاغبار عليها ، ومألوفة إلى حد ما ، وهى توضح ما عُرف به الجدل الفرويدى لسوء الحظ من التجاهل ، والافتراض ، وحمل ما يجوز تصديقه إلى أقصى مداه . فكانت النتيجة النهائية فوضى ، وتحريفاً ، وأكاذيب .

ولقد أطلت الكلام فى أخطاء الطرق الفرويدية كما طبقت على العلل النفسية فى حياتنا اليومية ، لسبب آخر كبير الأهمية ، وهو أن أوضح من البداية أن التطبيق المنطقى المعقول لمبادئ الحتمية له حدوده . فهذه الحتمية هى السمط الذى انتظمت به « الحبات »

الفرويدية . ونحن جميعاً نسلم بالحتمية لأنها تتضمن مبدأ السبب والنتيجة فى عالم الفكر ، ولكننا نسيء إلى هذه الحقيقة أساءة بالغة إذا افترضنا أننا نستطيع أن نتعقب مجرى الحتمية فى تفاصيل دقيقة ، وأن نصر على أداء ذلك بأية وسيلة كانت ؛ فمن هذا الاجراء خطأ الشعوذة فى قراءة الخلق ، وخطأ الخرافات أيضاً .

وكثير من ألوان العلم الكاذب تنشأ من التعيين بطريقة أصلية خاطئة للمقدمات وما يليها ؛ وهذا طراز آخر من الخطأ ؛ أما إرهاق مبدأ صحيح وتحميله ما هو فوق طاقته ، فعادة ذهنية توجد غالبا عند من يتبعون مقدمات كاذبة ؛ فإن تجاهل الواضح وإهمال التفسيرات المألوفة والمتبادلة ، يحدث خطأ واحداً ؛ كما أن تجاوز حدود الحتمية يحدث الخطأ الآخر . وفى الأعمال والتصرفات ذات الدلالة ، وفى الاحلام ، وفى سلوكنا عامة يوجد كثير مما لا مفر من عدم تعليله . والنظرة المعقولة إلى مبدأ الحتمية تسلم بهذا الوضع . وتوجيه الاسئلة ، والأصرار على الظفر بأجوبة دقيقة كل الدقة إذا تجاوزا حداً معروفا واضح المعالم ، لا يعدان علامة حب استطلاع غير عادى ، بل دليلا على اهتمام غير منظم ولا منسق . والإسراف فى السير فى هذا السبيل وبالشكل الذى أتبعه التحليل الفرويدى يؤدى إلى إفساد ما فيه من فضل .

حجة الاحلام

الأحلام تفسيرها :

تستند الحجة الفرويدية للاحلام على مجموعة من الفروض ، وبعضها قابل للتحقيق ، وجزء آخر مقبول ظاهريا ، أما أكثرها فنسيج من اشباه الحقائق ، مضلل كفروض بغير سند ، وهذه هي التي تحدد مجرى التفسير وتعينه مقدما . والفكرة العامة تبدو وطيدة الأساس من حيث أن الأحلام تمثل نظاما لعملية نفسية قريبة من التخيلات الأولية ، وهو نظام توفيق بين التعبير والكبت ؛ هو تسرب لبعض اتجاهات لا شعورية ؛ هو تأليف رواية رمزية تنشأ حوادثها الظاهرة من معان أكثر عمقاً في بواعثها .

ومن أجل هذه المعلومات تعد سيكولوجية الاحلام مدينة لطريقة التحليل النفسي . ولكن البناء كله يتعرض للخطر عندما ينفذ برنامج التفسير بطريقة تعسفية وسخيفة في بعض الاحيان ؛ وعندما تقوم الحجة على فروض مثل القول بمراحل معينة للنمو الجنسي ، وتتجاهل كل العوامل الاخرى ، اكتفاء بالبواعث أو الرغبات في الحلم ، فتقحم في الموضوع مسائل مبهمة مشكوك فيها ، وبغير برهان . وعندما تقدر نظرية فرويد عن الاحلام

فإننا نجدها ناقصة إلى حد كبير من حيث هى نظرية ، ومن حيث تطبيقها ، ولا عبرة بمدى عمق ما فيها من بصيرة . والنتيجة هى ظهور لون جديد كل الجدة من تفسير الأحلام ، له صبغة علمية كاذبة ، ولكنه ليس دراسة علمية للاحلام .

ورفضى للجانب الاكبر مما قدمه فرويد من عام وخاص فى كتابه « تفسير الأحلام » ولا سيما ما قدمه أولئك المفسرون الذين تبعوه ، وقد كانوا فى أول أمرهم يسلسون قيادهم لإرشاد استاذهم ثم انطلقوا بعدئذ على هواهم ، رفضى هذا يمثل احتجاجا على أى نوع من أنواع السيكولوجية التشخيصية التى تقوم على مثل هذا المنطق المفكك الذاتى حتى أن نتائجها لا تظفر بالتبرير العلمى ، بل إنها لا يمكن أن تحصل عليه .

ولست أشك فى وجود بعض الأحلام على الطريقة الفرويدية الكاملة ، وفى وجود كثير من الأحلام المركبة ، أو ذات البواعث المتعددة ، والمحتوية على عنصر فرويدى ؛ وأوافق أيضا على أنه من الجائز ، بل من المقبول فى كثير من الحالات أن نفسر أحداث الأحلام على أنها تعبيرات رمزية مستترة عن رغبات شهوانية مكبوتة ، أو عن اتجاه مستمد من تلك الرغبات . هذا التفسير مسموح به ومقبول فى ظاهره فى

كثير من الحالات ، وربما كان أفضل ما يمكننا الظفر به ؛ إلا أن التأكد من فك طلاسم هذه الاحلام أمر غير ميسور ، وتفسيرها القائم على مثل هذه التخمينات إنما هو مشروع لا يمكن النصح باتباعه ، وذلك رغم بعده عن ألوان السخف التعسفي الذى تلجأ اليه كتب التفسير الشائعة التي تجدها في أكشاك بائعي الصحف . والباحث النفسي المنطقي يجب أن يعف عن هذا التفسير حتى في مجال التحليل النفسي ، أن إراد أن يظل باحثا جديا في الأحلام .

والدراسة العلمية يجب أن تبدأ بجمع كل الأحلام بغير اختيار ، ثم يترك تفسيرها إلى قضاة محايدين . وليس هناك من تدبير أقل من هذه الدراسة لنستطيع أن نضع فروضا مثل تلك الفروض التي ذكرها فرويد على أنها حقائق . ومن أمثلتها أن الأحلام تقي النوم ، وأنها لا تهتم البتة بالتوافه بل بالمسائل الهامة ، وأنها تعبر دائما عن رغبات . ويذكر التحليل النفسي هذه المقترحات وسواها بغير برهان كاف ، بل أنه ليرددها بغير الاحتياطات العادية الضرورية الواقية لعمليات التوازن والرقابة ، مما يحرص عليه أى باحث تجريبي مسئول . أن الطريقة الحذرة في البحث ليست مألوفة على الأطلاق في روح المنطق الفرويدى . ولو روعيت فيه لما نمت تلك المجموعة الضخمة التي يتفاخرون بها من نتائج التحليل النفسي .

ويمكننا أن نتنبأ ونحن فى أمان ، بأن أى فحص من هذا القبيل سيكشف ولا ريب عن حالات تؤيد كلا من هذه الآراء والفروض ، على أن هذا لن يؤدى إلى تعميمات شاملة واضحة المعالم من النوع الذى تحتاج اليه النظريات الفرويدية ، رغم أن حاجة الفرويديين إلى هذه التعميمات جعلتهم يقولون بها . فالتلميذ الفرويدى يضع الأجابة فى مقدمة عقله ، ثم يسعى للوصول إلى الحل المؤدى اليها ، كما يفعل التلميذ الحائر فى علم الحساب عندما يستخدم وسائل حسابية فذة وغير مسلم بصحتها بغية « الحصول » على أجابة تشبه الرقم المذكور فى آخر كتابه على أنه الاجابة الصحيحة لمسألته .

وأيا كان مقدار الحقيقة فى النظرية الفرويدية عن الأحلام ، فان الحكم على البناء كله ، من حيث المبادىء والحجة ، أنما هو حكم سلبى ولا شك : فالقضايا الخاصة بالاحلام التى وضعت واستقرت على أنها صحيحة لم تتأيد صحتها ، فضلا عن أشتمالها على مجموعة كبيرة من القرائن المضادة لاثبات صلاحيتها . وكذلك الحال فى تفسير الاحلام التى تم تنفيذها على منوال تفسير الاحلام الشعبى الشائع الذى لا يمكن الدفاع عنه . أن نظرية ناقصة ، أسرف فى إحكامها كل الاسراف ، وطبقت بشكل خيالى لا تكاد تكون جديرة بذلك الفحص الدقيق المحكم الذى يتطلبه تفنيدها . ومن

الاغراض التافهة أن نناقش فى دقة عدم احتمال عبارات طرحت دون أى تقدير للمسئولية .

ولكى لا نترك الحجة بغير توضيح ، فاننا نعرض لنظرية الكابوس فى التحليل النفسى . فمن العسير على الانسان أن يفهم كيف أنها وقاية للنوم بينما هى من أكثر الاحلام أزعاجا للانسان . وفى تفسير « أرنست جونز » لفرويد ، جعل من هذا استثناء يثبت القاعدة ويبرهنها ، فيقول : « عندما يكون تحريف تلبية الرغبة غير كاف لاخفاء طبيعتها المكبوتة عن الشعور ، أو بعبارة أخرى عند ما يكون الصراع كبيرا إلى درجة يتعذر معها الوصول إلى أتفاق ، فان النوم ينتهى ويتنبه الإنسان إلى خطره » .

ويقول فرويدى آخر ، أن « الأنا » النائم يدق جرس الانذار الرقابى ، ويوقظ زميله فى النوم ، وهو « الانا الأعلى » ليساعده على إسكات « الهو » . وجرس التحذير هو الكابوس . فاذا ما عدنا إلى تفسير « جونز » وأخلاصه إلى نظام التحليل النفسى ، فانه يقول أن « الأهتمام » العميق الوحيد الجدير بمثل

هذا الاجراء الصارم أنما هو اهتمام جنسي ، وبالتحديد هو مضاجعة المحارم . وهكذا تنص القاعدة النهائية على « أن هجوم الكابوس هو تعبير عن صراع ذهني بشأن رغبة مضاجعة المحارم »

وبما أن هذا هو المطلوب ، فان الشيء الوحيد المتبقي بعدئذ هو إيجاد حيل تفسيرية بغض النظر عن أنها غير منطقية وغير سيكولوجية، شأنها في ذلك شأن حيل التلميذ عندما يلجأ إلى طرق غير حسابية ليجعل طريقة الحل تتفق مع جواب المسألة . وناقش الدكتور «جونز» أسبابا أخرى للكابوس ولكن بحذر، فميز تأثير وضع النائم ، وعمليات الهضم ، والتنفس الخاطيء ، وميز اكثر من أي شيء آخر مدى الاستعداد الشخصي ، فان بعض الافراد بحكم بنيتهم العصبية يكونون معرضين للكابوس ، كما أن آخرين لديهم مناعة تامة تقيهم شره ؛ ولكن عبارات جونز التي تحتها خط ، والخط من وضعه هو، توضح عدم التحفظ الذي يفسد كثيرا من الحجة الفرويدية . وهو لا يقنع بترديد عامل للتحليل النفسي ومنه الناحية

الجنسية ، فهذا العامل ولا ريب يعمل فى (بعض) أنواع الكابوس ؛ ولكن جونز يصر على أن هذا العامل هو الاساسى ، وهو فى تفاصيله تعبير عن العقدة الجنسية الاساسية ، وهى الاجابة الفرويدية العامة الشاملة عن كل أنواع الاضطرابات النفسية .

تقديس رموز الاحلام

أن الاصرار على أتباع طريقة معينة فى التذليل يحول سيكولوجية الاحلام إلى ذلك الطراز الشائع فى تفسيرها وهو المسئول أيضا عن معجم التحليل النفسى الفرويدى بشأن « رموز الاحلام » . فبرغم كل ما حوى من تأكيد ينم عن سعة العلم، فان مدى أحترامه لا يكاد يتجاوز نصيب « كتب الاحلام » الشعبية التعسفية والخيالية . وفى أستمساكه بحتمية دقيقة هلاكه ، وفتواه مطلقة نهائية ، تقول : « من القوانين الدائمة الصارمة فى تفسير الاحلام وجوب الوصول إلى تفسير لكل تفصيل من التفاصيل واستخدام الفاظ « قوانين » و « دائمة » و « صارمة و « وجوب » و« تفصيل » ، هى بالذات التى تتجاوز النطاق المنطق المقبول للموضوع . والشرك الثانى هو تقديس الرموز ، فبدون هذا يكون تفسير الاحلام ، سواء أكان شرعيا أم غير شرعى ، محدودا فى عملياته .

ومن الواضح أن أصطناع الرموز واسع المدى ؛ ففيه الاستعارات ، والتشبيهات ، وأنواع التمثيل : بل أن الكلمات نفسها رموز متعددة . ومن « الطبيعى » أن العقول التى تشترك فى التجارب ، والانفعالات ، وفى التقاليد ، والبيئة . ستنشىء رموزاً مشابهة ؛ ومع ذلك ، وكما أدرك فرويد كل الأدراك ، فان أكثر الرموز شخصية ، وكل حالم يستخدم قاموسا خاصا به . و « التداعى الحر » مطلوب ليعين مفتاح الرمز عند ظهوره فى عقل الفرد . والواقع أنه توجد دراسة شرعية للرمزية ، زودها التحليل النفسى بحوافز جديدة .

ويونج هو اكبر السيكولوجيين الباحثين فى ميدان الرمزية [1] بغير منازع . وهو يقدرها لما تنطوى عليه من نزعات العقل واتجاهاته؛ ولأنها تنطوى على طريقة ومزاج الحركات العقلية الاكثر

---

(١) أستغل هذه الفرصة لاكرر أن استعدادنا لأن نحلم ، ونستخدم الرموز ، والاجراءات الخيالية الشبيهة بها ، له قاعدته فى طبيعة الخيال ، وهى تحتل مكانها المتاز فى الحركات الذهنية من عقل الطفل ، ولكل هذا وجه فرويد أهتماما متجددا ومستنيرا . وعن طريق علم النفس الفرويدى أحتل الخيال واحلام اليقظة مكانتهما . وبما أن فرويد يستخدم الميل إلى التخيل كعامل فى نمو أمراض العصاب عن طريق « ثبوت » الليبد ، فان المناقشة ستتجدد فى هذا السبيل . أما بشأن قيمة الخيال ، وعلاقته بمبدأ اللذة واستخدامه للرموز فهناك موافقة معقولة . (المؤلف)

تحررا : وهو يهتم بأمرها كذلك لاستخدامها فى التحليل النفسى ويتعقبها فى المجاهل العميقة ، وفى أسمى أسرار الروحانية . . والرمزية مقبولة فى أحسن صورها ، إذ يغلب عليها الوضوح ؛ أما فى أسوأ حالاتهـا ، فهى لا تعدو المدلول الشعبي لتفسير الاحلام ، وان تكن مثلها واضحة بسيطة .

وعامل البواعث النفسية فى الاحلام ، وفى الرمزية المتسترة لتعبيراته عامل معقد بصفة خاصة بفعل النغمة الجنسية ؛ والنتيجة هى تفسير أحلام مصبوغة بالصبغة الجنسية . وهـذا فى أسوأ صورة لون فج من ألغاز الـكلمات المتقاطعة الفاجرة ؛ وفيه تجد كل شيء وقد اكتسب صفة جنسية : فالملوك والملكات والاطفال والثعابين والجياد والسمك والتين والتفاح والبذور والموز والقصب والمظلات والصناديق ودورات المياه والأفران والمركبات والبراميل والمسدسـات وأنابيب المجارى والأوانى الذرارة والأهداف والشرفات والنوافذ والأبواب والمداخل والمخارج والطائرات والمناطيد والماء والمناظر الطبيعية والتلال والصعود والهبوط والدخول والانسحاب والطيران والسقوط والسباحة والتجذيف والتأخر عن مواعيد القطارات والتجول فى الظلام كل هذا يرمز إلى الأعضاء الجنسية سواء للذكر أو للانثى فى

تصوير التحليل النفسى الذى وضعها فى الجانب غير المراقب من قاموس الاحلام .

أما الجانب المراقب ، فإن تصورات التحليل النفسى سمحت له بأن يضع فيه جميع الأعضاء والعمليات الجنسية ، وما يتعلق بها ، بما يسبقها أو يتبعها . وهكذا نشأ معجم[1] مترادفات التحليل النفسى . أما ضروب التحريف الضرورية لتأويل مواقف الأحلام بأنواع صراع جنسى ، فتجمع بين الإهانات الشخصية والأضرار بالمنطق . ومن الواضح أنه فى وسع أى إنسان يمثل هذا الميل أن يتناول أى حلم ، ويخضعه لهذه الإجراءات ، فيخرج الحلم مصبوغا بالطابع الجنسى .

لطرق الأحلام الفرويدية موارد أخرى ؛ فإن التوصل إلى الأمور المرتبطة بكل محتوى من محتويات الحلم واحداً بعد آخر يتيح للفرد أن يتغلغل فى الذكريات المستدعاة من الاحداث المحايدة أو غير الجنسية إلى أن يصل إلى شىء يتيح التفسير المطلوب :

---

(١) أن تطرف الطريقة يدعو إلى السخرية وبخاصه فى عبارات علمية ، فالعلم قدوة فى أجراءات البرهنة القاسية ويعد كتاب « بيردوود» Bjrdwood « العناصر الجنسية فى الكتب الخمسة الأولى لاقليدس » أكثر فكاهة ، وهو فى جوهره ليس أكثر تكلفا من عزو الجنس إلى القصب والمواقد . والخط المستقيم المنصف للدائرة يكاد يكون قضية لا يليق عرضها على عقول المراهقين الملمين بالرمزية الفرويدية (المؤلف)

ففى كثرة الذكريات ما يوصل حتما إلى إصابة الهدف . فإن كان المعنى خاطئا فإن رمز الحلم يتحول إلى المعنى المضـاد . وإذا ما اعترف المريض وسلم ، أو حتى تطوع بتقديم المعنى الجنسى المذنب كان هذا هو الاثبات المطلوب للنقطة . أما إذا أنـكر ، فإن الترابط يعد قائما فى اللاشعور ، أو إن مقاومة المريض تحول دون إدراكه .

وهذا الاجراء الاختيارى لا يستبعد أن الطريقة قوية ، فان الاحلام بحكم طبيعة الاشياء تـكون مبهمة فى بعض الاحيان ، ومحدودة فى أحيان أخرى من حيث أشارتها إلى ضروب الصراع والرغبات الوثيقة ومنها الجنسية . ولا يقنع الفرويديون بهذا القدر، فان استمساكهم بعقيدتهم يدفعهم إلى أظهار جرأة مبادئهم ، كما يفعل المتعصبون والمصابون بمرض البرانويا وغيرهم ممن يحللونهم .

وتنشأ السفسطة المركبة فى تفسير الاحلام الفرويدى من طابعها الجنسى الخاطىء ، ومن تحميل الرمزية مالا تحتمل ، ومن المغالاة فى استخدام مبدأ الحتمية . وفى وسع أى أنسان موال للمنطق القابل للتوفيق ، واستخدامه أياه وفقا لمـا يرضى مزاجه ، أن يأخذ أجزاء البيت الذى عاش فيه فرويد ، فيتناول تحف مكتبه وغرفة نومه وحمامه ومطبخه ومحتويات خزانة ملابسه ثم محتويات معارض المحال القريبة منه التى تبيع الأدوات الحديدية

أو الرياضية أو الخزفية ؛ فى وسعه أن يتناول كل هـذا ويجعله أعضاء تناسلية دون مزيد من التحريف لمعانيها الأولية ، ودون عدوان على المنطق السليم أكثرمما تم فى وضع المعجم الفرويدى عن رموز الأحلام . وعدم ميل الفرد إلى القيام بهذا المشروع ليس من باب المقاومة العلمية المتزمتة الذاتية ، ولكنه تحزب مستنير للمنطق وصحة العقل .

وتصل سفسطة تفسير الأحلام إلى أقصى السخف عندما تعطى الأهمية والدلالة لأحد التفاصيل بطريقة تعسفية . وهـذا ما يظهر فى علم الأرقام Numerology عند يونج .

وهو يروى جزءاً من حلم لرجل متزوج له علاقات جنسية أخرى . ويظهر التفصيل فى شكل « اكتئاب ، وكدير » يعقب على الرقم الذى تم الاكتئاب به ، وهو ٢٤٧٧ . فمن المظنون أن يكون لهذا الرقم أية أهمية مالية . وبما أن الحالم كان ذا عقلية اقتصادية ، فإن هذا الرقم يحتمل أن يمثل نفقات مغامرته المحظورة التى قدرت بدقة ؛ ٢٣٨٧ فرنكا . وهذا الرقم « يمكن أن يترجم بطريقة تعسفية فيصير ٢٤٧٧ » .

وبطريقة « التداعى الحر » تعين أن الرقم يتألف من تواريخ الميلاد له ، ولعشيقته ، ولزوجته ، ولأمه ولطفليه،ويضاف إليها عمره وعمر عشيقته (ويضاف إلى هـذا أيضاً رقمان آخران غير مفهومين تماما) . وبجمع كل هذه الأرقام يكون الناتج ٢٤٧٧ . وكانت طريقة جمع تواريخ الميلاد هى أن تاريخ ميلاده ٢٦ فبراير فيكون الرقم ٢٦٢ أى فى ٢٦ من الشهر الثانى ؛ وقد جاء المجموع ٢٤٧٧ . والمفروض أن هذه العملية الحسابية تمت فى « اللاشعور » الذى ابتكر هذا النظام .

وعندما ظهر الرقم ١٥٢ كرهان فى مباراة لسيدة حالمة ، فإن أرقام المنازل التى أقامت فيها تلك السيدة اللطيفة الكثيرة التنقل كانت مفتاح الحلم . فقد أقامت فى منازل أرقامها ١٧ ، ثم ١٢٩ ، ثم ٤٨ . وبجمع هذه الأرقام نحصل على الرقم ١٩٤ ومنه نطرح ٤٨ فالناتج هو ١٤٦ ؛ وكان رقم المنزل الذى تسكنه عندما حلمت هو ٦ فإذا أضيف إلى ١٤٦ كان الناتج ١٥٢ . وهكذا فسر الحلم ... !!

ومشكلات المريض قد « تنعكس على مرآة اللاشعور

عند زوجته ، ومن هذا القبيل حلم يدور كله حول «لوقا ١٣٧» . وقد فسر هذا على أنه الأصحاح الأول من أنجيل لوقا والآية ٣٧ . وهذه بدورها تشير إلى البشارة . وبما أن الإصحاح ١٣ والآية ٧ تشير إلى شجرة التين ، وهى من قديم الزمان رمز للعضو التناسلى عند الرجال ، فهذا بدوره يرمز إلى علاقتها بزوجها العنين . وبما أن الحالمة لم تكن من المطلعات على الانجيل فإن رقم الحلم يجب أن يفسر على أنه ذاكرة خفية أو نوع من البصيرة الثانية .

وسخف هذه النتيجة لا يفوقه إلا طريقة المنطق «البرانوى» التى أدت إليها . ومع ذلك فإن هذا المثل مسجل فى موضوع علمى لباحث مشهور . وهذه العينة ليست فرويدية الطراز لأن «يونج» هو صاحب الأرقام ، وإن كان فرويد لا يقل عنه فى أفراطه . وبذكر هذه العينة أصل إلى ذروة نقد حجة الحلم . وقد سردتها لأوضح ما يمكن أن يؤدى إليه الافراط فى مثل هذه التحريفات المنطقية فى عقل قادر مبتكر فى شتى النواحى الاخرى . ومن الجائز أن يعد « علم » تفسير الأحلام الشعبى مغامرة محظورة ، وأن الدفاع عن سخفها هو الثمن ؛ ولكن يونج يدافع عن «أهمية الأرقام فى الحلم» بالتفسير المموه التالى .

أن دراسة الخيال الابتداعى الحر « تتطلب تجارب عملية كثيرة » ، ومدى واسعا من حسن التقدير فيما يختص بدقة النتائج الفردية ، ولكن هذا لايجبرنا بأية حال من الأحوال على أن نتجاهل فى سكون ما هو فعال وحى خشية أن نوصم بأننا غير علميين . ويجب ألا يكون هناك أى مجال للمناقشة والتفاهم مع مخاوف العقل الحديث من الخرافات ، فإن هذا الخوف نفسه هو أحد التدابير التى تؤدى إلى اخفاء اسرار اللاشعور .

وهكذا تنزل الآلهة الجنون أولا بمن تريد تدميره !... ويميل الانسان إلى الشك فى أن مثل هذا الاجراء الأولى الذى كان يتبع مع التلاميذ الذين يريدون الالتحاق بهيئة تفسير الأحلام التابعة للتحليل النفسى .

ولعله من الغبن أن نختم حجة الاحلام بمثل هذه العبارة الخيالية ، فليس من الضرورى أن المبادىء الفرويدية لتفسير الأحلام قد انحطت إلى هذا السخف الكبير ، أو أنها قد هوت إلى ذلك العبث ، بل من الجائز أن تستبق البصيرة فى التشخيص فى المستوى المنطقى وفى المجال والمقبول . ولكن يبدو أن فى الجو الذهنى شيئاً تنتعش فيه الثقافة الفرويدية ، وهذا الشيء

يميل إلى توجيه المقدمات الخاطئة لتصير نتائج مفرطة فى المبالغة . وأتباع فرويد يقتدون بقائدهم ، ويقتحمون المشروع بمقاييس برهانية مفككة ، ويعتقدون بأن الاتجاهات المعترف بها فى علم النفس المستقر لا صله لها بعملهم .

وبهذا الحمل الخفيف من المنطق ، وبرؤيتهم لهدفهم الخاص قائما أمام عيونهم ، فإنهم ينطلقون فى سرعة إلى اتجاهات بعيدة ، وإن كانوا فى الغالب يدورون فى عدة متعرجات قبل أن يصلوا إلى هدفهم المنشود . ومن كل المنتجات النفسية تجد فى الأحلام مركبا يتألف من عوامل معينة مختلفة كل الاختلاف أكثرها مبهم غامض ، متعرج ، ومنعدم النظام ، ومتغير ، وكله الغاز . فإذا ما اخترت واحداً من هذه العوامل ، وليكن الصراع الشخصى ، أو الخاص بالصراع العصابى على أن يكون هو المعين العام الوحيد وبعدئذ تفرض عليه قاعدة تخمينية بها مجموعة من القيم الجنسية ، إذا ما سلكت هذا السبيل ، حددت مسارك مقدما ، وكانت طريقتك غريبة شاذة بعيدة عن الطرق العلمية بغية تحقيق فرض فج مستتر .

وهكذا نشأت سيكولوجية الأحلام وهى مصابة بالآفات من جذورها إلى زهورها ، وهكذا فإن الخطايا المنطقية لعالم نظرى ضال رغم أنه مبتكر قد فرضت على الاتباع لتمتد إلى الجيلين

الثالث والرابع منهم . وحتى فرويد نفسه لن يستطيع أن يجعل تفسير الأحلام شيئاً مقبولا له قيمته .

النمو النفسي الجنسي

الجنس في علم النفس :

نادراً ما تبتعد الحجة الفرويدية عن الجنس ابتعاداً كبيراً ، إذا يجد فرويد منابع أعراض العصاب في التأثير المكون لانطباعات الطفولة ، ولا سيما في ضروب التعلق الجنسي الشديد الباكر الذي يتم في العائلة ذاتها ، وكذلك يجدها في الصدمات الانفعالية ، وفي أثناء استزادة الطفل من المعرفة بالأمور الجنسية. وقد قدر لهذا الجزء المضاف إلى نظرية أمراض العصاب أن يكون حجر الزاوية في البناء كله عندما تسلم الجنس مركز السيادة. وبإضافة « اكتشاف » إلى آخر من تلك « الاكتشافات » التي نجدها في صومعة التحليل النفسي ، أعاد فرويد بناء « المفقود » ، أو بعثه من مرقده ؛ أي أنه بعث تاريخ حياة اللبيد المكبوت كما وجده في الطفل البدائي الأصلي ، لا كما كان موجودا في إنسان الكهف البدائي . وكان هذا هو « الاكتشاف » الذي أقام عليه حظه المهني . وهكذا صار الإنسان في النظرة الفرويدية « إنسانا لبيديا » .

وكلما زادت حريتنا وصراحتنا فى الاعتراف بما للحياة الجنسية من أثر فى التكوين البشرى كان ذلك من الخير لنا : فمن الأفضل أن ننظر إلى الجنس نظرات موصولة ثابتة ، وان ندركه فى جملته . وكان هذا الاتجاه قد أستقر قبل فرويد . وكان هافلوك إليس » Havelok Ellis من أكبر الرواد فى هذا المضمار . وكانت روح التحرير فى القرن العشرين من العوامل الأجتماعية القوية للسير فى هذا الأتجاه ذاته . وقد التقت هذه الروح بالمغامرة الثورية العادية القائلة بأن الحـــرية قد تنقلب ترخيصا يجيز عمل كل شيء .

أما فى مجال علم النفس ، فقد حدث رد الفعل على ما أطلق عليه هويلر Wheeler أسم « سيكولوجيات زهرة الماء التى من الطراز الاكاديمى» ... «والتى ولدت ونمت فى ناقوس زجاجى » . وهويلر هذا عالم فى الحشرات ، تناول فى بحثه « نقائص الحشرات والإنسان » . وقد عبر ستانلى هول Stanley Hall عن وجه الاعترض هذا من قبل بمدة طويلة ، إذ أدرك الدور الخطير الذى تلعبه السمات المستمدة من الجنس والمصبوغة به فى مراحل تطور الخلق البشرى البعيدة ، والقريبة ، مما يظهر فى مضمار الأعمال ، وفى المعاهد والمؤسسات . ويؤكد علم النفس النشوئى عند «هول» أهمية العنصر الجنسى فى الشخصيات ، ولاسيما فى التعبيرات الدينية.

ومثال ذلك أنواع الحرمان التى تضفيها الرهبنة من حيث هى رد فعل على أنواع الفشل فى الحياة المنزلية . وقد وجد أن أكبر ما يعيب كتاب « ضروب الخبرة الدينية » لجيمس James's Varieties of Relegious Experience هو أهماله لهـــذا العامل الحيوى .

وقد أتجه « هويلر » إلى التحليل النفسى بغية الاستنارة فى هذا الموضوع ، فعثر إلى حد ما على ضالته فيه ، ولـكن « فى مباءة قذرة من مباءات العلم » . وكان تعقيبه على النفسيين هو أن عادتهم « فى الجلوس سويا ، أو مع الفلاسفة ، لملاحظة أيهم يكون أسرع فى التخريف أو أبرع حيلة ، واقدر على صياغة فذة للنتائج فى أروع أسلوب » ، فقال « أن هذه العادة لن تساعدنا كثيرا فى حل مشكلات الحياة الملحة المزعجة » . ويصح أعتبار هذا التعقيب لو ما يستحقونه . ومع ذلك فان المحللين النفسيين فى تصميمهم على خدمة البشرية ، قدموا لونا من « التخريف » يعد اكثر طموحا ، واكثر خطأ من عادة الانهماك فى التأمل النظرى ، فان هؤلاء المحللين يقبلون ما يفرض عليهم من الالتزامات العلمية ، ويعرضون ما يصلون اليه من نتائج باسم العلم . وإن أبرع البصائر لتتساوى مع فشل النيات الحسنة ، إذا ماطبقت بمنطق ضعيف .

كانت مهمة أبراز الجنس ، وجعله فى مركز البواعث النفسية ،

خطوة ضرورية فى علم نفس الاعماق : ولكن الانتقال من السرية التى كانت مفروضة على المعلومات الجنسية إلى كشفها بكل وضوح ، وفى ضوء وهاج ، جاء فجأة بطريقة غير سليمة : ومن الجائز أن يعزى فضل جزئى فى إبرازه إلى فرويد ؛ وهو كذلك يعد مسئولا عن الاستنكار الذى لقيه تنفيذه لمشروعه بطريقة لا يمكن الاستمساك بها . وفى هذا المجال يحمل أتباعه اكبر الوزر. ولقد كان توكيد فرويد البالغ للبيد الجنسى ، وطريقة سيادته من أهم الأسباب التى أدت إلى أنسحاب يونج من جماعة فرويد.وفى كل تعاليم فرويد المشكوك فيها ، تعد تفاصيل معضلات النمو النفسى الجنسى بالشكل الذى أكدها به فرويد وطبقها ، أكثر هذه التعاليم تعرضا للشك والأرتياب .

والناحية الجنسية فى الطفولة هى موضوع النزاع ، والعلاقة الاوديبية موضوع آخر ؛ ثم تأتى مسألة تقرير السمات الخلقية بأنواع التثبيت فى مراحل النمو الجنسى ، وهى العضو الثالث فى الثالوث الجنسى الغريب . ولو استبعدت الوان المبالغة والافتراض فى هذه النواحى الجنسية الثلاث من أقانيم التحليل النفسى ، أو لو أنها لم تضم اليها ألبتة ، لا مكن الأبقاء على تحليل نفسى جنسى مفيد . وتبعا للموقف الفعلى ، فان الفرويديين المحافظين المعتدلين يعدون هذا الاقتراح اكثر تعجيزا للرجولة من فقد القدرة

الجنسية المخيف الذى يلعب دورا خبيثا فى المأساة المحزنة ، وهى مأساة يحتمل أن تصير (كما أعتقد) كابوسا فرويديا .

الجنس والطفولة

الغلطة الكبرى فى علم النفس النشوئى التخمينى لفرويد ، هى افتراضه أن « الشكل الأولى » Primal Form فى النمو النفسى هو فى روحه . « الشكل النهائى » Final Form وأن هذا الشكل الاولى يجب أن يفهم على أنه شعور سابق ، أو تنبؤ بالمستقبل ، وبذلك يقدم علم نفس فريد «مقلوب» . ويظهر أن فرويد نسى أن مراحل النشوء غير قابلة للقلب أو التنبؤ ، فالنمو طريق مرور فى اتجاه واحد . ويوجد فى الواقع نمو موحد يربط أوجه التعبير المبكرة والناضجة ويصلها بعضها ببعض ، فالطفل هو أبو الرجل بمعنى نشوئى لا بمعنى تنبؤى ، والطفل ليس بسيد الرجل كما يصر فرويد .

وكأنه أولى بالانسان أن يفسر ضحكة الطفل على أنها ظاهرة مبكرة تنبى عن روح فكاهة دقيقة ؛ أو أن يصبغها بالطابع الفرويدى ، فيراها نوعا من التمتع السرى الطفلى لطراز دعابة من دعابات « رابليه » ؛ او أن يضفى على دموع الطفل بسبب فقده الزجاجة التى يرضع منها ، آلام مأساة ناضجة . او انه يتجاهل تمييز الدوافع والمواقف ، فيرى فى ادمان الطفل على الرضاعة من زجاجته

نبوة عن علة ، او بعبارة آخرى يرى المرحلة الطفلية لادمان السكير . وإن تجاهلنا لكل ما يحدث بين ضمة الطفل فى مهده وبين اتمام عقد الخطبة ثم الزواج ، وفهمنا للشحنات الانفعالية الناضجة للزواج على انها موجودة فى ضمة الطفل ذات التأثير المهدىء ، هذا الفهم بعيد كل البعد عن علم النفس . وهو بعيد بعد أى أجراء يستطيع وضعه باحث نفسى منحرف عنيد ينصح باتباعه . فمثل هذه السيكولوجية النشوئية ليست نشوئية البتة .

وما نجده من تشابه فى أستثارة اللذة العامة بين استهلال الطفولة وبين الختام ، ثم ما يصدر من أعمال ومناظر تعد نتيجة للنمو التدريجى العام للنفس ، ومنه مقوماته الجنسية بوجه خاص هذا التشابه لا يعطينا أية قاعدة لتكوين مأساة حب محكمة ذات تفاصيل نبنيها على أساس حادثة تافهة وقعت فى الطفولة . وبما أن الحياة هى النمو ، فان الشكل الاولى لدافع ما ليس هو الشكل النهائى . والموقف الميكروبى فى البويضة الاولى للجنين يختلف عن الموقف النهائى لاكتمال النضج ؛ وأن أى مبتدىء فى علم النفس ، ليتجنب مثل هذه الفوضى ، والبلبلة التى لا يمكن أغراء عقلية بقبولها إلا إذا كانت أصيلة فى جرأتها على أبتداع الافتراضات السابقة لاوانها .

وإذا ما تم أرتكاب هذه المغالطة ، وهجرنا كل ضمير منطقى ،

فإننا فى الواقع نصير أحراراً فى اصطناع النتائج لمثل هذه التفسيرات التى لا تستند إلى ما يبررها ، والتى تطلق فى حرية لتصير لبيدية . وقد كان استعداد فرويد لقبول الشاذ على إنه مقياس السوى هو الذى بهره ودفعه إلى تسمية مظاهر الطفولة فى عبارات وأسماء تدل على انحراف إذا ماطلعت هذه المظاهر فى مرحلة النضج . وهو لم يعتبر حالة الشواذ كنهاية المطاف ، أو كانحراف من الحالة السوية ، وهو الاعتبار[1] الطبيعى . وتبعاً لهذا المنطق ، فإنه صنف الطفل كمخلوق متعدد الانحرافات ، وهو شىء مخيف فى الواقع لا لخطيئة أصيلة بل للعدوان على المنطق .

وفى هذه السن المجردة من أنواع الخبرة ، لا يملك الطفل أى مجال للمسرة إلا جسمه . وقد سمى الطفل فى هذا المجال « موضوع الحب » خطأ ، كما أطلق على حبه لجسمه عبارة « ذاتى العشق » ؛ وهى لفظة اقترحها « هافلوك اليس » لحب الذات الجنسى ؛ وأطلقت أيضاً لفظة « النرجسية » على عشق الطفل لذاته ، وهى زلة ضخمة يقع فيها من هم أنضج منه ، وتتضمن الكثير . وبنفس

(١) أكرر أنه وفقا لإصرار الفرويديين على إساءة فهم ما يقبله الباحثون النفسيون ، وما يرفضونه ، فان مبدأ سيكولوجية الشواذ التى تعد الشاذ على على أنه المرحلة النهائية للسوى بما فى ذلك عمليات وإجراءات التشابه والتشبيه فى سلسلة التدرج بينهما ، هذا التمييز لا يمت بصلة إلى اتخاذ الشاذ معياراً للسوى . ولا يستطيع الفرويديون أن يسندوا إلى أنفسهم فضل التشابه والتقارب فى السلوك السوى والشاذ لأن هذا نشأ مستقلا عن تفسيرهم النوعى لهذه العلاقة . (المؤلف)

طريقة الاستدلال التى لا تجد مايدعمها ، فإن أية علاقة بارزة تحدث للطفل مع أصدقاء من جنسه فى سن متأخرة صارت دليلا على الشذوذ الجنسى الكامن . وسواء أكان العمر مبكراً أم متأخراً ، فإن رباط الولاء والاخلاص بين طفل وأمه قد فسر على أنه مضاجعة المحارم الجنينى ، وهى « سمة بشرية عامة فرضها القدر » وفرويد أيضا . وبما أن مثل هـذه الانحرافات تحدث أحياناً بين الشبان الشاذين ، فإنها استغلت فى الاستدلال على وجودها بصفة عامة عن طريق الوراثة . ولا يوجد ما يؤيد هـذا الاستدلال إلا تشابه مصطنع فى أحـــد أوجه التعبير المشاهد فى الطفل وفى الراشد ، ولكنه مختلف فيهما تمام الاختلاف فى أصله وقيمته .

وهذه المغالطة الفجة استدعتها مجموعة من «الفروض النظرية» المنطوية تحتها . فالمغالطة الخاصة بالنشوء وحدها لم تكن تكفى لظهور مسألة « غرام الأسرة » ؛ وما حدث هو أن فرضا خاطئا أدى إلى آخر . وكان أغرب الفروض جميعاً القول بأننا نحصل على حالتنا السوية بمرورنا بما هو شاذ . كأننا نحصل على الصحة الفعلية عن طريق أصابتنا على التوالى بمختلف علل الجنون أو لإننا نحصل على القداسة عن طريق الانهار إلى أقصى حد فى كل أنواع الخطايا . وكل هذه التعاليم الشاذة ليست إلا فروضا غير نقية وغير سيكولوجية وهى تعنى أنه توجد قاعدة ملائمة

لتفسير آخر مختلف كل الاختلاف ، للقصة النشوئية . وإذا ما فرضنا وجود الجنسية الطفلية ، فإن الانحرافات المتأخرة تفسر على أنها أنواع من « الردة » إليها ؛ ومرة أخرى نجابه مدركا مقبولا ، ولكن تطبيقه خاطيء . وهكذا فإن مدار المغالطة الفرويدية يتزايد دورة فوق دورة ، ويتوغل فى البعد عن الحقيقة فى تعقيداته وحركاته الحلزونية .

ويظل مبدأ اللذة قائماً كما هو ، وعلم النفس مدين لفرويد بما أضفاه عليه من معان ، ولا ريب انه توجد فى أجسام الأطفال مناطق لذة هامة فى حياتهم ، ولسوء الحظ أنها سميت «شهوانية» ؛ ولو قيل عنها أنها مثيرة للذة لتجنبت « الطفولة » الوقوع فى كارثة ؛ ولبقيت لفظة « أوديب » مجرد اسم لخرافة لايعرفها إلا الصفوة ، واللذة فى أولها بسيطة ، شائعة ، وأولية . فالطفل يحتضن أمه طلباً للدفء والأمان والتغذية ، كما تفعل جراء الحيوانات اللبونة الأخرى . ولكن عجزها عن النمو المخى البشرى ينقذها من تهمة مضاجعة المحارم الجنينية[1] .

---

(١) من الواضح أن الحيوانات ذات الذكاء لم تكن معصومة من إزدراء علم الجنس النشوئى الذى أصيب به البشر «وعندما يلعق كلب مخلبه الجريح فى رفق عدة ساعات ، فليس معنى هذا أن نزعم أنه يصنع هذا كعلاج طبى لجرحه ، أو لمنع التهابه ، أو أى شىء من هذا القبيل . والفرض الأكثر قبولا هو القول بأن قدراً

والحقيقه القائلة بأن إحساسات اللذة الأولية والمبكرة تتدخل وتشترك مع النتائج الثانوية التى تظهر فيما بعد ؛ هذه الحقيقة لا تعطى ظلا من التأييد لادراك المفهومات الناضجة فى المظاهر غير الناضجة . ويصف «ف. ليمان ولز» F. Lyman Wells هذه الفوضى الفرويدية فى وضوح ، فيقول إنها « سوء تسمية خاطئة » . وولز هذا من أكثر الباحثين فى شؤون سيكولوجية اللذة . وهو يميل بكليته إلى المبادىء الفرويدية الأكثر استقراراً . ويقول إن سيكولوجية « الإنحراف المتعدد الأشكال » « يحتمل أن تحتوى على تفكير خاطىء أكثر من أية مغالطة أخرى من محاولاتنا المستنيرة فى سعينا لفهم أنفسنا ، وإن كانت محاولات خاطئة » .

وهذه « التسمية الخاطئة الكبرى » جزء من سيكلوجية « نشوئية » مقلوبة إلى حد كبير . وتبعاً لذلك فإن استخدام «الجنس» فى التحليل النفسى انتشر على هيئة طبقة رفيعة حتى صار يغطى كل شيء يتصل بإثارة اللذة الجسمانية ، وهذا « الجنس » رقيق منتشر حتى اننا لنكتشف آثاره فى كل مكان، وفى كل شيء ،

= كبيراً من لبيد الكلب قد وجه إلى طرفه المصاب ، ولهذا فهو يعنى به فى رفق وحنان ، مما يدخر عادة للعناية بأعضائه الجنسية » . هذا الخليط السخيف هو الرأى الجدى لمحلل نفسى كبير ، وليس مجرد أقصوصة جمت الجد فى الهزل (المؤلف) .

حتى فى جرعات العلاج الصغيرة . ورغم أن هذا العامل جزئى ، فإنه يعد عاملا يقرر العدوان فى جملته ،كما يبرر الاسم الملائم للعمل الذى يعد فيما بعد . وفى ألوف المناسيب جنسياً حقاً . وهذا العبث المطلق بالألفاظ ، إنما هو دفاع غير جدير بالنظر ، فإن المغالطة المركبة أكثر جداً من أن تكون مجرد لفظية ، فهى تتضمن قلبا كاملا للعلاقات القائمة فعلا للذة الجسمية عامة وللتأثيرات الشهوانية خاصة .

« أن ما يجب أن نبدأ به هو مجموعة من الاحتمالات الخاصة برد الفعل السار التى يحدث بينها نمو انتقائى؛ وبسبب أفضل دواعى التطور ، فإن ما يرجح أن يعيش وينتعش ، هى تلك التى تعمل مع غريزة التناسل ؛ ولا ريب أن دوافع الشهوة الكامنة فى الحى يحتمل أن تنمو بطرق مختلفة دون أية صلة مع المناطق التناسلية ، فضلا عن النواحى الجنسية » .

على هذا المنوال أقام ولز قاعدته الواضحة بشأن السيكلوجية العقلية لتطور اللذة . وينطوى تحت مغالطة « الطفولة » حليفتها ، وهى مغالطة اللبيد التى تشيع الفساد بطرق مختلفة فى كل علم

الجنس الفرويدى . وسنعرض لنقدها فى مجال آخر تال .
ومن دهليز « الجنسية » الطفلية نقترب من قاعة عرش « أوديب » ملك العقد ، وما يتبعه من حاشية .

عقدة أوديب :

عقدة أوديب هى عقدة العقد فى الواقع ، فهى قصة متشابكة . متداخلة ، متعددة النسيج ، يتطلب تتبع تحليلها المنطق الصبر وطول الأناة . وأيا كان تقديرك لها فهى فى رأيى عقدة ولود ، وذات نسل كله فروض خاطئة فى مقدماتها . وإذا قدرنا أن هذه هى الزلة المنطقية الأصلية ، ترتب على ذلك تعميمها ، وحلها ، واحكام نسج خيوطها ، وإذا ما قدر لها أن تكون مصيراً محتوما ، لصارت مسألة « غرام الأسرة » مهزلة أخطاء مضحكة لولا أنها مأساة محزنة ، وإذا ما لخصنا جميع نواحى هذه العقدة ، فإننا نجد فيها خيطا ضالا من الصواب ؛ ولكن هذا الخيط من الحقيقة أبعد من أن يجيز حبكة العقدة فى كل أحوالها . ولا ريب أن العلاقات فى دائرة العائلة ذات طابع تكوينى ، وأن قبضة هذه العلاقات على مراحل النمو المرنة قوية ، وهى التى تجعل لها ذلك الطابع التكوينى ؛ وليس مصير نزعة ذاتية فى الفرد أو الطفل إلى الانحراف .

وفى كل ذلك الفيض الدافق غير المستساغ من

الكتابات والمؤلفات الفرويدية ، والتي تروى مغامرات أوديب الفرويدى ، فإننى لم أظفر بعبارة تحـــدد كيف نشأت نظرية مضاجعة المحارم ؛ ومن الجائز أن تقرأ المرة بعد الأخرى إنها «اكتشفت» فى التحليل . وإذا ما جردنا هذه العبارات ، وقصرناها على الحقائق العارية ، لكان معناها أن النظرية كانت مقبولة من بعض المصابين بأمراض العصاب ممن عرضوا أنفسهم على المحلل النفسانى ، وأن أحداث طفولتهم وعلاقاتها ، بما فيها خيالاتهم ، كان من الميسور أن توصف لهم بتلك العبارات المستعملة فى اجراءات الاعترافات الفرويدية العادية التى تتفاعل فيها الحقيقة ، والخيال ، والايحاء ، والفروض فى نشاط .

وما أن بدأت الفكرة أو النظرية حتى قبلها تلاميذ فرويد فى شغف واعتبروها شعار عقيدتهم . ويمكننا أن نصف فى دقة أفضل الاكتشافات وأكثرها شيوعا . بأنها مغالاة فى التعلق بالأم ؛ وهى حالة فطام سيكولوجى ناقص . وقد كانت هذه الحالة النشوئية معروفة فى كل العصور ، ودليلنا على ذلك الجملة الشائعة «ابن أمه» أو «المقيد إلى خيوط مئزر أمه» . أما صبغ هذه العلاقة بالطابع الجنسى فهو فى الواقع تفسير جديد .

وإذا ما أردت أن أصبغ خيوط المئزر بالطابع الفرويدى ،

وأعلن أن هـذه الخيوط ترمز إلى الحبل السرى ، فإن التفسير يكون جديداً ومنطقيا على الطريقة الفرويدية . فإن شئنا أن نقلب هذا الاقتراح التافه إلى « اكتشاف » نسميه «عقدة الحبل السرى»، فما علينا إلا أن نتجاهل بيولوجياً وظيفة الحبل السرى ، ومراحل النمو التى يعمل فيها ، وكذلك نتجاهل ، سيكولوجيا واجتماعياً ، كل المناسبات التى تؤدى إلى خيوط المئزر واثقين بأن كل المعانى جنسية . وعندئذ ، وبهذا الموضوع البديع الخالى من الذوق ، أنقب فى « لا شعور » قليل من المرضى ، واستخرج منهم بعض الذكريات بالتداعى الحر ، (ولا تنسى أنه حر ، ولكنه موجه إلى العقدة) ، وبهذه الذكريات أضيف ملاحظات خاصة بالمقاومات التطهرية ، (البورتيانية) فاحصل على « عقدة » جديدة ، وأضيف صفحات لا بأس بها إلى سجلات التحليل النفسى الذى يعد مجمع الفروض . وان تجد نهاية لا صطناع العقد ، وبنائها على هذا النمط . ولفائدة علم النفس كان يجب أن لا يكون هناك أية بداية لهـا .

وإذا ما انتقلنا إلى التسمية ، فإن اسطورة أوديب القديمة لا تتفق ألبتة مع المناسبات الفرويدية ، فإن أوديب هذا تربى مع والدين تبنياه ، ولم يعرف أمه الحقيقية إلا بعد أن بلغ سن النضج ، بل الواقع أنه لم يعرف أنها أمه إلا بعد زواجه منها ؛ ولو عرفها

لما تم تحقيق النبوة . أما المسئول عن مصير الفرويدية فهو ذلك التعلق الطفلي الشديد . ولا شأن للملك القديم أوديب بهذا كله ، وكان من الجائز إلا يوصم بالإصابة بالتثبيت الاوديبي . ولو أطلق على العقدة اسم « العقدة المجهولة » لأدى الغرض المطلوب ؛ والنقطة الحيرة ، هي كيف تيسر لأى إنسان أن يدرك أن مثل هذه العلاقة يمكن أن تكون ذاتية فى نمو الأطفال الجنسى النفسى . ويظهر بجلاء أن نظرية مضاجعة المحارم نشأت أولا ، ثم أطلق عليها الاسم بعدئذ .

ويعقب الدكتور « راموس » Ramus وهو أحد اتباع فرويد ، على هذا بقوله : يخيل إلى أنه من الأشياء المفتعلة وغير الطبيعية أن تفسر العلاقة الشديدة بين الإبن والأم « بأنها رغبة مضاجعة المحارم ، سواء بشعور أو بلا شعور . وهى توحى بأن فرويد ، أو أيا كان أول من فكر فيها على هذا الأساس ، قد بحث عمداً عن أسطورة يلصق بها نظريته الجديدة بشأن مضاجعة المحارم ؛ فلما عثر على أسطورة أوديب تبناها على أنها أقرب أسطورة تتفق مع هواه » .

و « الجنسية الطفلية » وفقاً لتحليلى الشخصى ، كانت المقدمة المنشودة لإفتراض وجود « عقدة أوديب » . والمخلوق الوحيد

الذى تنشأ فيه هذه العقدة فى هذا العمر الصغير هو الشاذ القوة من الناحية الجنسية . وبما أن حالة أوديب موجودة فى كل رجل فلا مفر من أن نكون جميعاً مصبوغين بالطابع الجنسى الطفلى . ولو كان للدائرة مركز حقيقى ، فإن المنطق الدائرى يجب أن يحصل ، على الأقل ، على فضيلة من الثبات العقيم ، والواقع أن البناء كله أقيم على فرض ، وفرض غير طبيعى .

وعلى أية حال يجب إلا نطيل التأمل والتفكير ونحن على الباب ، فإننا كرحالة مغامرين، يجب ألا نفزع من المسلك المنطق الشاذ لمرشدنا ، بل يجب أن ندخل فى مملكة أوديب الفرويدية.

ويقول « جونز » أن « هذا الاكتشاف المميز والهام للغاية فى التحليل النفسى كله » يتضمن الجنسية الطفلية التى « تعد أحدث وأهم مساهمات التحليل النفسى . ويقول فرويد أن عقدة أوديب هامة إلى درجة أن طريقة دخول الإنسان فيها وخروجه منها لا يمكن أن تخلفه بغير أثر » .

وهكذا يزعمون : أولا أنه يوجد موقف أوديبى ، وثانيا أنه هام للنمو فى المستقبل ، وثالثاً ، ولأهميته البالغة ، فإن طريقة دخول الفرد فيه وخروجه منه مهمة أيضاً . وكل هذا هام لو كان

صحيحاً . وإذا ما فتشنا عن الحقائق التى يتسنى ملاحظتها ، فإننا نقابل حالات المبالغة فى التعلق والمحبة فى داخل الأسرة ؛ وحاجات النضج ، تؤكد أنه من الخير الخروج من هذه الدائرة . والأدلة قوية على أن فشل المستعدين للاصابة بالعصاب فى الانطلاق من أسر هـــذه القيود ، أكبر بكثير من استعدادهم العادى ؛ وأن مبالغة الأم فى تدليل طفلها تخلف آثاراً سيئة : ومع ذلك فإن قيمة هذه العقبة تتفاوت من لا شىء ، إلى اعتبارها العامل الجوهرى فى أية حالة معينة .

ومن الفروض المضادة لمراحل النشوء القول بأن ضروب هذه التعلق الطفلى ، ومنها انفعالات العقدة الاوديبية ، تستعيد حياتهاعند البلوغ ؛ وما يحدث فى هذه الفترة ليس « احياء » لهـا بأية حال من الأحوال . وإلا لتوقعنا كذلك «احياء» حالات الزحف والحبو والرضاعة وثورات الغضب . وإذا ما تسامحنا وتوسعنا كثيراً وعزونا ذلك الأثر الثانى إلى شدة حرص الوالدين على إرشاد الطفل فى كل كبيرة وصغيرة ، وإلى المبالغة وتوله أحد الوالدين فى حبه لطفله، فمن المؤكد أنه من النتائج البعيدة — وأن تكن غير المستحيلة — القول بأن تعلق الإبنة بأبيها والإبن بأمه ، يمنع أو يؤثر على اختيار كل منهما لرفيق الحياة ؛ لأن الابنة تريد أباها فى خطيبها ؛ كما يريد الابن أمه فى خطيبته . وبعبارة أخرى أن

الابن الذى أسرفت أمه فى تدليله يريد أما فى حياته الزوجية ، أكثر مما يريد زوجة له .

ومثل هذه الحالات يحتمل أن تدرس بشىء أكثر من التعقل، لا على أنها نتائج لعقدة أوديب . فمن الواضح أنها استمرار لعلاقات أبوية وبنوية خاطئة دامت سنوات طويلة ، ولما يؤثر على الموقف من علاقات سن المراهقة ، والعلاقات ، والاحتكاكات التى تحدث فى الحياة العائلية فيما بعد .وقد افترض « يونج » ، إن فرض فرويد بشأن الرغبة فى «مضاجعة المحارم ، فقال إنه تعبير رمزى يشير إلى الرغبة فى العودة إلى أحضان الأم أو رحمها . وقال « رانك » أن الافتراض الخاص بأن الحالة « الاوديبية » إنما هى « ميلاد خيالى جديد يردد صدى القلق الذى يصحب آلام الولادة » . وكل هذه الفروض سواء فى أنها لجة طائشة قامت على غير أساس ؛ ولا يمكن أن تكون كلها حقيقية ؛ فهى جميعاً متشابهة فى صحتها ، وكلها يعوزها احتمال وجود دليل لها .

أما كيف تنمو مثل هذه الدوافع الواضحة فى موقفها ، فى خام مخ الطفل الذى لم يتم نضجه ، فلغز محير . وهناك أيضا مسألة انتقال هذه السمات بالوراثة ، فهى من المسائل التى تتجاوز نطاق الفهم ، وتفلت من أية دراسة . ومثل هذه الفروض تتخذ سلما

لقفزات طموح فى مجال الأمور التى لا يمكن تحقيقها ، والتى يحتمل أن تؤدى إلى ما يذهل ويثير فى ذلك المضمار الذى يسميه « هنشو وارد » Henshaw Ward « بسرك العقلية » الفرويدية .
« فالهلوسة » ، والاصطناع ، والارتجال ، بمعونة الالفاظ الملائمة يؤدى إلى الإفراط الفرويدى فى مسألة الجنس .

وتنتج عقدة أوديب الفرويدية نسلا من العقد الثانوية ؛ وكلها تفهم ، وتدرك ، بطريقة التناسل بغير اخصاب ذكرى ، وبنفس الخصوبة التى فى الفرض . فان فرض « مضاجعة المحارم » بوصفه حبا للام ، تضمن أيضا « حسد الأب » ؛ وهذا بدوره خلق حالة « عداء » ورغبة فى استبعاده واحتلال مكانه . ولكن الوالد شيء « مرهوب الجانب » لما يتمتع به من « سلطة » ، ولانه « يهدد » ولكن ماذا يهدد ؟ وللاجابة على هذا السؤال تعمل عوامل الهلوسة نفسها ؛ فالاجابة يجب أن تكون تهديدا جنسيا ؛ ومن ثم تظهر فى الوجود عقدة عجيبة أخرى هى « عقدة الخصاء » ؛ وعنها كتبت المجلدات الضخمة بغير رقيب أو حسيب . وفى كل هذه المجلدات لا تجد أثر أى دليل إذا أستثنينا خيال الطفولة ، وسوء تصرف الأباء أو المربيات . ويالها من أضافة منتقاه إلى نظرية جنسية ! ؟

وقد تظن أن الفرض وصل إلى غاياته ، وأنه

أحدث من الارتباك والبلبلة مالا مزيد عليه ؛ ولكن بقيت عقبة تافهة ، فان أوديب كان ذكرا ، وبما أن التحليل النفسى يطبق على الجنسين من ذكور وأناث ، فانه يجب أن تستق مادته من الجنس . ولكن هذا لم يفت فى عضد المحلل النفسى ، فجعل حبكته قابلة للتغير ، ورداءً يصلح للجنسين . ولكل الحالات النفسية . وهنا تقدم « إلكترا » فى ثياب حداد خاصة لانقاذ الموقف ؛ وما تندبه هو فقد نفس الشيء الذى يهدده الوالد ؛ فان خيال الطفولة يزعم أنها المخلوق الذى أصابه الخصاء . وهنا « تكشف » وسائل الافتراض ، وقد سمت إلى أرفع مستوياتها ، عن أن أعتبارها على هذا الاساس يجعل نيران الحسد تشتعل فيها من اكتمال الحالة التشريحية فى الذكور .

وليس هذا أيضا بخاتمة المطاف فى هذا الفرض ، فان المحلل النفسى المتتبع لاحوال الاناث يكتشف وجها أناثيا فى تطور الذكور ، أى إنه اكتشف «عقدة الانوثة » وذلك عندما يتشبه الفتى بالفتاة فى أتهام الأم . والفتاة تلوم أمها من أجل نقصها التشريحى ، وتتحول إلى والدها لتجد ما يعوضها . وحتى لا يكون

المحلل النفسى المشتغل بشؤون الذكور دون زميله ؛ فانه يصف « عقدة الذكور » فى الاناث التى تنشأ من المعلومات القتالة عن الاختلاف الجنسى الواضح ؛ ولا ريب أن كشفها ليس من الاسرار الغامضة التى تؤدى إلى لغز محير أو صدمة عنيفة .

وبينما يصبغ تذلل الإبن الصغير أمام المسلك الصارم لوالده بالطابع الجنسى ، ويسمى « بعقدة الخصاء » (تهديداً) ، فإن تصرف الإبنة الصغيرة يتحول أيضاً إلى « عقدة خصاء » (قائمة فعلا) . وبهذه الطريقة تعمم بنجاح عقدتى أوديب والخصاء ، وتنطبقان على الجنسين . ويقول فرويد « ولقد عرفنا من اشتغالنا بالتحليل النفسى ان جميع النساء يشعرن بانهن اوذين فى طفولتهن ، وأنهن ، لخطأ لم يرتكبنه ، كن موضع الاستهانة ، كما سلبن جزءا من جسمهن . وتمتلىء نفوس كثيرات من الفتيات بالمزارة حيال امهاتهن ، ويلمنهن لسبب لا مفر منه ، وهو انهن جلبنهن إلى هذا العالم أناثا بدلا من أن ينجبهن ذكورا .

واترك لقرائى من الاناث اختيار مايشأن من علامات التعجب أو الاستفهام ، وما يجدنه أكثر ملاءمة لهذه القطعة المنتقاة من

المنطق الفرويدى . وعلى أية حال فإن مسألة الجنس عند الفرويديين منوعة . وعقدة « أوديب » تتأثر بالعامل المعقد المستمد من الازدواج الجنسى .

و « عقدة أوديب الكاملة » موجبة وسالبة أو مقلوبة ؛ تجمع بين مختلف الوان شدة الانفعالات (الشحنة الانفعالية النفسية) من « تقمص شخصية الأب ، والحب الموضوعى Object Love للام ؛ مع تقمص شخصية الأم والحب الموضوعى للأب ، وكذلك أيضاً « مقدار الشحنة الانفعالية (شـــدة الانفعال) الموزعة على الموقف الإيجابى أو السلبي ؛ فإنها تعتمد إلى حد ما على القوة النسبية للنزعة الفطرية فى الغلام أو فى الفتاة ، كما تعتمد على العوامل التجريبية » . « ولهذه العقد » أيضـا أصل فى الاعتماد على الأم Anaclitic مما لا يتجاوز معناه الاعتماد المألوف للبونات .

وتعلق الولد بأمه باعتبارها مربيته وحاميته « يؤدى إلى جعلها موضوع الحب فى مرحلة القضيب » وتسير الفتاة فى الطريق نفسه ، ولكنها تتحول عندما تكتشف نقص الاداة الذكرية عندها . « وفى هذه

الحالة لا مفر من أن ينزلق لبيد الفتاة إلى وضعه الجديد . ويتخذ من الأب موضوعا للحب» ؛ وعندئذ تبلغ حالة أوديب أوجها على هيئة « رغبة طالما راودتها بأن يمنحها والدها طفلا كهدية ». وهذا يؤدى إلى نشوء العداوة لأمها ؛ وفى هذه الحالة أيضاً يعمل خيال الطفولة حتى فى الاولاد الذكور ، وتظهر فيهم « رغبة أوديب اللاشعورية فيريدون ولادة طفل بطريقة غامضة » .

ولست أجد أدنى دليل فى علوم الحياة ، ووظائف الأعضاء والنفس على وجود مثل هذه الاحتمالات البعيدة لأى من موضوعات هذه العلاقات التى انشأتها « الهلوسة » ؛ ولكننى أجد مبادىء مستقرة تبين استحالة حدوثها إلا فى أنواع الخيال التى ينغمر فيها الأطفال كمخلوقات غير منطقية ، وإلا عند الفرويديين البارعين فى أغفال المنطق . وكل هـذا خليط من العلاقات المرتبكة التى جمعت بحرية من جميع مراحل النمو النشوئى ثم أدمجت فى بعضها البعض بكل ما جمعت المراحل المشوشة من متناقضات .

أما الرد على هذا الاتهام فكان دائما ، أن هذه العلاقات غير

الطبيعية ، والدوافع ، والآراء . إنما تحدث فى «اللاشعور» : وهو كهف مظلم لا يرى فيه أى شيء ، ولكن فى وسعك أن تدعى أن أى شيء يحدث فيه ؛ فيتعذر تحقيق الادعاء ، كما يتعذر تحقيق ما يحدث على الجانب الآخر من القمر ؛ أو هو كحلم أو خيال فرض فيه أنه يتساوى مع قوة الحقيقة . وهكذا ترى أن الحجة الفرويدية تصير مجرد سفسطة. ولقد حرصت على ذكر العبارات بعلامات الاقتباس حتى لا يرتاب القارىء ، ويظن فىّ سوء القصد فى اختراع هذه السيكولوجية « النشوئية » الفريدة التى نمت على هيئة مذهب من مذاهب العلم على أيدى أناس مدربين فى المجال العلمى ؛ وتقدم للجمهور كطعام يثير الشهية . وقد حاولت بدورى أن اخفف من غائلة حرمانه . وحتى هذا ليس منتهى هذه السلسلة العجيبة ، فلديهم أيضاً سيكلوجية انثروبولوجية نشأت بطريقة ذاتية فى الحقل الفرويدى .

ويقول فيرنزى Ferenczi « أن حياة نفوس أطفال اليوم لا تزال تسودها اللحظات العتيقة التى كانت غالبة على الحضارة البدائية » . ويؤيد هـــذا الادعاء المنطق الأعرج « نظرية التلخيص » التى انتهى تطبيقها فى هذا المجال من زمن طويل. ولا ريب أن التطور يترك آثاره ملخصة فى الاحياء ، كما أن

الرجعة إلى الأصل تحدث ، ولكن ليس بالطريقة المؤدية إلى تأييد مثل هذا التطبيق البعيد المـــدى . والمفروض فى هذا المجال، أن«لا شعور » الطفل يعيد تمثيل دوافع الناضجين التى تكونت لها — بفعل الصلات الاجتماعية التى قامت فى أزمان سحيقة — نظم وطقوس معقدة .

وتحريم مضاجعة المحارم (وهو موضوع اختلف علماء « الانثربولوجيا » فى أصله وأهميته)، يعد كدليل على أن هذا التحريم كان « يحدث بطريقة طبيعية عامة. وإذا كنا لا نعرف مصيرنا ، فهذا ناشيء عن أن « لا شعورنا » الذى يغلى كالمرجل من كبت حاجتنا إلى مضاجعة المحارم : هذا اللاشعور قد انتقل إلينا من أيام إنسان الكهف ووسائله . فعلم الانثروبولوجيا يوازيه علم طبقات الأرض ».

« أن شؤون التربية، وشؤون التحليل كليهما يجب أن تكررا فترة الكمون ، وتسيرا بها إلى ختام جديد ناجح (وقد تجرات ، واعتبرت هذه الفترة كمخلفات لأنواع الحرمان البدائى التى يحتمل أن ترجع إلى عهد العصر الجليدى) . وفى هذا التدبير يجب على

الطبيب أن يؤدى دور الأب العصرى أو البدائى على
حين يكون المريض فى حالة الاستعداد التى تتضمن
النكوص إلى عقلية الجماعة » .

وعلم طبقات الأرض يترك رواسبه التحليلية فى سمات خلقية « جليدية » . ولعل المرحلة التالية هى تفسير « برودة » الاناث بحجة مماثلة . والواقع أن وسائل العلماء تصير مخيفة وعجيبة عندما يكون لديهم ترخيص رسمى « للهلوسة » ، كما فعل « مكبث » حين توهم « أوهاما ضخمة قادمة » .

وهكذا فان أنواع الخيالات والمغالطات الفرويدية الصالحة للمناقشات الشعبية تواصل عملها ؛ فتجمع حولها سحب المجد والعظمة ، كلما هجرت المنطق العادى فى رغام الحقائق الأرضية . ويدخل فى هذا المضمار نوع آخر من بلبلة الافكار ، وهو ليس نشوئيا ، ولا عتيقا ، ولكنه حديث ، وسوفسطائى ، وهو الموضوع المذهل المحير القائل بأن المحظور ينبغى أن يكون مرغوبا فيه كل الرغبة ؛ وهو كغيره من الحجج الكثيرة ينطوى على حقيقة إذا ما طبق فى مجاله الصحيح ؛ ولكنه يتحول إلى سخف إذا عبر عنه فى غير سياقه السليم .

وهل نستدل من العقوبات القاسية التى نفرضها على جرائم قتل النفس بأننا جميعا فى صراع دائم ضد هذه النزوة ؟ وإنا قد

بدأنا كأطفال . وبنا دوافع القتل ، ونحن فى مهدنا ؟ وهل معنى هذا أن القتلة الفعليين قد حل بهم « التثبيت » فيما بعد مرحلة النمو « الاجتماعى » ، أو انهم أرتدوا اليه فيما بعد ؟ أو أن نقلب الحجة ونسأل : هل نستدل من عبارة « اكرم أباك وامك » على أنها تنطوى على دافع فطرى ، ولاشعورى عميق يدعو إلى الحط من شأنهما ؟ .

أن المذهل المحير فى كل هذه الخيالات المنطلقة المتحررة من قيود المنطق هو التجاهل المتعمد لمجالات الخبرة الواضحة التى تدخل فى تشكيل ما استرشدت به البشرية ، وما أهدرته ، من الوصايا العشر ، فما دونها . ويجب أن نذكر أيضا العامل الذى اكتسب الصبغة الاجتماعية فى مضمار المحرمات . فكثير من أوجه التحريم والحظر سواء أكانت نبيلة أم وضيعة ، وسواء أكانت منطقية أم غير منطقية ، فانها انتعشت ، واستمرت بحكم التقاليد ؛ وربما بحكم التحيز الشرعى . وهذه توحى بخلق مجال جديد لمزيد من بحوث التحليل النفسى .

ومن أمثلة ذلك مسألة تحريم الزواج من « اخت الزوجة المتوفاة » [1] التى اختلفت بشأنها الاراء ، وأثارت كثيرا من النزاع .

---

(١) كان القانون الانجليزى يحرم الزواج من أخت الزوجة بعد وفاتها إذ كان رجال الدين يعارضون فى الزواج من الأقرباء عن طريق النسب ، ويعدونه من المحرمات . وقد عدل هذا القانون فى عام ١٩٠٧ وأبيح الزواج من شقيقة

وهل يعنى هذا التحريم أن نفترض وجود رغبة ملحة عامة مكبوتة من الطفولة لمضاجعة المحارم المماثلة فى أخت الزوجة . . ومن الغريب أن هذه المسألة لا وجود لها إلا بين الأنجليز وحدهم . ولعل هذا أيضا بحث رائع من بحوث التحليل النفسى ! ؟ ولعلنا نذكر أيضا أن بعض القبائل القليلة الحظ من الاستنارة تكره الاخ على أن يضم إلى عائلته زوجة اخيه المتوفى وابنائه .

ولا ريب أن كل هذا من شأنه أن يثبت النظرية بشكل ما عن طريق قلب العلاقات والكليات المسموح بها فى أيراد الحجج الفرويدية . ولكيلا نترك هذه المسالة المغرية بدون اسم فاننا نطلق عليها لقب « عقدة ليا وراحيل »[1] ثم ننتظر من التحليل النفسى أن يؤكدها ؛ فبمثل هذا المنطق نستطيع بكل سهولة أنشاء تقويم كامل من العقد للخطاة . ونستطيع أيضا أن نكرر ما فعله أحد

الأخت المتوفاة بعد أن أثار عدة مشكلات وعرض على البرلمان أكثر من ٣٠ مرة . وبلغ من حدة المسألة أن وافق مجلس العموم على التعديل ، ولكن مجلس اللوردات رفضه فى عام ١٨٥٥ . وبلغ من حدة الخلاف أن القانون أباح لرجل الدين أن لا يعقد هذا الزواج ، ولكنه يسمح لرجل دين آخر بأن يعقده . وقد استمرت هذه المشكلة مجال خلاف بين الانجليز نحو قرن من الزمان .

(١) ليا وراحيل الشقيقتان اللتان تزوجهما يعقوب والد يوسف الصديق .
(المترجم)

أبطال الأساطير من أرتكاب جريمة تتل كل يوم فى اللاشعور ليرضي قضاء قديما قدر عليه.ولعله من المغريات الاكثر طلاوة أن نكتب وصايا عشرا على لسان موسى وفرويد ونبدأها بقولنا « لاتشته أمك ، ولا تقتل أباك إلا فى اللاشعور حيث أيامك معدودة » ؛ ثم نختم الحوار حيث لا نعرف ! ؟

ويظهر كأن الشعار المكتوب على البيت الفرويدى هو « أهجروا كل منطق يامن تدخلون هنا » ، ومع ذلك فإن أوديب هو حجر الزاوية فى العقد : « فسائر نتائج نظريات التحليل النفسى تتجمع حول هذه العقدة ، وعلى صحة هذا الاكتشاف يتوقف قيام التحليل النفسى أو أنهياره » . وهذا ما يقوله « أرنست جونز » اكثر رسل فرويد شهرة فى بريطانيا ، فإن كان الأمر كذلك ، فان الصرح العظيم يتحول إلى كومة يرثى لها من الركام ، لأنه بنى على الرمال ؛ فإن عقدة أوديب تكشف عن خيال مريض حل به العطب نتيجة لا ستنشاقه لنسائم مسممة بالمنطق المختمر .

وفى رأيى أن الجزء القويم من نظرية الجنسية النفسية اكثر أستقرارا بدون أفتراض أن عقدة أوديب مرحلة عامة فى النمو النشوئى ؛ وهو ذلك الافتراض الذى مبرر له . ولا يوجد أنسان يعترض على أن النمو نفسى جنسى ، بمعنى صحيح هام . وإذا كان لتحليل النفسى يريد الاسهام بأى نصيب أصيل ، فعليه ان ينبذ

الاساطير النفسية . وفى وقت ما انطلقت الهلوسة الرزينة لتعتبر كحقائق ما يظهر كأنه متفق مع النظرية الاساسية . واقبلت تصوغ عشرات المسائل كمبادىء وتعاليم توصلت إليها فى عيادة التحليل النفسى : وهى مسائل تخرجها كل سنة مصانع التحليل النفسى. ومع أنها صانع لا تعمل فى بطء فان تخرج ما تخرج فى ثوب دقيق كل الدقة.

الشخصية ذات الصبغة الجنسية :

من الجائز أن تكون رحلتنا فى مملكة « أوديب » قد أوحت إلينا فى وقت من الاوقات برحلة سائح يقوم بتنقلات سيكولوجية بين أناس عجيبين فى طبائعهم ، غريبين فى تصرفاتهم . ويقوى هذا الايحاء إذا ما أدخلنا فى حسابنا مصادر السمات الخلقية لانواع من المخلوقات الغريبة الساكنة فى عالم فرويد ، فمن المفروض علينا أن نرى فيها نسخا مطابقة لصورنا التى نحن عليها . ومفتاح تحليل الخلق على الطريقة الفرويدية يقبع فى غير تبصر فى إبناء الطبيعة للجسم وتشريحه .

ويظهر هذا المفتاح بجلاء فيما يسميه رجال الطب بالجهاز « التناسلى البولى » Genito Urinary ؛ فقد اكتشف فرويد مرحلة تناسلية بولية فى الطفولة ؛ وهى تتوسع ، وتصير مهمة « إخراجية » عامة . ويخرج هذا « الاكتشاف » من الصندوق السحرى للتحليل فتؤيده خيالات من خيالات الطفولة ؛ ويظهر فى أهتماماتها

وأنواع المحرمات التى تمتد من التناسليات إلى البوليات عن طريق توزيع أجهزة الجسم ونظام تشريحه . وتمتد أيضاً عن طريق القرابة الفسيولوجية إلى الوظائف الاخراجية .

وهم يزعمون أن الاحساس المثير للذة والاهتمام يجذبان الطفل إليهما . ويجد هذا الاهتمام ما يقويه ويدعمه فيما يصحب عملية « الاخراج » من سرية ، وانفراد الشخص بنفسه . وفيما يبذل من تأكيد بوجوب ضبط امورها ،والسيطرة عليها . والذهاب إلى المرحاض أو الحمام أمر شرعى له أهميته لصغار الاطفال ؛ ومن العسير أن نقول أنها القدس الداخلى للحياة النفسية فى أى طفل سوىّ : فإذا أدعينا أنها تؤثر على مستقبله لدرجة عظيمة ، حتى أنها تشكل أخلاقه ، فاننا ، فى الواقع ، نشط إلى مدى بعيد حتى نصل إلى هذه النتيجة . ولو ظهرت هذه الفكرة بطريقة شعبية ، أو كمعتقد عند مربية ، لا عتبرت نوعا من الخزعبلات الغريبة ؛ أما ظهورها فى كتاب فرويد ، فيجعلها رسالة علمية !

واستهلال القصة يقوم على أساس وطيد ؛ فالكتاب الأول — التكوين — من كتب هذا النمو يتفق اتفاقا تاما مع علم النفس النشوئى : وأول المراكز المثيرة للاهتمام الفعال هو الفم . والحياة النفسية ذات السمة الفمية أصيلة فى مستوى الطفل كالغدة « السعترية Thymus أو اليافوخ Fontanel . فالفم بحكم اسبقيته

فى مجال الحس . وباعتباره المنفذ إلى داخل الجسم يصير مركز الإدراك ؛ وهو فى ذلك يسبق اليد . واللذة هى شرك الطبيعة المغرى فى عالم الحس ، فهى كالشهد بالنسبة إلى النحل . وإذا ما سمينا نتيجة مدى الاهتمام وما يصحبه من أحساسات « شبقاً فميا » بدل أن نسميه « باللذة الفمية » ، فهنا تبرز أولى خطوات الخطأ الفرويدى ؛ والزلة الأولى فى المنطق تنذر ، بالنتائج الخطرة كل الخطر .

ويتفق أيضاً مع المبادىء النشوئية ، أستمرار هذه المناطق الأولية للذة الفمية ، وتطورها ، وعندما يقع الشبان السويون العاديون فى الحب ، فانهم لا يعودون إلى مص أصابعهم ؛ وإذا أنتعش الدافع الشهوى ، فانه يستخدم المجال المبكر للذة ، ويزج بالشفاه فى الوسائل الشهوانية ، ولكن بطريقة ناضجة . وتمر مراحل كثيرة من سيكولوجية الشفاه عند الطفل ، وعند الشاب ؛ وهى مراحل شائعة معروفة . ولا يستطيع تجاهلها إلا رجل عالم مغرض يتناسى كل شىء فى سبيل تحقيق هدفه . ويظهر أن الفرويديين نسوا أن الشفاه تستخدم فى عدة أغراض غير جنسية . وبحكم الافتراض القائل بأن كل شىء هو الجنس وأن الجنس هو كل شىء ، فانه ينشأ لدينا علم نفس نشوئى شامل ، وعلم أخلاق . ويؤسفنى أن أثقل على القارىء وأعرض عليه بعض سبل الفرويديين .

والخبير فى «الخلق الفمى» هو إبراهام Abraham وقد اكتشف « مرحلتين فرعيتين طفليتين فى منطقة الفم : والأولى فى الشفاة . والثانية فى اللثة والإسنان . فإذا كان « الأنت » الذى لم يفطم بعد قد أصابك التثبيت فى مرحلة الرضاعة ، أو انغمر بشدة فيها ، فإن تأثير هذه « اللذة فى الأخذ » ينمو إلى نمط عام من حيث « الأخذ » ، حتى إذا ما نضجت صرت شخصية متفائلة . أما إذا كان « الأنت » الذى لم يفطم بعد يغالى فى انهماكه ، فإنك تنمو كشخصية «خلية البال» عديمة الاهتمام بما يجرى حولها ، ومنعدمة النشاط . ومن الجائز ان لا تبذل أى جهد حتى لكسب رزقك . والاتجاه العام عند أمثال هؤلاء الاشخاص هو انتظار شخص عطوف يمثل الأم ليغدق عليهم النعم إلى الأبد . ويحدث الكرم عادة عن طريق تقمص مكان الأم السخية» (هيلى،نقلا عن إبراهام).

وإذا كان « الأنت » غير الفطيم يخفق فى الظفر « بارضاء رغباته فى فترة الرضاعة » ، فإن هذه الخيبة الطفلية يحتمل أن تؤدى فيما بعد إلى المطالبة بالمركز الاجتماعى (متواضعا كان أو مزاحما) ، كما تؤدى

إلى الميل إلى التعلق بالآخرين ، وكراهية الوحدة . وسرعة نفاد الصبر من السمات البارزة فى هذا الطراز من الناس . وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه الشخص المتشائم الذى يصل بكل شىء إلى أدنى درجات السوء ، ويجد الصعوبات فى كل مكان . أما أولئك الذين يخفقون فى الظفر بالإرضاء الملائم للرغبة «الفمية» ، فإنهم « من الجائز أن يسايروا الناس شفويا عن طريق الفم » . وهذا يؤدى إلى وجود دافع ملح عنيد لكثرة الكلام ، وفرض قيمة كبيرة لكل ما يقولون ، فكثرة الكلام ، فضلا عن التشاؤم ، والغرور ، تنشأ عن رضاعة ناقصة غير كافية .

ومرحلة العض ، وهى الثانية فى الشهوة الفمية ، « تخلف آثارها المحددة فى الشخصية فيما بعد » ، وتنبى عن سيكولوجية مقابلة لسيكولوجية اللثة والإسنان عند الشبان . وهذا الطراز من اهتمامات الطفولة ، ينبى عن التصرفات العدائية ، وحالات الكره ، والنمو الشاذ للحسد . وكل مسلك الفرد ، من اختياره لمهنته إلى هواياته ، يحتمل أن يجد « جذوره فى الشهوة الفمية » . وفى اللغة الانجليزية تطلق لفظة الرضيع

(Sucker) على أصحاب المناصب العامة ، وإنهم « رضع متشبثون » . أما كيفية تعليل حالتهم الشهوية فى مرحلة الطفولة ، فمسألة لم تعين بعد .

وهـذه الاشتقاقات والاستنباطات مذهلة عجيبة ؛ وسبق أن خدعت « جال » (Gall) من أكثر من قرن من الزمان ، فقرأ سمات مماثلة فى تضاريس الجمجمة ! . . الواقع أن الأرض تدور ومعها يدور العلم .

وعندما يناقش طبيب يحمل أجازة الدكتوراه فى الطب مثل هذه الفروض المضحكة فى رسالة مؤلفة من ١٤ صفحة من الرطانة العلمية ، ويملأها بفروض مثيرة للسخرية ،ومما يعد أموراً صبيانية حتى ولو كانت مجرد مزاح ، عندئذ يجوز للإنسان أن يقذف بالحزم والفطنة فى الهواء لتذروها الرياح . وإنه لمن الاصوب أن نصف مالا معنى له بنعته الفعلى ، فنصرح بأنه هراء مثلما نسمى الأعور أعور ؛ فمجال الاختيار ضيق بين قراءة الخلق بطريقة متعالمة مزهوة ، وبين التخمينات اللبقة « والنبوات » المندفعة من فم نورية من قارئات البخت ، أو بين تلك التصريحات الخرافية التى يطلقها منجم مخبول فى نشوته . وما انطوت عليه تلك التعاليم يجعل مهنة الجهلاء أفضل ، لأنهم قـــد لا يعرفون

ما يفعلون ، أو يعرفونه ، ولكنهم يستغلون البسطاء والجهلاء .

وليس هذا كل شيء ، وسنقدم إليك ما هو أشنع ، فالكتاب الثانى فى علم نفس الخلق الفرويدى هو « الخروج » . وقد وقف سفر « التكوين » أو نشوء سمات الخلق عند المدخل ؛ وجاءت المرحلة الثانية عند مخرج القنوات الغذائية ؛ فى النمو النفسى الجنسى ينتقل الاهتمام من إجراءات الفم إلى إجراءات الشرج ؛ والتفسير واحد ، أما الاصطناع فأكثر تعقيداً ، ولعله يكفى للاقناع أن نسرد النتائج .

والثالوث الأكبر الفرويدى لخلق الشرج يتألف من (ا) النظام (نظافة الجسم ، والاستيثاق ، وتوفر مراعاة الضمير فى أداء الواجبات الصغيرة) فإن كانت من نوع متطرف ، فهى حذلقة ، وإدعاء علم . (ب) البخل االذى يجوز أن يتحول إلى شح . (حـ) العناد ومن الجائز أن يتحول إلى تحد ، ويحتمل أن ينطوى على سرعة الغضب والحقد . وهذه الصفات الثلاث للشخصية توجـــد معا بانتظام ، وتؤلف الصفتان الاخيرتان عنصراً ثابتا .

وإذا كانت شهوة الشرج قوية فى طفل ، فإنه يظفر بلذة كبرى من الشهوة الذاتية والنرجسية فى

أثناء عمليات إخراج الفضلات ؛ وهو يتأثر تأثيراً شديداً بضروب الحرمان التى تصحب تدريب العضلة العاصرة ، وأنواع المحرمات التى تفرض لمنعه عن الأعراب عن الاهتمام بشهوته الشرجية . ويوجد نوعان من تكوين الخلق الشرجى ؛ وهما يستمدان — بالترتيب — من اللذة فى العملية ،واللذة فى الفضلات « ولون سمات الشخصية فى المستقبل يتقرر فى الغالب تبعا لنوع الاهتمام الأصلى الذى يسود » .

لم يوضح فرويد عمليات التطور الحيوية البيولوجية التى تؤدى إلى نمو الصفات المخية على أساس أجهزة التخلص من الفضلات فى عمليات الاحتراق الغذائى !

ومن السمات البارزة فى العلاقات الموضوعية التى ظهرت فى خلق الشرج ، ميل « الانا » العام إلى الاحتكار والملكية ؛ ومن الميسور رد هذا الميل إلى النشوة النفسية الأصلية فى عملية حبس البراز . وغالباً مايعبر الحب الشرجى عن نفسه بمنح الهدايا، ويفضلها على أظهار الود للمحبوب . ومن الجائز أن ينفذ هذا التعبير فى العلاقات الاجتماعية بوجه عام ،

فيتخذ فى الغالب مظهر تقديم الهبات والحسنات ومناصرة الناس . وتظهر أثرة الحب الشرجي بوضوح فى هواة جمع الأشياء . وهذه الأشياء ترتبط بالبراز، «فلذة الإنسان فى النظر إلى مبتكراته العقلية ، وفى الرسائل ، والمخطوطات . وفيما ينجزه من أعمال شتى، نجد نموذجها الأول فى « نظر الإنسان إلى برازه » .

ولا يمكن فهم البخل كسمة للشهوة الشرجية إلا إذا أدخلنا فى حسابنا عملية الرمزية : فإن أعتبار البراز ، والهدايا ، والنقود، شيئاواحدا عند«اللاشعور» يؤثر على كثير من العلاقات الاجتماعية الخاصة بالنقود فيما بعد . والاهتمام بامر النقود يلعب دورا فى الخلق الشرجى ، وقد اجتذب إليه « الاهتمام النفسى الذى كان فى الأصل خاصا... بمنتجات منطقة الشرج» ومن مميزات الرجل « الشرجى » كرهه للفضلات ، وبذل الجهد فى الاستفادة منها ، وابتكار الأجهزة الموفرة للوقت ، وأداء عملين فى وقت واحد . ولزيادة الاحتياطات العملية ، فإنه يتعرض لنسيان الديون الصغيرة . فالشخص المحافظ «شرجى» والحر «فمى» .

ويلعب الأعلاء دورا كبيرا فى العناية باهتمامات الطفولة البرازية ودوافعها التى تعد بالطبع من المحرمات على الكبار بنوع خاص . ويسود الاعتقاد بأن الاهتمامات المتأخرة بفنون الرسم ، والنحت ، والطهى ، وتشكيل المعادن ، والنجارة ؛ يمكن تتبعها إلى اللذة البرازية القابعة فى عمليتى التلطيخ والتشكيل . وعلى هذا الأساس ، فإن أختيار المهنة والعمل يعتمد فى الغالب على عملية إعلاء الاهتمامات الشرجية .

والفرد الاجتماعى اللامع الذى ظفر بارضاء رغبته فى المرحلة الفمية المبكرة يناقضه الشخص العدائى الحقود الذى يمكن تعقب سماته فى هذا الصدد إلى مرحلة العض ، ويتناقض الاجتماعى أيضا مع الفرد المكتئب الحاد الطبع المحب للوحدة ، والكتوم الذى استمد سماته من المرحلة الشرجية .

هذه الاقتباسات ليست منقولة من نسخة غير منقحة لكتاب « صدق أولا تصدق » ولكنها منقولة من المجموعة العلمية الرشيدة لتعاليم فرويد التى نسقها وجمعها « هيلى وبرونر وبورز» ، ولا ريب

أن علم الصرف مسئول ، ويجب توجيه اللوم اليه لدعابته المسيخة الحديمة الطعم لأن تركيب اللفظة اللاتينية للتحليل النفسي تضمنت لفظة الشرج أيضاً ، وهي Psycho - anal - yses [1] (لفظة anal معناها شرج) ومن اللآلىء الثمينة التي لا تقدر بثمن والتي تصرخ مطالبة بسردها ، مسألة « تأليف شخصية القناة البولية » التي تظهر كانتاج فرعي لمرحلة الشرج .

ويظهر أن ما اكتشف من السمات المعينة المستمدة من شهوة القناة البولية قليل جدا . ويتحدث فرويد عن الطموح « المتوقد » الذي ظهر أنه شديد الصلة بتبول الأطفال . ويدعى هيتشمان Hitchman أن الطموح ، والميل إلى اللعب ، أو الأشتغال بالماء ، كالمبالغة في الاستحمام ، والغسل ، قد أشتقت من شهوة القناة البولية .

ويذكر « جلوفر » Glover أن الطموح ، والحسد ، ونفاد الصبر ، من أصل قنوى بولى . أما « أبراهام » فيرى أن الطموح يستمد من الشهوة الفمية . ويقول

---

(١) Psychoanalyses لغويا : تتألف من Psyche ومعناها نفسي و Analysis ومعناها تحليل ولكن سخرية المؤلف جعلته يقسمها إلى ثلاثة مقاطع (المترجم)

أنه يزداد قوة بفعل دوافع القناة البولية . ويروى فينك Fink حالة لاعب كرة كان قذفه للكرة يشعره بنفس اللذة الكبيرة التى سبق أن أحس بها فى صغره عند التبول .

ويقول « فيرنزى » « أن رجلا مهذبا كان يذكر جيدا ضعف مثانته ، وقد صار بعدئذ من رجال المطافئ المتطوعين والمحبين لهوايتهم . وهذا لا يدهشنا كثيرا بعد ما ذكره ، أما عمله بعد أن شب ، ونما ، فلا يزال « مشروطا » بحالة طفولته ، لأنه عندما تحول إلى مضمار الطب كان من الاخصائيين فى المجارى البولية .

وهذا الفصل المبتكر حقا فى علم الخلق يوحى ، بانه لو ان مريضا بالبرنويا من المرضى اليقظين المبتكرين الذين يؤلفون صفوة نزلاء مستشفيات المجانين ، دفعته تأملاته المريضة لتأليف نظرية تقول بأن سمات الخلق كالعناد ، والتمرد ، والبخل ، والادعاء ، وغيرها من السمات التى ذكرت ، إنما هى نتيجة لتردد ظاهر فى إخراج البراز ، ويصحبه ميل إلى الامساك ، لو ان هذا حدث لأنشأ الابتكار فصلا هاما جديدا أسمه « بارانويا الشرج » ليضاف إلى سجلات الامراض النفسية الحافلة . والعينة الفرويدية ،

إنما هى برنويا مصطنعة عن عمد ; وهى الجنون المنطق للعقلية الاكاديمية . ولعله من الضرورى فى المستقبل أن نصنف الناس فى ثلاث مراتب هى العاقل ، والمجنون ، والفرويدى .

عرفنا الان كيف يتألف جزء من الخلق فى غرفة الأطفال ; بينما يتألف الجزء الأكثر تأثيرا فى الخدمات المنحطة الخاصة بالمرحاض. والباحث الفرويدى فى نفسية الطفل يتتبع حب الطفولة فى مجراه المضطرب من الفم إلى الأعضاء التناسلية ; وهو يرى سمات الشاب حتى لو كانت معقدة كالادعاء ، والتحرر ، كنتاج لعمليات البنية الجسمانية التى تؤدى فى الحياه الخاصة . وهذا الفصل الدخيل يسميه « فيرنزى » « ما وراء علم نفس العادة » . ولا ريب أن مثل هـذا الاشتقاق لا مكان له فى أى أنواع علم النفس التى عرفها أبناء البشر العاقلين حتى الآن .

وللتحول إلى المرحلة التناسلية سيكولوجيته الخاصة وما يتفرع عنها .

ويقول جونز Jones أن شهوة الشرج تظهر فى « الميل إلى الانشغال بالجانب المقلوب للاشياء ، وبالمواقف المختلفة . ومن الجائز ظهور هـذا الميل بوسائل شتى ، ومثال ذلك ما تثيره فينا الناحية العكسية

من فضول واضح ؛ فنريد معرفة ظهور الاشياء ، والاماكن : ونرغب فى السكنى على الجانب الآخر للتل لانه يعطى ظهره لمكان معين . ومن هذه الامثلة أيضاً الميل إلى أرتكاب عدة أخطاء فيما يختص باليمين واليسار . والشرق والغرب ; وكذلك قلب الكلمات والرسائل فى الكتابة وغيرها ، ويضيف ابراهام قوله « ولا ريب أن أزاحة اللبيد من المنطقة التناسلية إلى المنطقة الشرجية هو الأصل فى كل هذه الانقلابات» .

ونصل بسلام كثير أو قليل ، إلى المرحلة التناسلية عند البلوغ وهى على أية حال يكون ذلك مصحوبا بإحياء المرحلة التناسلية الأولية للطفولة (الخاصة بعضو التناسل ، وعندئذ يستعيد اللبيد سيادته ، وتصير القاعدة الموجهة تناسلية كما أعلن « فيرنزى » فى خيلاء وزهو ؛ ومن ثم يتحرف علم النفس « النشوئى » إلى مركز تناسلى ، وعندئذ يظهر مورد « جنسى » آخر لسمات الشخصية . وهو ليس الموقف الأوديبى وحده، بل أنواع أخرى للانحرافات الجنسية تهدد ، وتصبغ نضج الذات التى صارت جنسية إلى الأبد. وفى هذا المضمار تشترك النرجسية (عشق النفس) ، والسادية (اكتمال اللذة بايلام الغير) ، والمازوكية (اكتمال اللذه بالتالم) كل هذه تشترك مع الاوديبية فى تشكيل الإنسان الفرويدى .

«والنرجسية» لفظ مفيد . ولكن الفرويديين زودوه بعلامات توحي بإهانة علمية دقيقة . وللاعجاب بالنفس مضمار فسيح عامر يتضمن لذة الفرد من عرضه لمفاتنه الشخصية ، ومقتنياته وأعماله؛ ومن زهو الطفولة إلى تملق الجماهير . والاعجاب بالنفس يمتد من الذات الشخصية الحميمة إلى « الإنا » الاجتماعي المهني والمكتسب . والتنافس الجنسي هو أحد أوجه التنافس الاجتماعي وهذه السمة تتضمن تأكيد هـــذا الوضع الذي يجوز أن يسود حقا .

وإلى هذا المدى ، والاتفاق مع الفرويدية عادل ؛ أما المثير للنزاع في طريقة التطبيق والتشخيص ، فهو فرض الطابع الجنسي على كل وجه من وجوه السمات لأنها تحتوي على مقوم جنسي . ومن ثم تنصهر جميع الوجوه في الأصل الجنسي وتتسم بطابعه . وهذه سيكولوجية خاطئة ، فالنرجسية لفظ أكثر فائدة إذا ما اقتصر على اتجاهه المحدود وتأكيده . وينطبق التعقيب والتصحيح بطريقة أقوى على السادية .

ومن تحريف المنطق القول بأن كل انحراف جنسي فطري ، وإنه يتمثل في جملة الحياة الجنسية . ومن عوامل الفوضى «الفشوئية» أن نجعل كل أنواع القسوة مستمدة من سادية فطرية ، فنطوي في

هذا المضمار عملية جذب الطفل لجناح حشرة،وأنواع المشاكسات والمعاكسات،ونعتبره كقسوة عامل وغلظته نحو المرضى أو المسجونين. ويظهر هذا الاتجاه الذى لا مبرر له أيضا فى المازوخية أو اكتمال اللذة بالتألم ؛ ومن الجائز أن تتحول سمتها إلى عقدة « الاستشهاد». وتعميم أنواع التطرف الجنسى لا تخدم أى غرض نافع ؛ ولكنها تنزل أقصى أنواع الارتباك وبلبلة الأفكار بسيكولوجية الانفعالات النفسية . والمغالطة الكامنة هنا مستقرة ، لأن لفظتى سادية ومازوخية غير مألوفتين ، ومن ثم فهما تحملان قوة الشيء المبهم ، والاكتشاف العميق ، وما يجرى من ادعاء .

واصل هاتين الكلمتين هو أن المركيز أو الكونت « دى ساد » (١٧٤٠) (١٨١٥) عاش حياة مضطربة ؛ وقد أتهم باستخدام السم ، وارتكاب عدة اعتداءات غير طبيعية ، وكان ضحية انحراف جنسى مصحوب باللذة عن طريق استخدام القسوة الجسمانية مع موضوعات عشقه . وبينما كان سجينا فى «الباستيل» كتب مجموعة قصص بذيئة ، وارسل منها نسخة إلى نابليون بونابرت . وقد نقل إلى مستشفى الأمراض العقلية ، ثم اطلق سراحه ، ثم اعتقل ثانية ، وأعيد إلى السجن باعتباره ممن لا يرجى شفاؤهم ، وأمضى

الاحدى عشرة سنة الاخيرة من عمره فى سجن « شارنتون » . وقد ظفرت رذيلته (أو ظفر جنونه) بتمييزها باصطلاح علمى هو إسمه .

وكان « زاخر مازوخ » Zacher Masoch كاتبا صغيراً ، تناولت كتاباته الحياة فى «جاليقيا» وتضمنت حكايات عن شهوة النساء وظفرهن باللذة عن طريق استعمال القسوة معهن فى أثناء العملية الجنسية . وهذه ولا ريب سمة سقيمة نقلت أوصافها من مجال العلم باطلاق إسمه على نوع الرذائل التى سجلها .

وتصير المغالطة أكثر وضوحا عندما تطبق على انحراف أكثر شيوعا هو الجنسية المثلية (اللواط أو السحاق) وكل إنسان يعرف أنها شذوذ ، ولكنها لا تتخذ هذا الوضع فى النظرية الجنسية الفرويدية ؛ فهى تفرض أن هذه الجنسية المثلية اتجاه شائع فى كل النـاس ، وإنه لا مفر من كبته ، والشبوب عن طوقه ، أو تحويله ، وتحليله ؛ وهى تفرض أيضا أن اللبيد يحتوى على عنصر جنسى مثلى ، وهو فرض غير نشوئى ، كما هو منحة ، تبرع به فرويد ؛ فاللبيد يُفرع اتجاهات وميولا كما لو كان المحلل واقفا خلف كل منظر ليدبر حبكة المأساة البشرية . ويتبع ذلك أن عصابات الاولاد ، وأندية الرجال ، ومجتمعات

الفتيات . ومؤسسات السيدات ،كل هذا يضم اتجاهات لواط أو سحاق متسترة : أما كيف حدد التطبيق ، ولم يشمل كل هذا النطاق الواسع . فيرجع إلى الرقابة التى تفرض على الفهم العام ، والذوق السليم .

وبالمنطق ذاته صارت كل مودة ابن لامه تنطوى على مضاجعة المحارم : وكل محبة شهوانية ، وكل قسوة صارت سادية . وكل اغتباط بالالم مازوخيـــة . وبهذا المنطق صارت كل الاجتماعات القاصرة على الرجال . أو الأندية الخاصة بالنساء ، لواطا أو سحاقا . ولو كنامن الفرويديين المتشبثين لاعتبرنا كل جامعات العالم الخاصة بالبنين كليات « لواطية » رغم أن هذا الوصف لم يذكر بعد فى الـكتالوجات . ولو كنا فرويديين حقاً لاستبدلنا كلمة التعليم المختلط الذى يضم الجنسيين ، باللفظة الفرويدية الأكثر ملاءمة وهى « الجنسية المختلفة » Heterosexual

وتظهر النتائج الخطيرة التى ترتبت على الخطوة الأصلية فى تطبيقها فيما يلىمن مسائل ، وهى : رؤية سمات النضج فى الطفولة ؛ استخلاص سمات النضج من إحداث الطفولة المصبوغة بالطابع الجنسى ؛ وجعل عنصر الجنس غالبا فى كل ما يدخله من انفعالات وعلاقات . وتبعا لهذا فهم يؤكدون لنا أن اختيار مهنة ما يتقرر

من ناحية بالافراط فى العلاقات الحبيبة ؛ أو نواع التثبيت فى المراحل الشرجية ، والفمية ، والقنوية البولية ؛ وبالسمات الجنسية المبكرة ؛ ومن ناحية أخرى تتساوى فى هذا المضمار أيضاً دوافع السادية ، والمزوخية ، والنرجسية . فالجنود ، والحلاقون ، والجزارون والجراحون والخياطون أيضاً يجدون منافذ لسماتهم السادية فى عمليات التقطيع ، وتناول الأسلحة المختلفة . وبفعل هذه القوى نفسها نصل إلى النتيجة القائلة بأن أبناء أولئك « القطاعين » يتعرضون للإصابة بأمراض العصاب التى تعد « مبالغة ضخمة للخوف من الخصاء » . فالزلة الابتدائية أفسدت الصورة العامة كلها ، وجعلت تلك الأوجه فى التحليل النفسى مجرد صورة مشوهة سخيفة .

والشخصية المصبوغة بالصبغة الجنسية ، تصبغ بسمات تناسلية بنفس الخطأ الذى أساء كل الإساءة إلى مدرك اللبيد ؛ وبسلوك هذا الطريق اكتشف فيرنزى « عقدة كورنيليا » Cornelia Complex وقال أنه عندما أشارت أم جراكشى Gracchi إلى ولديها ، وقالت إنهما جوهرتيها ، فإن لاشعورها كان يعرض اغراءها الجنسى .

وهكذا فإن الفرويدى البارع يطبع كل عمل ، وكل شىء بالطابع الجنسى ؛ ويجد باعثا مشينا لكل شىء واضح فى أعمال

اليوم العادية : فيجد أحداثا . وتصرفات جنسية فى وقفة لاعب الجولف ، واوضاع قدميه ، وكيف يتناول مضربه . وهو يفحص عن براعة ، وعلم ، إن كان التدخين فميا ، لاننا نمسك السيجارة بفمنا ، أو أنه شرجى لأن السيجارة تخلف رمادا ، أو أنه تناسلى بسبب شكل السيجارة . وهو يهبط بكل الاهتمامات الخاصة . ويجعلها فروعا للاعمال الجنسية ، ومشتقاتها ؛ فالرغبة فى المعرفة ليست إلا نوعا مقلوبا من التطلع إلى معرفة المزيد من النواحى الجنسية ؛ والاهتمام بالحركة سواء أكان ايجابيا أم سلبيا ، وسواء أكان توافقيا أم نشازا ، إنما هو مستمد من الدائرة الجنسية . وممارسة الرياضة ، والفن ، واختيار المهنة ، والهوايات ، وأنواع المعتقدات ، سياسية كانت أو دينية أو خرافية ، وكذلك أنواع المخاوف ، والخجل ، والكره ، والعلاقات ، كل هذا أنما هو إنتاج فرعى لنشاط جنسى أولى .

كل هذا يوضح ما سبق أن قلته عن عملية الاختزال والتبسيط ؛ و(خطأ) سيكولوجية « ليس إلا » . وكل هذه الاتجاهات ، واوجه النشاط الفرعية سواء أكانت تافهة أم جدية هامة ، فانها حللت على أنها « ليس إلا » أعمالا جنسية عدلت ، وتسترت . وإذا كانت هذه هى فكرة الفرويدية عن الاعلاء فإنهم قد جعلوها لفظة سيئة ، وجردوها من كل فضائلها . فالاعلاء الصحيح هو جعل

الحياة النفسية ثرية بإحاطة الدوافع بأعمال حياة مهذبة . وهـذا فصل آخر فى القصة التى كان يجب على فرويد أن يسردها .

ولـكى أوضح عملية الاختزال وأبسطها ، وكيف كانت موضع عناية جدية ، فإنى أذكر بحثا للمرحوم الدكتور «كارل إبراهام» الزعيم السابق لحركة التحليل النفسى فى ألمانيا . والموضوع يتألف من ٦٥ صفحة عن « قيود وتحولات السكبتوفيلية (لذة مشاهدة العراة) فى العصابيين النفسيين مع ملاحظات عن ظواهر مماثلة فى السيكولوجية الشعبية[١] » .

« والسكبتوفيليا » أو لذة مشاهدة العراة رطانة طبية كلاسيكية بشأن الرغبة واللذة الشديدتين الناشئتين عن الرؤية ، وهى فى التحليل النفسى تشير إلى التلذذ بمشاهدة المناطق الشهوانية ؛ ويعبر عنها أهل بلاد الغال بلفظة Voyeurism كما يعبر عنها الانجلو سكسون فى أحاديثهم بعبارة (Peeping Tom) . وعندما يوجه هذا التطلع أو الفضول إلى أى شيء آخر مهما كان بعيداً ، فإنه يقال إن هـذه اللذة الجنسية الأصلية

---

(١) (Restrictions and Transformations of Scoptophilia in Psycho-Neurosis, with Remarks on Analogous Phenomena in Folk-Psychology)

تحولت ، ونقلت من مكانها ؛ فإن باعث الشكل الأعلى للفحص ينخفض ويصير باعثا أوليا . وهكذا فإن الكيميائيين ، والجيولوجيين ، والفلاسفة يعدون متطلعين متحولين .

ولكى يتيسر للقارئ أن يتتبع مجرى هذه الاشتقاقات « العلمية » ، فإنى أذكرها بالتفصيل ، من وجهة نظر التحليل النفسى :

« إن أكبر شيء أثار اهتمامه فى الكيمياء ، هو حالة التكوين أو التفاعل (Status Nascendi) : وإذا ما فحصناها بدقة ، فإنه يظهر أن اللحظة التى تألفت فيها مادة ، أو التى اتحدت فيها مادتان لتؤلفا أخرى جديدة ، قد جذبته بطريقة إيجابية ؛ فإن اهتمامه بعملية الإنتاج (اتحاد مادتين لتأليف أخرى جديدة) ، والولادة (حالة التكوين أو التفاعل) ، قد انتقل إلى الاهتمام بالمشكلات العلمية بطريقة ناجحة . وعن طريق لاشعوره ، اكتشف فى كل علم المشكلة الأكثر ملاءمة لتقديم ما يمثل اهتمامات طفولته بشكل مقنع .

أما مجال « علم الحفريات » (Palaeontology) فقدم مثلا مفيداً بارعاً بشأن هذا الميل الإعلانى ؛ فالحقبة الجيولوجية المعروفة باسم « البيلوسين » (Pliocene) ، والتى ظهر فيها الإنسان لأول مرة ، فإنها زادت من اهتمامه بنوع خاص ؛ فإن السؤال المعهود الذى يسأله الطفل بشأن أصله قد حل به الإعلاء ، وتحول إلى اهتمام عام بشأن أصل النوع البشرى » .

« ونحن مدينون لـ « فون ونتر شتاين » (Von Winterstein) ببعض الملاحظات الرائعة عن البواعث اللاشعورية فى التفكير الفلسفى ؛ فى رأيه أن الفيلسوف يريد منا أن نرى آراءه هو ، فإن لبيده لم يعد موجهاً إلى الغاية المحظورة (مضاجعة المحارم) ، ولم يعد متجهاً إلى مايجب أن لايراه أحد ، بل إلى ذلك الذى لا يستطيع أحد رؤيته ؛ وهو فى الوقت نفسه يعود على « الأنا » بطريقة لا نستطيع تفسيرها إلا على أنها ردة إلى موقف النرجسية الطفلى .

هذه هى تشعبات النمو النفسى الجنسى فى الإنسان الفرويدى .

ولا ريب فى أنه يوجد نمو نفسى جنسى فى النوع البشرى ، وأنه بالغ الأهمية فى تشكيل النفس ، وإن له الأهمية نفسها بالنسبة لعملية الحياة فى مجموعها ؛ ولاستكمال الاعتراف بهذه الحقائق ، وأهميتها ، سيظل العالم دائماً مديناً لعبقرية سيجموند فرويد . وفى رأيى إن هذا الاعتراف قائم رغم ما قوبل به البرنامج الجنسى من رفض يكاد يكون تاماً ؛ فإن النمو النفسى الجنسى الحقيقى ، كما فسره علم النفس ، يخالف ما قال به فرويد ؛ وهو يتركز فى مدرك الأعلاء الذى ميزه فرويد فى حينه ، ثم نسيه تقريباً ، إذ عمل على تضخيم الناحية الجنسية وإهمال النفسية ؛ فإن لم يكن هذا ما حدث بالضبط ، فإنه أذاب الناحية النفسية فى الجنسية ؛ وصبغ النفس بطابع جنسى . وكان مجراه الفعلى هو إشباع الحياة الجنسية بالقيم النفسية . وهذا العمل يؤلف نواة القصة الحقيقية للبيد ، وسيكتبها نفسيون تحرروا من عقدة فرويد القائلة بأن الجنس هو كل شىء .

الباب الثامن

طرق التحليل النفسى

تعودنا أن نستخدم عبارة « التحليل النفسى » كلفظ عام يشمل كل البناء الفرويدى ، فيضم نظريته : ومباده ، وحججه ، وتطبيقاته . وتشير هذه العبارة بصفة خاصة إلى عمليات سبر أغوار الحياة الشخصية ، والاعتراف ، والفحص . والمريض الذى تطبق عليه هذه الإجراءات أو المحن يقال أنه قد حلل نفسيا . وبهذه الطريقة تتضح مصادر مرضه العصابى ، وعلى هديها تتقرر تدابير علاجه أو تخفيف حدته ، وهى اجراءات عيادية ؛ ولنعرض الآن طرق هذا الفن ، وعمليات تطبيقها ، وممارستها على بساط البحث .

المذهب « الاسنادى » Attributism

للتحليل النفسى وسائل منطقية استخدمت للوصول إلى المبادىء التى يسترشد بها سبل ممارسته . والملخص الحالى يتحدى هذه الوسائل المنطقية باعتبارها كثيرة المغالطات ؛ ومنها واحدة تتخلل صفحات ومجلدات مما يكتب فى التحليل النفسى . وهى

مغالطة « الإسناد » وتتلخص فى قبول المفكر لمدرك عام مجرد يصطنعه بنفسه ولمصلحته الخاصة ، ويجعله كحقيقة يستند إليها فى تفكيره . وعندما يبعث بيجماليون[١] Pygmalion «العالم» الحياة فى تمثاله «جالاتيا» Galattea فإن هذا الخيال الرائع يتحول إلى وهم ختال . والمدرك عند المفكرين لا يتجاوز شأنه شأن قالب أو نموذج فى معمله ، ولكن « الهو » و « الانا » «والانا الأعلى» تحتل فى العيادات الفرويدية مركز الأحياء الحقيقية ، وتستمد حيويتها من الأدلة العيادية .

ومن الواضح أن « الهو » يوجد فى التكوين البشرى كاسم مريح لما أوثر أن أفكر فيه ، وأتحدث عنه ، من تجمع ، وتكامل للوظائف الأولية، وهذه حقائق ثابتة، فإن تفكيرى فيها ، وحديثى عنها على هذا النمط يردنى إلى أساسها فى الجهاز العصبى من غير أن أقع تحت اغراء التفكير فيها كيان عليا ، أو « كموجودات » من أى نوع كانت . ولكن القوى الخيالية التى عزيت إلى « الهو » وإلى مجموعة المدركات المرتبطة به ، أن هى إلا عدوان صارخ على القسم « الطبيعى » Naturalistic الذى يضارع قسم أبقراط فى الطب والذى يجب أن يرضخ له النفسيون ويتبعوه .

---

(١) بيجماليون — فى الأساطير اليونانية — هو ملك جزيرة قبرص . وقد نحت تمثال فتاة من العاج فعشقه . وفى هذا التمثال نفخت الألهة افروديتى الحياة فصار تمثال فتاة تزوجها بيجماليون وانجب « بافوس » . (المترجم)

وإذا ما جعل القارئ ذلك « الإسناد » نصب عينيه . وهو يعاود قراءة ما افترض من وجود « الهو » ، و« الأنا » ، و« الأنا الأعلى » ، وما تفعله ، فإنه سيدرك أن القصة « الإسنادية » خيالية كلها . فإن كان هذا لا يقنعه فعليه أن يقرأها كلها فى مطولاتها فى الكتب الأصلية غير المختصرة : ففيها يصل « الإسناد » إلى ذروته فى مناقشة موضوع البناء الأكبر ، وإن كان يظهر مبكراً ، وفى كثرة ، فينتشر فى الحديث عن اللاشعور فى حالات كثيرة ، وأوجه متعددة لذلك المدرك الشامل المراوغ الذى يقوم بعدة أدوار فى الدراما الفرويدية . فالمرحلة « الأوديبية » « إسنادية » فى شتى اتجاهاتها ، وكذلك « الأمور الطفلية » ، والرقابة على النفس الباطنية ، و« الليبيد » أيضاً فى سجلاته العليا .

وعمل «الإسناد» فى تكوين المدركات هو آفة الحجة الفرويدية ؛ لأنه مجموعة من تماثيل «جالاتيا » ، وقد بعثت فيها الحياة . ومع أن لفظة «إسناد» من وضعى ، فإن الاعتراف بخطرها على التفكير سبق أن حاز قبولا كبيراً لدى العقول الناقدة قديماً وحديثاً . وقد استخدم اليونانيون لفظة تماثلها وهى Hypostasis ، وصاغ جوته Goethe ذو العقل التيوتونى الكبير ذلك الإغراء على النحو التالى فقال :

« إن الإنسان ليكدح ليظفر بالاصطلاحات ، ثم يستخدمها اتفق بأغراضه الخاصة ، فيحصل على ما يؤكد فهمه للموقف ، أو ليستطيع أن يقول شيئاً على الأقل . . . وأى شىء يمكن الاستمساك به ، إذا ما انطلقنا بحرية فى استخدام الكلمات مرة بمعانيها الواسعة ، وأخرى بمعانيها الضيقة . أو إذا ما طبقناها بحرية ، وفى معانيها البعيدة » .

ويبدو من هذه العبارة كأن جونه كان يتنبأ بالنظرية الجنسية الفرويدية . ولحسن الحظ يمكننا أيضاً أن نقتبس بعض ما قاله « بروير » بنفس الحيطة والحذر ، فإن بروير يعد من أكبر رواد التحليل النفسى ؛ وقد قال :

« من السهل أن ينزلق المرء من عادة التفكير السليم ، فيفترض أن وراء اسم ما مادة حقيقية ، وبالتدريج يفهم عن الشعور ، إنه شىء موجود . فإذا كان المرء معتاداً على استخدام العلاقات المحلية بطريقة استعارية ، مثل لفظة « تحت الشعور » فإن فكرته ستنمو بمرور الزمن ، وينسى أنها استعارة ؛ وعندئذ يسهل عليه تناولها ، واستخدامها كشىء مادى . وعندئذ تكمل الأسطورة » .

و « الإسناد » يغزو الجهاز المخى ، ويتحول إلى عادة ذهنية خاطئة ، فإذا ما زج به فى حجة أفسد كل بنائها ، مما يصدق عليه وصف « وليام جيمس » أنه خطة لمشروع « ليس إلا ». وتبعاً لهذا فإن الباحث لا يستطيع تشريح الحجة إلى أجزاء ، ويقول إن هذا الجزء أو ذاك خطأ . فالاعتراض جوهرى أكثر من هذا ، وهو يقرر بأن العقل المنطقى الذى تعود على التعبيرات المنطقية لا يفكر بمثل هذه الألفاظ ، ولا يسمح لنفسه بالانغمار فى مثل هذا الاصطناع .

وقضية الفرويديين قضية ميئوس منها ، إلى أن يفكروا بمزيد من المنطق والحذر ، فإن سفسطة « الإسناد » تتسرب فى خبث وشناعة ، وبطريقة شاملة إلى كل وجه ، وكل جملة فى وسائل التحليل النفسى ، ولقد نسى المحلل الحقائق ، ووضع مكانها أساطير لقوات « اللاشعور » ، و « الهو » ، و « الأنا » ، و « الأنا الأعلى » ، وأوديب ، واللبيد ؛ وجعلها فى عدة صور خفية ، ومدركات بعث فيها الحياة ، ثم استخدمها لتحليل البيانات العيادية التى أوحت بها . وتبعاً لهذا ضاعت الفروض ، واحتل مكانها تأكيد الحقيقة ، وهذا هو روح الوهم .

والبيئة الثقافية التى نمت فيها الفرويدية وازدهرت تحتوى

على إغراء خاص أدى إلى مخالفاتها. رغم عدم التشجيع الأكاديمى الذى كان مبعثه زيادة الريبة فى النتائج وليس فى الطريقة . وكل لغة يمكن تناولها بشكل يؤدى إلى إخفاء الفكرة أو غيابها، ويظهر أن اللغة الألمانية الأكاديمية مجهزة بطريقة خاصة لتحقيق هذا الغرض . فهى تجعل الغموض المقصود يبدو فى ثوب معنى هام ، وباستخدام الأوضاع « غير الشخصية » ، والمبنية للمجهول ، وصيغ المطاوعة تنقل مسئولية عبارة إلى شىء يظهر موضوعيا ولا سيادة لأحد عليه ، كالطقس مثلا ، على حين تكون العبارة فى الواقع ذاتية تماما ، وخيالا لا مسئولية فيه ، وتأملا خلا من كل منطق .

ولا يقتصر الأمر على التأمل وحده ، بل هناك ميل إلى الانغمار فى التراكيب المتعاطلة ، والتعليمية التى كلها تفيق بما ينسجم مع التقاليد الأكاديمية . وحتى الاعلانات التيوتونية نفسها تظهر كمقتطفات من بحث أو مقال . ويعد التأمل المطلق فى بعض الأوساط ضرورة لازمة للباحث التيوتونى . ويظهر أن هذا قليل التأثر بالعلاقات الواقعية التى يصادفها الطبيب فى عيادته . ومن السهل تشغيل أجهزة النسيج الذهنية ؛ وكل نساج يزهو ويفخر بأن نسيجه أصلى مبتكر . وتبعاً لهذا ، فإن آلاف الكتب والمقالات ظهرت فى وقت قصير بشكل ملحوظ . ويتناول اعتراضى

كل الوسائل للجانب النظرى من الفرويدية ، فسيكولوجية التحليل النفسى شىء خاطىء ، ويضاف إلى ذلك مخالفاته الأخرى الكثيرة الناشئة عن خطأ ما اسميته « بالاسناد » .

العصاب

أن الطرق التى تسيطر على أهتمامنا المركزى هى تلك المندمجة فى الاجراءات العيادية . وكان الأمل فى فهم مرضى العصاب وتخفيف آلام المصابين به هو الأمنية العمليـة التى دفعت إلى الترحيب بالنظام الفرويدى . ومشكلة العصابيين فى أضخم صورها هى ميراثنا السىء الحظ من العصر المعقد الذى نعيش فيه ــ عصر آلى فى ظاهره ، وعصابى نفسى فى تحليله العميق ، أو إن شئت ، فهو عصر التحليل النفسى ، بالمعنى القديم الأول للكلمة . ولقد صار انسان القرن العشرين حاد الشعور بمـا يواجهه من عقبات داخلية تقض مضجعه ؛ ففى داخله توجيه نفسى مضطرب .

وفى العصور الماضية كانت التأملات الدينية وما تتضمنه من تعزية تمتص انفعالاته المضطربة ، وتصرفها ؛ وهى عملية التنفيس فى الفرويدية . وممـا يثير الاهتمام فى العالم كله بالصحة العقلية ،

مسألة إدارتنا « لنفوسنا » المخية لتحتفظ بالسلام فى عقولنا .
وكان المشروع الفرويدى قد التجأ مباشرة إلى هذه الحاجة الماسة ؛ وما أن عرف ما يرجى منه حتى وجد الاتباع والمؤيدين من بين المضطربى النفوس ، ومن بين المشتغلين بالاشراف على أنواع ادواء البشرية النفسية . ومشكلة العصابى التى شاء الحظ أن ترتبط فترة باسم فرويد يجب أن تدرس على بساط بحث فسيح حتى يمكننا إدراك جسامتها الخطيرة ؛ فالامراض العصابية النفسية تعكس قسطا كبيرا من قلق العالم ومتاعبه .

وقد قيل لنا أن حالات الأمراض العقلية فى المصحات وما يشبهها من مؤسسات تزيد على عدد جميع حالات الأمراض الأخرى مجتمعة ؛ وتلقينا النذير أيضاً بأنه إذا استمرت زيادة الاضطرابات العقلية بمعدلها الحالى ، فلن تمضى فترة طويلة حتى يكون عدد أصحاء العقول قادرين فى صعوبة على العناية بمعتليها ؛ ولن يكون هناك من مهنة أخرى يمارسها الناس . ولنواجه هذه النبوة الكريهة ، فمن الأفضل إن نعرف مدى العجز ، وما نخسره من جهد فى العمل اليومى ، وأنواع التدخل التى تطرأ على برامج السلوك والعمل ، وألوان الشقاء الشخصى ، والتعاسة البائسة ، وشتى صنوف الاحتكاك ، وانفصام العلاقات مما ينشأ عن الأمراض العصابية النفسية .

والمفروض أن العدد الفعلى لهذه الحالات يزيد على ما سجلته

الاحصاءات التى تيسر الحصول عليها. ومشكلة الأمراض العصابية يجب أن تدرس بنفس الروح الكبيرة ، والتسامح ، والبصيرة التى نتناول بها مسألة نزع السلاح فى العالم ؛ فهذه الدراسة أشبه بنزع سلاح نفسى ، وغزو لمدمرطاغية لسلامنا الداخلى . ولو أن فرويد تمكن من حل هذه المشكلة أو زحزحها لتقترب من الحل لكان مكانه مضمونا بين الخالدين ممن أحسنوا إلى البشرية .

وهذه الآراء يجب أن تضفى أدراكا معقولا من الأحساس بالمسئولية على المساهمين فى التحليل النفسى . وهذه المسئولية يجب أن تراعى حق المراعاة أن جماعة كبيرة من أدق الهيئات تنظيما ، ومن اكثر المواطنين فائدة وابتكارا معرضون بصفة خاصة لمثل هذه الأمراض ؛ إلا وهى الانحرافات عن الطرز النفسية التى يتجلى بعضها فى شكل امراض نفسية عصابية . وأنا لنقدر هذا الاتجاه سواء أخذنا أو لم نأخذ برأى برجسون القائل ، بأن كثيرا من أهم الاعمال فى العالم أتمها أشخاص بهذه النزعة ، فقد كانوا فى الواقع ضحايا علل نورستانية .

كانت أول خطواتنا فى دراسة الفرويدية هى تتبع فرويد فى أولى حالاته عن العجز الهسترى . ولقد وجد مفاتيح مشكلات العصاب فى مجرى اللبيد . ومن ثم نشأ موضوعان: أولهما أن سبب هذه الامراض العصابية النفسية هو صراع الدوافع التى تعمل

بطريقة لاشعورية ، والثانى هوأن الصراع لبيدى. وقد جمع فرويد الموضوعين فى معادلة واحدة أطلق عليها اسم « تكوين الأعراض » Symptom - Formation ؛ فكان اهتمامه الكبير بامر الاعراض خطوة خاطئة أبعدته عن أن ينظر بنصيب أوفى من العدالة والنزاهة ، إلى مشكلة العوامل التى تساهم فى خلق العصاب . وهى مشكلة أكبر .

ومن الجائز أن لا يعرف المرء كثيرا عن اللجلجة ، واحمرار الخجل ، والارق ، والسير فى أثناء النوم ، أن هو أفرط فى أهتمامه بدقائق مايبدو من وقفات صغيرة أثناء الكلام ، واحتقان الوجه ، وكثرة تقلب النائم فى الفرش ، ومسلك السائر فى نومه ؛ وهى أيضا من أنواع العصاب النفسى . والتكوين العام لمن تنتابهم هذه الأعراض — أو الاحداث النفسية — بالغ الاهمية بالنسبة « للاسباب » ، حتى فى حالة خداع الاسباب العميقة ومراوغتها لنا . وهذه الأعراض الفسيولوجية شرعية أيضا فى تقدير التحليل النفسى . وهى كالاعراض الخاصة التى اختارها الفرويديون لأنها تلائم مبادئهم . ومع ذلك فان هذه الاعراض لم تضم بعد إلى مجال المحلل .

والطريقة الفرويدية لاتعاون على النظر الواسع إلى المشكلة الاساسية لأمراض العصاب ، ولا إلى حلها حلا مرضيا ؛ فهى تلقى

بضوئها على وجه واحد هام من الاعراض الهامة . ولا ريب أن وضع الجزء موضع الكل فى مثل هذه المشكلة الهامة ، أنما هو بداية خاطئة . وفى وسعى أن اكرر قول فرويد الذى سلم فيه بانه بعد عشرات السنين من البحوث التحليلية لايزال محتارا فى أمر «العامل المسبب للامراض العصابية» ، وهذا ينطبق أيضا على بقية اعضاء المهنة . وهو على أية حال اعتراف تناقض فيه مع نفسه فى اثناء ممارسته للتحليل ، وفى عدد آخر من الاقوال . وهذا الاعتراف هو قوله بأنه يوجد عامل مسبب لامراض العصاب لايزال لايدرى ما هو على الرغم من مضى ثلاثين سنة على التحليل النفسى: ولنفرض أنه يوجد عامل مسبب للمرض ، ولعله اندماج عدة أسباب مصحوبة باختلافات كثيرة معقدة . أما كيف تؤلفها الطبيعة فهذا هو السر الغامض للامراض العصابية .

ولعل عبارة المحلل النفسى جونز تصلح كاستهلال فى هذا الشان إذ قال :

« كانت هذه الحالات تفسر فى الماضى على أساس التعاون بين عاملين : عامل الضعف الوراثى للبنية العصبية ، وعامل بعض العقبات التى تحدث ، ومنها خيبة الامل فى الحب ، وارهاق العمل ؛ مما كان يعد اكثر النماذج شيوعا . وبين هذين العاملين أدخل

فرويد عاملا ثالثا هو « تأثير بعض التجارب المعينة في اثناء فترة النمو الجنسي المبكر » . وهو لم ينكر اهمية العاملين الاخرين باية حال من الاحوال ، بل بالعكس أنه صنع الكثير ليعرف الطبيعة الجوهرية للعوامل الثلاثة في جلاء اكثر ، وليقدر بالضبط مايقوم بينها من استمرار .

فهل صنع هذا ؟ أن العامل البنائي في الجسم يعد المعين الأكبر عند الأطباء « الأرثوذكسيين » للامراض النفسية . وهم يأملون أن يظهر في المستقبل عبقري في علم الأعصاب ليكتشف الأساس الكيميائي الحيوي الذي يجعل الناس أكثر تعرضا للاصابة بالأمراض العصابية . ومصدر الاستعداد للإصابة بالمرض إنما هو مشكلة واحدة ؛ وظهور المرض نفسه مشكلة أخرى ؛ وكلتا المشكلتين واجبة الدراسة . وتصنف الأمراض العصابية النفسية في عالم الطب تحت اسم « اضطرابات عصبية وظيفية » Functional Nervous Disorders ؛ ولم يحدد لها أي أساس عضوي . فالجهاز العصبي عند المريض بالعصاب لا يعمل عمله كما يجب . وبما أننا لا نعرف السبب أو الكيفية ، فإن احتمال تناول الأمر من هذه الناحية ضعيف . ومن السمات السائدة في العصابي أن أعراض

الاضطراب تتغير بطريقة مقررة بواسطة التأثيرات النفسية (الانفعالات) .

وتوجد أدلة مقنعة بأن الاضطرابات العصبية الوظيفية تمثل طرزاً معينة من الاستعداد للإصابة بالعصاب ، ولا سيما فى حالات الهستريا والنوراستينيا التى لا تعد مرضا واحداً رغم تشابه أعراضها وتدخلها . ولفظة هستريا[١] فى حد ذاتها من الجائز أن تتضمن مراتب معينة من العجز الوظيفى ، ولكن الاتفاق لم يتم بشأنها بعد . وما ينطلق على حالة الحصار العصابى (القلق) لا ينطبق على حالة « القهر » Compulsion . وكلا النوعين يظهر فى الحالات العيادية عند فرويد .

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن العاملين المسببين الذين سبق ذكرهما ، هما الفشل فى العمل ، وفى الحب ، واضحان أيضاً . فالعمل يشير إلى التعب ، وهجوم التعب على المصادر العصبية إنما هو عامل وظيفى محدود ؛ ولكن القلق أكبر تأثيراً من

---

(١) أن البحث القائل بأن الأمراض العصابية النفسية تنشأ من صراع جنسى ، يؤدى إلى اكتشاف الأجهزة والحركات التى تثير الأعراض وتدفعها إلى الظهور . وقد درست هذه الأجهزة والحركات فى المواقف ، وأخطاء كل يوم ، والأحلام ، والعصاب . وهذا الجزء من الحجة يجب تذكره فى الحكم على صلف قاعدة العصاب عند فرويد . (المؤلف)

إنفاق الجهد ؛ وكلاهما ارهاق . وإذا ما مارسنا العمل ، ونحن مرهقون ، تزايد الاجهاد عدة مرات .

والعمل لا يعد صراعا إلا إذا كان الفرد مشمئزاً منه ، أو به رغبة قوية إلى عمل سواه. والإخفاق فى الحب ليس تعباً ، ولكنه من الجائز أن يعرقل مسار عمل مفيد . والمعادلة العصابية معقدة ؛ والعوامل ، وقيمهما من المسائل التى يغلب أن تكون غير معروفة ومتغيرة . فعنصر التأكيد لا سبيل إليه فى هذا المجال .

وبرغم الاحتجاجات المتكررة هنا وهناك ، فإن التشخيص الفعلى لحالات العصاب عند الفرويديين ، يكاد يقتصر على أن الناحية الجنسية فى الطفولة هى وحدها المسببة للأمراض ، وأن أشار إلى العوامل الجسمانية . حتى السمات الخلقية التى تظهر عند العصابى قدمت كنتائج للانحراف المتعدد الاشكال ، وكنتيجة للتثبيت الجسمانى القادم عن طريق تسلسل الجهاز التناسلى البولى . ويتعذر على أى قارىء لفرويد أن يخرج بأية نتيجة بشأن الدور الحيوى الحاسم الذى تلعبه العوامل المزاجية الجسمانية فى اتجاهها إلى تكوين الأعراض ؛ وعلى هذا الأساس فإن شخصية هاملت [1]

(١) هاملت هو بطل إحدى مسرحيات الشاعر الانجليزى شكسبير . ويقوله بعض شراحها أن الشخصية التى أضفاها عليه الكاتب تمثل شخصا مريضا بالعصاب وقد دفعته أوهامه إلى ارتكاب كثير من الأعمال . (المترجم)

تظفر بنصيب ضئيل أقل من نصيب حفار للقبور.

وتواجهنا الآن مسألة التأكيد اللبيدى. فتحط من قدر الموضع الذى يجب أن يكون لعامل العقدة الذى يؤلف العمل الجوهرى الذى أسهم به فرويد؛ ومن أجله سيذكر إسمه دائماً، ولا سيما عندما ينسى العالم تشخيصه[١] الذى اقتصر على جانب واحد.

وهذا التحديد يحول بطريقة ما دون التشخيص الصحيح حتى من وجهة النظر الفرويدية. وفى هذا المجال نجد أن يونج قد اختلف مع فرويد؛ فإن أنواع الصراع من مراتب كثيرة؛ وما هو حاضر منها يسود رغم ما فى الماضى النشوئى. وقد أصر يونج على ضرورة

(١) أدعو القارىء، ولا سيما من كان مطلعاً على أوجه النظر السائدة الخاصة بالعصاب، إلى أن يعتبر النوراستينيا والهستريا كأنهما يشيران بطريقة عامة إلى اضطرابات من هذا الطراز، ودون أن تنطويا على الأشكال النوعية الخاصة الأمراض التى يقال عنها أنها كذلك. وكانا يعترف بالحاجة إلى ألفاظ كالتى وضعها كرتشمر Kretschmer مثل كلمتى Cycloid. Schizoid اللتين تشيران إلى طرازين من الشخصيات، وتشتملان على مجموعات من السمات الخلقية الموجودة فى كل منا من غير أن تتضمن أننا سنبدى أعراض جنون المراهقة أو «الخبل المبوطى» Dementia Praecox وذهان الجنون الاتقباضى أو «الهوس» Manic Depressive Psychosis ولجعل هذه الفكرة شعبية، فإن «أوفرستريت» Overstreet تكلم عن الاتجاهات أو عن الأشخاص الذين يصفهم بأنهم Micromanic و Micro - depressive وأرى أنه من الأبسط أن نترك هذه الألفاظ، ونوسع المعنى ليتضمن ما فى الشخصية من النظم والاتجاهات الصغرى وأمثالها. (المؤلف)

تفسير أمراض العصاب ، من حيث النضج . وعندما حلل ريفرز — وهو فرويدى محدث — حالة «كلوستروفوبيا» أو الخوف المرضى من الأماكن المغلقة ، وهى حالة سبق أن حللها أحد أنصار فرويد ، وبحث فيها عن مفاتيح جنسية بدون نتيجة ، فإن ريفرز وجد مصادر الحالة قابعة فى اختبارات الطفولة ، ولكنه لم يعثر على أى مفتاح جنسى لها ، وتبعاً لهذا فإنه قال «ان قصر الاهتمام كله على الناحية الجنسية يحتمل أن يسفر عن عرقلة فعلية تعترض سبيل اكتشاف خبرة الطفولة التى تمدنا بمثل جيد لما هو مطلوب من خبرة اللاشعور ، ومن احتمال استعادتها إلى الذاكرة الظاهرة» .

ويسجل ريفرز أن المبادىء الفرويدية كانت دائمة النفع له فى أثناء عمله فى الطب النفسى خلال الحرب . وهو يسجل هذه الخبرة ليبين نقص النظرية الفرويدية فى أمراض العصاب ؛ فإن الحرب أظهرت مجموعة كبيرة من أنواع العجز الهسترى التى يمكن مقارنتها بما أكده فرويد . فهناك ظهر الصراع النفسى . وكان هجوما على غريزة عميقة جوهرية مشحونة بالانفعالات الحادة ؛ ولكنه لم يكن جنسياً ، فإن أزمات الحرب والسلام تُظهر بوضوح أنواع صراع مختلفة . والواقع أن ريفرز لاحظ أن العوامل الجنسية

فى العصابيين من الجنود لم تكن هى العوامل الشائعة[١] .

وغريزة الشعور بالخطر ، وتهديد الحياة نفسها أبرزت النكبة العصابية ؛ وفى هذا المجال انطبق أحد المبادىء الفرويدية . فإن هذه العوامل أظهرت أعراض عجز جعلت الجند غير صالح للخدمة العسكرية . وفى هذا السبيل فانها تكون وسيلة هرب لاشعورية بانتحال المرض . ومن الواضح أن عقدة أوديب الخامدة لا يمكن

---

(١) لا أستطيع أن أزج بمسألة كبيرة مثل اضطرابات الحياة الجنسية — ولاسيما الاخفاق فى التعبير الجنسى — فاجعلها من أسباب الأمراض العصابية ، كما تدعى تعاليم فرويد العامة . وأن العصاب مستحيل الحدوث حيث الحياة الجنسية السوية العادية . ويقال أنه سمع ذلك من شاركوه الذى يظهر أنه وضعها فى صيغة إيجابية (ليس نفس الشىء بالضبط) ، ولعله قال ما معناه أنه يوجد دائماً شذوذ جنسى يصحب الأمراض العصابية . والنظرية الأقرب إلى العقل ، هى القائلة بأن الميل العصابي قد يمد اضطرابه إلى النشاط الجنسى . وهذا شىء طبيعى لأن هذه الاضطرابات مشحونة إلى حد كبير بالتوتر الوجدانى . ومع ذلك فان هذا لا يستبعد العلاقات الأخرى فى أسباب المرض .

ويعقب بك Peck وهو أحد المحللين النفسيين فيقول « أن قولة فرويد بأن الحياة الجنسية السوية تمنع ظهور الأمراض العصابية ، يمكن أن تتغير إلى القول ، بأن الحياة الجنسية السوية دليل يبين غياب الأمراض العصابية » وتوجد أدلة متعددة على حدوث الأمراض العصابية بين الأفراد السويين فى الحياة الجنسية ، لأن بين الأفراد الذين يتمتعون بالحرية فى علاقاتهم الجنسية من يصابون بالعصاب وهذا البحث جدير بالعناية والفحص الشامل من معهد بحوث عصبية ، فعندئذ فقط يمكن تكوين قاعدة يصح الاعتماد عليها والثقة بها ، أما عبارة فرويد الحاسمة فتعد سابقة لأوانها . (المؤلف)

أن تظهر فجأة تحت تأثير أصوات طلقات الرصاص . وانفجار القنابل ، والحرمان . والتعرض للموت . وقابلية الإصابة بالمرض التى أخرجت المصابين بصدمات القنابل من بين صفوف الجنود لم تكن «تثبيتاً» إلى الأم ؛ أما قاعدة الصراع ، فتظل قائمة ، وكذلك مسألة أجهزة التحول ، وهما تقودان ريفرز إلى التحدث عن الهستيريا كأمراض عصاب « استبدالية » . وقد أيدت أمراض العصاب فى الحرب مبادئ معينة فى التحليل النفسى ؛ ولكنها تعارضت فى جزم مع أنواع التشخيص المحدود الذى تغلغل ليؤلف القاعدة الأساسية لوسائل التحليل النفسى بين تلاميذ فرويد المعتدلين .

وقد لاحظ ريفرز وسواه أن مدرك الصراع ، واعتباره عاملا قوياً فى العلاقات السوية ، وفى تشكيل العقبات العصابية ، ليس من الامور الجديدة ؛ وينطبق هذا أيضاً على كلا مرتبتى الصراع اللتين تثيران الاضطراب فى السلام الداخلى ، أى الصراع بين الدوافع وبعضها البعض ، والصراع فى أجهزة الرقابة الشخصية التصاعدية أى بين الهو والأنا وبين أنواع الدوافع الفردية ، وتقاليد المجتمع وقيوده أى بين الهو والأنا والأنا الأعلى .

ويقول ريفرز ان السمة التى تجعل نظرية فرويد جديرة بالعناية هى مشروعه بشأن طبيعة « الخصوم » فى الصراع ،

وبشأن الحيل التى توجه هـذا الصراع . وهذه السمة ، فى رأيى ، تجعل المشروع مثار شك وارتياب ، بقدر ما تجعله جديراً بالعناية : فإن صبغ « الخصوم » بالطابع الجنسى صبغاً كاملا من حيث تثبيت الطفولة ، يسيطر على النظرية الفرويدية للعصاب سيطرة تامة حتى أنه ليغلب على كل شىء آخر . وبمثل هذا الغموض ، فإنه يحجب ما فى نظريته من أضواء . والواقع أن الأدلة قليـلة على أن الفرويديين درسوا مشكلة العصاب فى مجالها الواسع دراسة تقدر المسئولية .

إن الفرويديين يتجاهلون الأعراض الفسيولوجية الشائعة فى العلل العصابية تجاهلا يتسم بعدم المبـالاة مما لا يتفق مع مهنة عيادية . وقد حدث أن قليلا من هذه الأمراض شائع حتى أنه يبدو بجلاء ، فالنوراستينيا تحدث فى نحو ٩ حالات من ١٠ صداعاً حاداً فى قاعدة المخ . فهل درس أطبـــاء الأمراض العصبية من الفرويديين ما يحدث فى مأساة أوديب — مما يستدعى ظهور الآلام فى الرقبة فى مختلف جميع حالات الرجال والنساء ، فى شتى الأعمار؟ وهل درسوا حالتهم السابقة؟ ولماذا لم يصب كثيرون بهذه الآلام رغم أن خبرتهم فى الطفولة تشبه إلى حد بعيد خبرة أولئك الذين

أصيبوا بهذه الآلام التي تعد في الغالب من العلاقات المميزة للنوراستينيا ؟

ومن الظواهر التي يمكن اعتبارها مفاتيح للأعراض ، ظاهرة العجز الذي يصاب به مرضى النوراستينيا في الصباح المبكر . فإن العارض يزداد سوءاً عند اليقظة ؛ فأي عامل خفي ينم عن رغبة مكبوتة في الطفولة ، أو في « غرام الأسرة » ينتعش في الصباح ؟ إنا لنرجو أن يتقـدم فرويدي من العبقريين لحل هذا اللغز ، رغم أن حله سيكون عن طريق علم الصنعة النفسي ، ذلك العلم العجيب الذي لا أساس له ، مما يجعل من تشخيصه مجرد عرض هزلي في ميدان العلم .

ومن مجموعة الأعراض الكثيرة المعهودة للهستريا « ابتلاع الهواء » . وهو إحساس خانق ، وابتلاع تشنجي (١) يشعر فيه المريض كأن كتلة تصعد من

---

(١) ربما كان تفسير فرويد لهذا العارض من أحسن التفسيرات ؛ وقد عزاه إلى تمدد هستيري في المعدة ، وهو يستجيب للإيحاء ، أو التنويم المغناطيسي . وقد فسر هذا التمدد على أنه توهم حمل . فان كان الأمر كذلك صدق التفسير الفرويدي . ومع هذا فمن الجائز أن يكون التفسير من نفس مرتبة ابتلاع الهواء . والتشخيص ملىء بالريب . (المؤلف)

معدته إلى حنجرته . فبأية مؤامرة اتفق ضحايا « أوديب » من الجنس الناعم على أن يستبدلن بوجه من وجوه صراعهن الإنفعالى هذه الظاهرة الشاذة فى قصبتهن الهوائية ؟ وأكثر أنواع « التحول » فردية حتى أنها تحتاج إلى تحليـــل للعثور على مصادرها : ولـكن العارض السابق يتبع نموذجاً شائعاً ، وليس لدينا من خبرة عامة لتعليله . وماتبينه هذه الأعراض فعلا ، إنما هو استعداد عام فى الجهازالعصبى للإصابة بالمرض . ولانزاع فى أن بعض الأعراض التى تظهر كوظيفية إنما تظهر بفعل الأجهزة النفسية التىفسرها فرويد تفسيراً هاماً له دلالته ، ولـكن أهم من ذلك أن كثيراً من الأعراض ليس كذلك .

ولم يقتصر فشل قاعدة فرويد على تعليل أمراض العصاب ، بل أخفق أيضاً ، وبطريقة مماثلة فى تعليل مدى الأعراض كله ، فإنه اختار الأعراض التى تنطبق عليها قاعدته ، كما انتقى الحالات التى يمكن أن تنطبق عليها نظريته . فلا عجب ان كان أطباء الأعصاب والنفس المحافظون ينظرون إلى هذا المشروع الطموح بحذر ، فيرونه خطوة ضالة ، وحدثاً منكوداً فى طريق تقدم مهنتهم .

التحويل

تظهر فى نطاق الإجراءات العيادية «حقيقتان» يعتبرهما فرويد بمثابة دعائم[1] للتحليل النفسى، وهما: التحويل، والمقاومة. والواقع أننا نجد «حقيقة» خلف المدركين، كما نجد قدراً طيباً من الناحية النظرية. والمقاومة تشير إلى الميل الطبيعى إلى إخفاء الذات الخاصة، وحجبها خلف ستار. ومن الجائز أن لا نكون مغمورين فى الآثام، ولا مثقلين بكثير من أوزار الماضى؛ ولكننا نحرص على أن لا نظهر ذاتنا الدفينة فى مظهر غير مقبول، حتى لأصدقائنا الذين نثق بهم. ولعله من الأفضل أن نتجاهل مسألة تشكيل الذات بالشكل الذى تريده القيود الاجتماعية، أو نسلم به كما هو، وفقاً لرغبتنا.

وتلقى مطالبة الفرد بالاعتراف فى صراحة تامة تكريماً، وتأييداً، سواء تمت فى انتهاكها أو مراعاتها. ولا ريب أن عنصر المقاومة النفسية حقيقى، وأن سبل الإصرار على ضرورة التغلب على هذه المقاومة لها ما يبررها.

---

(١) إذكر فى هذه المناسبة أن فرويد أشار فى آلاف الصفحات التى كتبها إلى كثير من تعاليمه على أنها « دعائم » نظامه. وعلى هذا الأساس فان بيته يصير بهو أعمدة. ولعل الداعى إلى هذه النزعة الفرويدية هو خصوبة الابتكار، والنظرة المتغيرة إلى الموضوع. (المؤلف)

وهذه السبل فن جدير بالنمو والصقل ، فإن اكتشاف المخبؤ ، ومراكز العدوى النفسية المكبوتة تكون فى الغالب محجوبة بطريقة لا شعورية ، ولكن كثيراً مما يسمى بالمقاومة النفسية ، إنما هو فى الواقع نسيان عادى ، وليس بكبت يعترض طريق التحليل . وبهذه التحفظات نسلم بمبدأ المقاومة الفرويدى فى الاعتراف ، وإن كنا لا نقبل العذر الشائع القائل بأن سبب عدم وجود العقد هو شدة المقاومة التى حالت دون اكتشافها ، فهذا العذر يجعل النصر الدائم من نصيب الفرويدى على الناقد أيا كانت « أوراقه وأدلته » .

ومن الجائز أيضاً أن نسلم ، ونرحب بالفكرة النيرة القائلة . بأن كثيراً مما ننساه الآن ، ومما نرفضه ، كان فى وقت ما فعالا ومقبولا ، ولا سيما فى حياة الخيال الحافلة التى خلفها كثيرون منا وراء ظهورهم ، ولكن فريقاً آخر لم يرها البته . ويوجد فينا طبقات مقاومة مختلفة تطوق سرائرنا الداخلية المقدسة الماضية منها والحاضرة . وهذا التمييز مفيد ، وبغيره لا يمكن إجراء أى تشخيص نفسى . وقد كان معروفا من قبل ، ولكن وضوحه لم يصل البتة إلى المرتبة التى وصل إليها فى الصياغة الفرويدية . ومن أجل هذا الوضوح لها الشكر والامتنان .

« والتحويل » مسألة أخرى . « والحقيقة » فيه هى علاقة الثقة بين المريض ومحلله . والتحويل ، أما أن يكون ذا معنى نوعى محدد

واجب التبرير ، وإما أن يشير إلى ما هو معروف جيداً ، فلا داعى عندئذ للفظة خاصة ولا لتأكيد . وينطوى مبدأ « التحويل » عند الفرويديين « الأرثوذوكسيين » على نظرية من المقرر أنها مثار نزاع وريبة ، وهى نظرية « النكوص » Regression و « الأحياء » Reanimation وهى تطبق بشكل تعسفى معين[1] . والتحويل جزء من «الوسائل» الفرويدية ، ومثله التداعى الحر ، وتحليل الأحلام والتفسير العام للعقد للمرضى .

والتحويل هو «على التحديد» قيام علاقة شهوانية ؛ وهو باللغة البسيطة يوجب على المريض أن يعشق محلله ، باعتبار أن هذا العشق مرحلة من مراحل العلاج ؛ ثم يخرج المريض من هذا العشق ، ويفصم العلاقة لإتمام العلاج . وأنا أعرف جيداً أن العلاقة بينهما توصف غالباً بأنها عاطفة حارة وتقدير كبير ؛ ولكن أينما اتجهتُ أجد أدلة قليلة على وجود ظلال عاطفة عذرية فى التقديرات الجنسية عند الفرويديين . والتعقيدات ، والمضاعفات التى تنشأ عن العلاقات بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة ،

---

(١) تستخدم لفظة « التحويل » فى التعاليم الفرويدية لتعنى أيضا تحويل المشاعر الشهوية من شىء أو شخص إلى آخر . ولهذا التحويل يفضل فرويد استخدام لفظة « نقل » (Transference) . ويقصر التحويل على العلاقة بين الطبيب والمريض . (المؤلف)

إما أن تهمل فى سذاجة وحسن نية ، وإما أن تتخذ أوضاعاً محايدة بحكم الموضوعية الحذرة الملازمة للمهنة : ومع ذلك فإنى ألاحظ وجود « التحويل المضاد » ، وفيه يستجيب المحلل النفسى لما يقدمه المريض من مقترحات أو يعرضه من مفاتن . وهكذا فإن « علم الصنعة » الانفعالى يظهر كفن « مرن » ؛ فقد قيل لنا من قبل أن كل العواطف (تقريباً) من أصل أو اتجاه جنسى . أما الآن فعلينا أن نعرف أن علاقة انفعالية قوية يحتمل ، بل يجب ، أن تتم بدون مثل هذا الاتجاه الجنسى .

ومرة أخرى نواجه السؤال الطريف عن كيفية ظهور هذا العامل فى «الوسائل» الفرويدية . وهو ليس من البيانات المستخرجة من ماضى المرضى المخبوء ؛ ولكنه عامل خُلق، وشجع على الظهور لمواجهة العقبات القائمة . ولا يخفى أن هذه العلاقات سرعان ما تنجلى بحكم طبيعة الجلسات الحميمة . ويظهر أن هذا الموقف كان أحد العوامل التى دعت « بروير » إلى الانسحاب من أول « حالة » تحليل نفسى .

وروى «ويتلز» Wittels القصة بعد مضى سنوات كثيرة ، وأفصح فى تفسيره عن مفتاح الموقف ، فقال أن « بروير » كان الشخص الوحيد الذى كان يعرف ،

اللغة الإنجليزية ، فى الوسط المحيط بالمريضة حين اقتصر كلامها على هذه اللغة ، فكانت هذه العلة التى أنستها لغة بلادها الألمانية ، بمثابة حيلة من لا شعورها لكى تنفرد بطبيبها المحبوب الذى تم إليه « التحويل » . ونفس هذه الأعراض التى ظهر أنها «تشكلت» خلال تجارب الطفولة ، تخضع أيضاً لهذا التفسير الإضافى ولكنها فسرت على أساس آخر. وهكذا تؤثر الوسائل العيادية تأثيراً سيئاً فى تشخيص العلة .

ويشرح فرويد الموقف بصراحة فيعترف بأن هذا الاهتمام النسوى أذهله فى أول الأمر ، ولكنه ما لبث أن أدرك أن سره لا يعزى إلى مفاتنه الشخصية فى اجتذاب النساء ، بل يرجع إلى أنه اتخذ بديلا من غيره ليكون موضع الغراميات العلاجية للمريضة . وكل هذه تفرعات مثيرة للعجب والفضول .

وعلى أية حال ، فلنعد إلى موضوعنا ، ففيه ما يصح أن يكون مثارا للنزاع، فالفكرة كلها ، ومنها تلك الألعاب البهلوانية العاطفية ، تقوم على أساس نظرية إحياء العاطفة ، وهى نظرية تثير المشكلات. ولا ريب أن المصابين بالهستريا يعانون من ذكرياتهم العاطفية كما قال فرويد . والقهر حقيقى لا شك فيه ، ويمكن تعليله بطرق شتى ،

كما وجد «هولنجورث» Hollingworth فى نظرية «إعادة التكامل»[١] فالندب النفسية يجب أن تفسر بطريقة ما. ومن الميسور الدفاع عن فكرة الاحياء أو البعث، ولكن يتعذر استخدامها لتأييد وسائل التحويل.

ويقوم التعليل المنطقى للتحويل على أساس مبدأ الأحياء. ولا يكتفى التحويل بعودة المريض إلى احياء ذاكرته، بل يتطلب أيضاً عودته لوجداناته السابقة، فيميز من جديد العلاقات الشهوانية التى سبق أن خبرها فى طفولته أو فى حياته المبكرة؛ والفرق الوحيد هو أن المحلل يحتل مركز موضوع الحب الأصلى. وهذه السيادة على الانفعالات تشبه مسألة الإيمان بأكسير الحب. ولكن فرويد يثق بهذا الإجراء وبالغرض العجيب القابع وراءه، وهى ثقة بعيدة كل البعد عن الأوضاع النفسية، كما تجمع بين البدائية والخطورة. وهى من أغرب معروضات المجموعة الفرويدية الخيالية كلها.

«ويتم الجزء الحاسم من العلاج الشافى بواسطة

---

(١) إعادة التكامل Redintegration اصطلاح اقترحه سير «وليام هاملتون» W. Hamilton لمبدأ أو قانون التداعى Association الماثل فى إعادة صياغة شىء كامل من إدراك جزئى أو فكرة جزئية. ويدعى بعض النفسيين أنه مبدأ جوهرى يمكن تفسيره على أنه يشمل كل القوانين الأولية.

(المترجم)

التحويل ، فعن طريقه تظهر نسخ جديدة من الصراع القديم . وفى ظل هذا الموقف يود المريض أن يسلك نفس السبيل الذى سلكه من قبل . ولكننا نستدعى ، أو نثير كل قواه النفسية ، لنكرهه على اتخاذ قرار آخر مختلف . وبهذا يصير التحويل ميدان المعركة ، حيث تلتقى كل القوى المتنازعة ؛ ومن ثم تتركز قوة اللبيد الكاملة ، وجميع القوى المقاومة لها ، وتحشد فى العلاقة بين المريض والطبيب ، ولهذا فلا مفر من كشف أعراض اللبيد » .

« ويظهر المريض اضطرابات التحول المصطنعة بدلا من اضطراباته الأصلية ؛ وبدلا من أن يتجه اللبيد إلى موضوعات شتى غير حقيقية ، فإن المريض لا يجد أمامه إلا فرداً واحداً هو الطبيب ، وهو أيضاً يعتبر شيئاً خيالياً . وعلى أية حال فإن الصراع الجديد على هذا الموضوع يرتفع إلى أعلى المراتب النفسية بمعونة الطبيب ؛ ثم يستمر كصراع نفسى عادى ، فإذا ماتجنبنا كبتاً جديداً ، فإن النفور بين الأنا واللبيد ينتهى ؛ وتستعيد الشخصية وحدتها النفسية . وإذا ماعاد اللبيد ، وانفصل عن الموضوع المؤقت . وهو الطبيب ، فإنه

لا يمكن أن يعود إلى موضوعاته السابقة ، بل يستمر تحت إمرة الأنا » .

وهكذا يتألف فرضان : الأول هو أن الصعوبة الأولى بعثتها كلها صدمة مبكرة ، والغرض الثانى ، هو أن فرداً ناضجاً عاقلا يمكنه بإجراء ما أن يعيد أى موقف انفعالى مر به فى مرحلة الطفولة ، ثم بمجرد مشيئته ، أو بالجهد يستطيع أن يغير أدوار المأساة التى يمثلها . والفكرة من الناحية السيكلوجية مضحكة . بقدر ماهى عديمة الفائدة من الناحية العيادية . ومهزلة التحويل أو مأساته « تمثل أدنى مراتب الانهيار المنطقى التى انحط إليها الفرويديون المتزمتون » فإن تخبط « فرويدى فى بلاد الخطأ » لأقرب شبهاً بالقصة الخيالية « أليس فى بلاد العجائب » .

إن المحللين يندفعون فى هلوستهم الكثيفة فى سرعة ، وكل يضيف إلى الوصفة ، وكل يبتكر وسائله الخاصة بتحويل العواطف الخسيسة إلى ذهب ثمين مقبول . وهم يتناقشون بلسان العارف فى مسألة المحلل ، إن كان يجب أن يكون فعلا موضوع الحب ، أو أنه يجب أن يحتفظ بنفسه موضوعياً ، بعيداً عن الناحية الغرامية تماماً ، ويعتبر نفسه مجرد

« لوحة بيضاء تعرض عليها صور حياة الطفولة عند المريض » ؛ أو أن يعتبر المحلل نفسه « تمثالا خفياً ليضفى عليه المريض أوهامه وخيالاته : وهل على المحلل من البداية أن يتخذ دور الأب ، ثم يتحول ليمثل دور الأم ، وهل يولد المريض فعلا من جديد لأن خيالات الولادة فى هذه المرحلة يمكن اعتبارها أكثر من مجرد استعارة » .

لم يقبل يونج شيئاً من هذا السخف ، ويتناول علاقة المحلل بمريضه كصلة سيكلوجية ، هى « موضوع علاقة بشرية يتمتع فيها كل فرد بضمان احتلاله لمركزه الملائم » ، فيحس المريض أنه مقبول كما هو ، وأنه سيُرشد لينسجم مع نفسه بطريقة أفضل مما هو عليه ، ليستعيد ذاته السوية العادية ، ويتكيف بالظروف القاسية فى حالته .

ولكن هذه الواحة المحبوبة لما فيها من سلامة الذوق والمنطق تختفى فى عجلة وسط سراب التخمينات عندما يقدم لنا « اللاشعور الجماعى » ، وماشابه ذلك من ألوان خياله ؛ فلايزال يلازم وسائله إحساس مصطنع بشىء يعد ابتكاراً فنياً فى علاقة تستلزم قدراً كبيراً من اللياقة والمستلزمات العادية التى تقتضيها استقامة عقلية ومسئولية مهنية . والواقع أن مجرد الاعتراف « بالتحويل » كجزء

من الوسائل يلقى ضوء قاتماً على العيادات التحليلية . وكان من الأجدر أن يقبلوا بدلا منه العلاقات الوثيقة على أساس ما هو مقدر لها حتما .

وفى هذا المجال بالذات يدخل عنصر الخطر . ولا أستطيع أن أغمض عينى وعيون القراء بشأن القصص عن سوء استخدام العلاقة بين المحلل والمريض مما يروى عن البعيد والقريب ، وفيها ييسر « التحويل » وسائل سوء الاستعمال . ويضاف إلى مسألة التشبث بالجنس كسبب لأمراض العصاب ، مسألة الوسائل المتبعة لإيجاد علاقة شهوانية ، ولو من ناحية الشكل ، فى هذا المجال يجب أن نذكر أن كل المحللين، أو حتى الأطباء من حملة شهادات الطب ، لا يتمتعون بالقداسة ؛ ولنذكر أيضاً أن جميع المرضى لا يلزمون جانب الحذر . أما ما يزيد على هذا فإنى أتركه لتقدير القارىء وبغير تحديد أو رقابة على خياله .

وأوثر فى هذا المجال أن لا أتحدث طويلا عن أخطار الوسائل العيادية ؛ وهى وسائل بغير أساس على الرغم مما لبحثها من أهمية لتقدير الخطر الكلى الناشىء عن شيوع تعاليم خاطئة ، وتطبيقات خرقاء ، مما يحيط بالتحليل النفسى بالشكل الذى هو عليه ، فأنواع السفسطة ، والشرور الكامنة فى وسائل هذا التحليل

وروحه ، إنما هى أجزاء من نبع خبيث واحد . وليس فى مجال العمل الذى اخترت أن اضطلع به أن أوجه التهم إلى ممارسى التحليل أو أرضى عما وجه إليهم من تهم ، رغم أنى لن أتجنب الحديث فى شأنها .

وأوثر فى هذا المضمار أن أوكد ، أن هذا اللون من الممارسة يشبه كثيرا سواه من المهن التى لم يصقلها العلم والحقيقة . وهذه الممارسة تصير سليمة العاقبة أوسيئتها تبعا لما يمكن أن نسميه بالمستوى الاخلاقى لممارسى المهنة ، أو شرف المهنة نفسه . وقد وضع المحلل الفرويدى نفسه باختياره فى هـذا المركز المزعزع . واعتقد أن هذا الوضع نشأ نتيجة لسيره فى طريق الفروض الضالة ، ومحاباة الناحية «الجنسية» التى يمكننا أن نضيف اليها أيضا مدى الانحطاط الشاذ الذى بلغ الحضيض بابتكار « التحويل » ، وجعله إحدى الوسائل المقدسة .

والمريض لا يحتمل أن يحب أى محلل ؛ وهذا مما دعا إلى اتخاذ التدابير لانشاء « التحويل السلبى » أو النقل ليتبادل فيه المحلل والمريض البغض سواء أكان أيهما من الذكور ، أم من الاناث . (فى مهنة التحليل اليوم سيدات) ، أم كان كلاهما من جنس واحد فى عملية خلط عادلة من الجنسين ، والعلاقات ؛ وفى هـذا

المجال لا يسعنا إلا أن نتساءل كيف يستطيع محلل مشغول فى عدة حالات أن يتتبع كل ما لديه من عمليات « تحويل » ويعرف مدى ما وصل اليه مع كل مريض من مرضاه فى طريق العواطف المستقيم ، أو الملتوى . فمثل هـذا العمل يبدو كأنه يحتاج إلى اكثر من الحصافة الدبلوماسية التى يتمتع بها زير نساء من ذوى الميول المدربة على السطو عليهن) .

والتحويل السلبى أو النقل يمتص قصة البغض فى « غرام الاسرة » أو يعيد عرضها . أما « التحويل » نفسه فانه يؤدى إلى حالة عصاب يحتل مكان العلة الاصلية التى تعد منحلة ومنتهية . ومن الواضح أنهـا تشفى بنفس مبدأ طبيب بيطرى نحرير فى استخدام الدود ، ومن ثم حول علل حيواناته المريضة لتدخل فى دائرة اختصاصه التى يعرف دواءها الاكيد ! فان أردنا تشبيها اكثر احتراما فاننا نجده فى عمليات « مسمر » Mesmer فى المأدبة (وهى كالتحويل فيما يحيط بها من ريب) ، وكانت هذه العمليات تتألف من أحداث أزمات، ثم تسويتها بالملاطفة ، والملاينة ، وايجاد الثغرات . ويظهر أن قاعة أزماته قد وجدت

لها خليفة فى عيادات التحليل النفسى .

« وجهد المحلل من البداية فى سبيل شحن الموقف بالانفعالات يتجه إلى زيادة صبغة بالوان الطفولة ؛ ومن ثم فان ألوان الخيبة والسادية التى منى بها المريض فترة ما قبل التناسل تتحرك من مكانها وتطفو ، فيعمل المريض على ربط كل هذه الانفعالات بالمحلل » ، وهكذا ينشأ التحويل العصابى . وهو القائل أيضاً « أن تاريخ نمو المريض يعاد تمثيله فى غرفة التحليل » . . . فهناك يعاد إحياء « رغبات مضاجعة المحارم وخبرتها وعقباتها » .

ويعاد الاعتقاد الواعى عن طريق الخبرة العقلية بحقيقة أوديب الطفلية بكل ما فيها من قوة ورعب . . وهذا مما لا يمكن حدوثه فى أى مجال آخر من الخبرة البشرية .

ولا شك والحمد الله أن الأمر ليس كذلك .

ولا استطيع أن اختم موضوع « التحويل » بهذه الملاحظة المتسامحة المسلية بشأن نكهته الوهمية ، فإن مذاقه غير مقبول بأى معنى كان ؛ وبما أنه يقع فى دائرة نقدى فان تفاهة طرقه المتبعة

المستمدة من مبدأ سخيف تضع ممارسة التحليل النفسي في مركز قريب جدا من أعمال الشعوذة التي يدعيها من يطلقون على أنفسهم اسم « السيكولوجيين التطبيقيين » الذين يعرفون بأنواع القوة والذبذبات والعواطف المتبادلة بين المشتغل بعلم النفس وبين مريضه أو تلميذه . وهؤلاء أيضا احتضنوا التحليل النفسي واضافوا مسألة التحويل إلى مستودع دجلهم . وعلم النفس الطائش لا يقتصر على صفوف الدعاة والانتحاليين .

التحليل

من الخير أن نصل إلى قاعدة فرويدية تحظى من حيث المبدأ بالقبول في غير تحفظ ، فالدراسة التحليلية عن طريق الفحص العميق للتاريخ الشخصي ولا سيما من حيث ما فيه من أزمات وصراع ، ستظل إسهاما قيما خالدا من البصيرة التحليلية النفسية التي عند فرويد ؛ وعلى أية حال فهي ليست الأسهام الوحيد ، فالتحليل طريقة فنية كبيرة القيمة لفهم أنواع العجز العصابي وضروب النقص الخلق ، في نشوئها ، وفي عملها ،وعند ما تفصح عن أشباهها في النفس العادية السوية .

ولا غنى عن الدراسة التحليلية في هذا السبيل ، لأن معلوماتنا ناقصة عن الأسس السيكولوجية للاضطرابات العقلية بصفة عامة،

وعن العصاب النفسى بصفة خاصة . وقد عرفت الدراسة التحليلية من زمن طويل ، من حيث هى عون على تشخيص العلل ، وكفصل هام فى قصة المريض الدفينة . وكان نصيب فرويد أنه وضعها فى مكانها المناسب فى مجموعة الطرق الفنية المتبعة . وقد تثبت أنواع الصراع ومجالاتها فى النهاية أنها مضاعفات أكثر مما هى أسباب ، وهى أشكال مخارج للسلوك المنحرف وتعبيرات عنه أكثر مما هى المصادر النهائية لذلك السلوك الذى يحتمل فى بعض الحالات أن يكون اضطرابا فى وظائف الغدد (أن أردنا فرضا محسوسا) . وهى على أية حال على جانب كبير من الأهمية . واكتشاف هذه الأعراض المرضية وازالتها يؤلف جـــزأ لايتجزأ من مهمة الطبيب النفسى .

ويعد التحليل الشخصى الطريقة الوحيدة الميسورة لـكشف كثير من أنواع الاضطرابات العقلية الخفيفة والخطيرة ؛ ولايمكن أيضا الاستغناء عنه كعامل مساعد للـكشف عن هذه الاضطرابات واقترح أن نستخدم عبارة التشخيص النفسى Psycho - Diagnosis لتجنب التعقيدات والمضاعفات التى تضفيها قصة فرويد والفرويدية على التحليل النفسى ، والعبارة التى اقترحها محايدة وشاملة لاجراءات التحليل ؛ وتبين هدفها وتنظمها فى صفوف الاجراءات الأخرى

للتشخيص ؛ وتترك وسائل التحليل حرة لتنمو وتصقل وفقا لتقدم المعلومات العامة .

أما المحلل النفسى الفرويدى فانه مقيد بلون واحد من التشخيص النفسى ؛ وهو للاسباب التى ذكرناها غير مقبول فى مجموعه من عدد كبير من الباحثين النفسيين وأطباء الأمراض النفسية . ويرحب التشخيص النفسى بمبدأ التحليل كل الترحيب وسيتحرر خلال نموه فى المستقبل ليضم كل ما هو مستقر مقبول من النظم التحليلية عند فرويد ويونج وادلر والفرويديين الحديثين ومن تبعوهم :

ونلتقى فى برنامج التشخيص النفسى بوسيلة « التداعى الحر » عند فرويد ، وهى أيضاً إجراء ثمين . وقد اتبعها كثيرون من المحللين الذين يعدون أنفسهم فرويديين مع شىء من التحفظ ، ولان مجالها فى عمليات تشخيص الأمراض أكثر اتساعا من طريقة يونج ؛ ولهذه الطريقة أيضا ميزاتها التشخيصية الخاصة . ولكن المسألة تتوقف على استعمال طريقة التداعى الحر بشكل يتجلى فيه الحذق والموضوعية ، وأنا أؤكد اهمية الاثنين معا . ولقد قيل لنا مرات فى عبارات جازمة بأن « الحقائق » تظهر فى التحليل ، وأن من أهم موارده « التداعى الحر » ، ولهذا فإن القيمة

الاستدلالية لطريقة التحليل كلها إنما تكون فى صلاحية أجراء التداعى هذا .

وأنا لا أرضى عنه بالشكل الذى استخدم به ، فلست راضيا عن أسسه ، ولا تعميم استعماله ، فان التداعى الحر كما يسمى ليس حرا كامل الحرية ، بل يخضع فى جملته لتوجيه الموقف الذى يتخذه المحلل ، ولأسئلته ، ووجهة نظره المعروفة ، ثم بعلاقته بالمريض؛ وفرص الايحاء فى هـذا السبيل متوفرة ، وهى تتسلل فى خبث مهما كان الإنسان حذرا . ولست أشير بهذا إلى أشكال الايحاء الفجة التى تنشأ عن العلاقة بين الطبيب والمريض ، والتى خدعت طبيبا نفسيا بارعا كشاركوه ، فجعلته يدعى « اكتشاف ثلاث حالات معينة للنوام المغناطيسى . ولست أشير ايضاً إلى ألوان الايحاء الاولية التى دفعت الدكتورة « ليس Luys » السريعة التصديق إلى « اكتشاف » أن العقاقير الموضوعة فى انبوبة مغلقة إذا ما وضعت على رقبة مريض بالهستريا أو عرضت فى حضوره ، أدت إلى حدوث نفس الاعراض التى تنشأ عن حقنه بها .

وما أعنيه هو أن عملية سبر الغور والفحص العميق يحتمل أن تؤدى إلى تأثير إيحائى أن كان وراءها نظرية ابتسارية ، كما هى الحال فى الحالات التى ذكرت ؛ كما يحتمل أن تؤدى إلى أدراك المرضى لما هو منتظر منهم . ويحتاج تحرير تسلسل خواطر

المريض وانفعالاته وخيالاته من التأثير بتفكير المحلل ومبادئه إلى كثير من الحذر والتحفظ ، والرقابة على شكل التشخيص النفسى .

ومن الواضح أن طريقة التحليل هى أفضل ما وصلنا إليه . وليس لدى ما اقترحه كبديل لها . واعتقد أنها يمكن أن تنق بوسائل رقابة مناسبة لتعطى أدلة يمكن الاعتماد عليها بشأن أنواع الصراع الداخلى وأجهزته مما يحتمل الظفر به . ويؤسفنى أن تعوزنى الثقة بطريقة استخدام الغالبية العظمى من المحللين للتحليل النفسى ، وغزارة أسهامهم فى مؤلفات التحليل النفسى مذهلة : فالأحوال التى ينتقلون بها من المبادىء التى يضعونها إلى تطبيقها تزيد عدم ثقتنا بالنتائج التى يصلون إليها ؛ فخطط العملية صحيحة ، ولكن تنفيذها خاطىء .

ويجدر بالقارىء أن يلاحظ فى عناية ودقة الدائرة المنطقية الاثيمة التى تسير فيها الحجة الفرويدية ، وليكن مثلنا فى هذا السبيل مسألة الأدلة « الأوديبية » ، فهم يزعمون أنها مستمدة مما يقدمه المريض إلى التحليل ، ولكنها ما كادت تظهر حتى فسرت الأعراض المرضية ، والخيالات ، وأنواع القهر ، والعقبات والأحلام ، والسمات الشخصية على أساس وجود عقدة أوديب هذه . فليس هناك من رقابة أو ضبط حتى فى تحليل الحالات

المتحررة من أمراض العصاب مثلا ، وليس هناك من موضوعية ولا معايير ثابتة . ومن المعروف أن قيمة التسلسل إلى النتيجة تقدر بقوة أضعف حلقاتها ، وهذه القيمة مصابة بضعف فتاك هو التدخل الذاتى .

والأحلام بالشكل الذى تعرض به خالية فى الواقع من التدخل ، ولكن « التداعى الحر » بالشكل الذى يطبق عليها يتعرض للاعتراضات نفسها ؛ ويسرى ذلك أيضاً على مسألة تفسير العقد على أنها سمات خلقية . ومع ذلك فإن كلا من طرق التداعى الحر ، وتفسير الأحلام ، وتشخيص الخلق كلها طرق قيمة ، وتنطوى على مبادىء قويمة ، ولكن التطبيق المغرض يجعلها تؤدى إلى نتائج غير صحيحة . وفى رأيى أن وضع نظام لإصلاح التشخيص النفسى فى المستقبل سيلغى جانبا كبيراً من الاكتشافات الفرويدية ؛ وبرغم هذا الإلغاء فإن فرويد سيعد مؤسس طريقة نفسية عظيمة القيمة .

ونعود الآن إلى عامل آخر فى طريقة التحليل ، وهو « العلاج الكلامى » أو « التنفيس » Catharsis ويقصد به كشف العقد واظهارها فى وضح النهار بغية طردها كما لو كانت أشباحاً . وقد اكتشفه فى الأصل « بروير » ، وكذلك أثار السؤال الناجم عنه : وهو « لماذا يتم الشفاء فى حالة الشعور ؟ » وهذا السؤال الجوهرى

تحكم فى توجيه كل اجراءات العلاج النفسى ، ومع ذلك لم يتعرض له أحد حتى من المحللين النفسيين من طائفة فرويد ؛ ولكن « شمالهوزن »[١] Schmalhausen ناقشه فى براعة . و « شمالهوزن » من المشتغلين بعلم النفس وممن يرحبون بالآراء الفرويدية المنسقة فى أوضاعها المنطقية .

ومن العسير عرض رأى شمالهوزن » فى مناقشة مختصرة لأنه شديد التعقيد ، إذ يتضمن الراحة من التوتر ، وحسن التقدير ، وإعادة التربية ، ودفع الفرد إلى التحكم فى عواطفه وانفعالاته عن طريق الموضوعية الذهنية التى تنطوى اجراءاتها على أن مختلف الموضوعات لها قدرة مختلفة وأن تكن محدودة فى العادة . ولكن الناس الذين تتوافر فيهم أكثر من غيرهم يحتمل أن يكونوا أقل الناس حاجة إلى خدمات المحلل النفسى . وليس كل شعور شاف بل أن الحالة التى نسميها بالشعور إنما هى مرض فعلى ، وعمليات التنقيب فى جذور النواحى الحساسة مؤذ ، وهى جميعاً تنطوى على عملية التنفيس أو العلاج الكلامى البسيط عند « بروير » ولكنه نما وتضخم إلى جلسات يومية منظمة تستغرق شهوراً وأعواما

(١) فى كتابه « طبيعتنا المتغيرة » Our Changing Human Nature فى فصل « هل حالة الشعور شافية ؟ » .

وتدر ارباحاً طيبة ، وفى هذه الجلسات تضخم أبسط الحوادث وتحبك لتكتسب دلالة واهية خيالية .

والتحليل الطويل الذى صار دعامة مهنة التحليل النفسى بأكثر من معنى ، إنما هو إسهام أشخاص يعبدون الطقوس . فبأى حق وجب أن تستغرق عملية التحليل عدة أشهر أو سنوات فى المسامرة ، وأن يدفع فيها أجر المحلل بالساعة ؟ ومن الطبيعى أن يثير هذا الاجراء كثيراً من الريب بشأن العلم ، وعما إذا كان وسيلة سخية لجلب الدخل الحسن . وقد علمت وأنا أكتب هذه السطور أن حصن التحليل النفسى فى « فينا » قد اقتضب فترات التحليل بسبب الأزمة المالية . وعلى أية حال ، فالعلم ليس قليل التبصر فى مطالبه كما يظنه الناس .

ويجيبون على هذا الاعتراض بتحويلنا إلى مسألة المقاومة وطبقات التغليف الكثيرة فى اللاشعور . وهى طبقات تجب إزالتها بالتدريج ، وبعناية قبل الوصول إلى النفس « الحقيقية » العارية المتسمة بطابع الطفولة . ويقول أحد المحللين أنه لا يجرؤ على المغامرة بفحص تعقيدات حياة الأحلام قبل الشهر الثالث من بدء التحليل . ولكل محلل وسائله وقواعده الخاصة ، وكلها تعسفية توحى بأوهام هذه الفئة وعبادتها للطقوس .

وهناك أيضاً من يدعون إلى التحليل المختصر ، ولكنهم غير محبوبين من زملائهم فى المهنة . أما آدلر فكان واثقاً أن أقسى العقبات — فى الأطفال على الأقل — يمكن أن تشخص فى جلسة واحدة . وكان من الأفضل عنده أن لا يشاهد المريض ، ولكن ادلر يعد مرتداً كافراً . وعلى أية حال فإن هـذه قصة أخرى . أما نقطة الضعف المركزية فى طريقة التحليل النفسى فهى تعسف اجراءاته القائمة على فروض مغرضة ، وهذا مما يجعل الفرويدية إحدى النحل التى تتبع مذهبا خاصاً له طقوسه ، ولكنها ليست علماً

« حالة فرويد »

من الواجب أن نتخيل بطريقة ما مشهداً لعملية تحليل كاملة ونعرضها فى الصورة العيادية . وتتضمن حالة أى مريض تفاصيل مطولة مملة ، أما تحليل فرويد نفسه فعملية ممتعة حقاً ، ولا سيما أن صراحته فى الكشف عن سماته الخاصة أتاحت له أن يضع نفسه على المشرحة . فمن كتاب تاريخ حياته استخلص أحـــد المحللين المواد اللازمة لكتاب « عقد فرويد الدرامية[1] .

The Tragic Complex of Freud

(١) مؤلف هذا الكتاب هو « تشارلس مايلان » Charles E. Maylan من مدينة ميونخ وقد طلب إلى فرويد أن يتقبل كتابه العدائى بروح الصداقة الأبوية. وهذا التقبل غير محتمل الحدوث لأن موضوع الكتاب انتقى مسائل مثيرة =

ويقول « مايلان » مؤلف هـذا الكتاب إن المأساة تتفق فى كل تفاصيلها مع الدراما التحليلية النفسية التى ينطوى عليها « غرام الأسرة » فهى تبدأ فى الطفولة — وقد خلقت الصدفة التى حدثت له فيها ندوباً نفسية دائمة . وتلك هى العقدة المحزنة ؛ فعندما كان الغلام « سيجموند » فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره ، قص عليه والده ما وقع له فى يوم عيد بحى اليهود . وكان هدفه أن يوضح له فى جلاء كيف أن عهده أفضل من عهد والده . قال الأب « عندما كنت شابا ارتديت أفضل ملابسى فى مساء يوم سبت ، وكنت اسير على افريز الطريق ، فأقبل مسيحى ، وطوح بقبعتى المصنوعة من الفراء ، وألقاها فى الطين ، وهو يصرخ . ابتعد عن الإفريز أيها اليهودى » .

وكانت معرفة فرويد بأن والده « القوى » استسلم بغير أى احتجاج على هذا الاعتداء المشين سبباً فى

= للبغضاء ، ويجد لذة خبيثة فى الحط من شأن التفسيرات المختلفة . وإذا ما نظرنا اليه من حيث هو مثال يوضح الفضائح المحتملة ، فان الكتاب يعد شرعياً إذا ما قورن بكثير من حالات التحليل التى لقيها المرضى على أيدى ممارسى التحليل .
(المؤلف)

نشوء صراع فى نفس الابن الذى كان يخشى والده بقدر ما كان ينقم منه ويكرهه . وأدى به التأمل فى هذا الحديث مع ما يعتمل فى نفسه من التناقض العاطفى الذى جعله التحليل النفسى من السمات البارزة — أديا إلى نمو الخيال « الهانيبالى » أو التعاون معه ، وفيه كانت روما عدوة هانيبال[١] الذى تقمص فرويد شخصيته . وكانت روما تعد رمز المسيحية بما تضم من منظمات قوية تقف كلها على طرفى نقيض من اليهودية المتواضعة . وقد لازم هذا العداء فرويد فى حياته حتى أنه عند زيارته لإيطاليا رفض أن يزور روما الممقوتة وسافر مباشرة إلى نابولى .

وفى مناسبة أخرى زار فرويد روما ، فأخذ بالنظرة العابسة التى رسمها الفنان ميشيل أنجلو لتمثال

(١) هانيبال Hannibal (٢٤٧ — ١٨٣ قبل الميلاد) وهو من أشهر ملوك قرطاجنة ، ومن الغزاة الفاتحين . وكان قد أقسم وهو إلى جوار فراش موت والده أن لا يكن لروما إلا كل عداء . ونازلها بالفعل فى عدة مواقع عسكرية هامة بعد أن اجتاز جبال الإلب فى حركة حربية بارعة خلدت إسمه فى التاريخ . وقد توغل فى إيطاليا مسافة طويلة ، ولكنه لم يتمكن من مهاجمة مدينة روما نفسها ، فان حاكمها كان مراوغاً شديد الحذر حتى أنه آثر ألا يشتبك مع هانيبال فى معركة حاسمة . وأخيراً اضطر هانيبال إلى العودة إلى أفريقيا بسبب المنازعات التى نشبت فيها . (المترجم)

موسى : فهو فى رأيه يمثل تهديد الأب ، وهو التهديد المعروف عنده بعقدة الخصاء . وقد ظهر تمثال موسى « لميشيل أنجلو » كشيء مجهول ، وهذه مسألة كبت لها دلالتها ، فإن تحليـــل فرويد لوقفة التمثال تدل على الخطيئة الكامنة فى ضمير فرويد ، رغم أنه كان فى الثامنة والخمسين من عمره ، وهذه الخطيئة تكشف عن آثامه الجنسية فى صغره ، فإن سبابة اليد اليمنى لتمثال موسى كانت تمسك بالجانب الأيسر للحيته وتوجهها إلى ناحية تلفت النظر إلى اللوحة اليسرى للوصايا العشر ، وما هو يسارى فى عرف فرويد هو المحظور ؛ ومعنى هذا الوضع الفنى للتمثال فى رمزية التحليل النفسى هو أن اللحية تمثل الأم ، والرأس يمثل الأب ، وأن رغبة الإبن فى أمه ، ثم نظرة الخوف الدالة على الخطيئة فى مواجهة لوم الأب وتقريعه هما مبعث التأثير الانفعالى فى التمثال .

وفى مناسبة أخرى تقمص فرويد شخصية « هاملت » [أحد أبطال مسرحية الشاعر الانجليزى شكسبير وكان والده يظهر له كشبح يطالبه بالثأر

لمقتله] إذ كان شبح والد فرويد يتدخل فى حياته ، فينزل به رعباً يشل حركته ، ويحدث به صراعاً عصابياً . ويتكشف سر حياة فرويد الخاصة ، ومهنته ، وما يقال عن نظامه الموضوعى فى التحليل النفسى ، فتعرض كلها بشكل يجعلها تفصح عن وجود مركب درامى يتألف من أوديب ، وهانيبال ، وهاملت ، والتشيع للسامية ، وتأييدها ، وعقدة التضحية ، وكل ما فى هذه العقدة من حقد مرير ، وحب فى الانتقام . وهكذا تضاف الأحداث الواحد إلى الآخر مما يقع فى الحقيقة أو فى الحلم : وفى عالم الواقع أو فى عالم الخيال ، ثم تفسر من الناحية الجنسية أو بالتحقير من أمرها .

ويُفسَّر كتاب فرويد « الأنا والهو » على أنه عملية انفعالية عصابية لتبرئة ساحة الذات ، وفيه يمثل « الأنا » فرويد ، ويمثل « الهو » أمه ، والجزء الهام فى الكتاب هو « الأنا الأعلى » ، ويمثل الأب ؛ وعدم ضم « الأنا الأعلى » إلى المجموعة هو كبت يدل على رغبة فرويد فى أن ينفرد بأمه ، ولو على صفحة

عنوان كتاب[1] والواقع أن تدبير صف حروف الطباعة كان بطريقة ماكرة خبيثة حتى أنه لم يخلف فراغاً لإضافة لفظة أخرى .

وفى هذا المجال يتلاقى التحليل الجدى ، مع التهكم المغرض الخبيث ، والمعارضة الساخرة ، فيسير كل منها كالآخر حتى يتعذر تفريق حالة عن الأخرى ، ومن ثم نعثر على العقد فى كل مكان . حتى اختيار فرويد لمهنته لم يكن مسألة تقدير عقلى ، بل جاء نتيجة عاطفة عميقة ، ومرض نفسى شخصى ؛ أوبعبارة أخرى جاء نتيجة لتدخل شيطانى من « اللاشعور » . وهكذا نجد أن الدافع الذى حفزه إلى احتراف الطب يحتاج إلى تفسير . وهو يقول «بعد مرور إحدى وأربعين سنة على ممارستى للطب دلتنى معلوماتى عن نفسى على أنى لم أكن طبيباً حقيقياً فى الواقع » . ويقول عن فترة اتخاذه لقراره ، «لم أكن شاعراً بالحاجة إلى معاونة البشرية فى آلامها ، فإن ميولى السادية لم تكن قد ظهرت ، ومن ثم فإن السمات التى تستمد منها لم تكن تتطلب أى نمو » .

(١) يلاحظ القارىء أن فرويد أطلق على كتابه « إسم الانا والهو » ولم يضف اليه إسم « الانا الأعلى » (المترجم)

وتبعاً لهذا المحلل فإن الباعث الفعلى لدراسته للطب كان رغبة منه فى الظفر بما يرضى فضوله بشأن مايدور فى الحياة الخاصة بين والديه ، إرضاء مؤيداً بالأدلة .

وخلاصة الموقف أن فرويد . وكل أعماله ؛ ليست انتاجاً ناشئاً عن براعة علمية ، أو فضول ذهنى ؛ ان هذه الأعمال فى جوهرها إنما هى انتاج فرعى نشأ من عداوة فرويد الخاصة لكل ما هو عظيم ومرح وحر ؛ فهى نتيجة حقده على والده وكل من يشبهه ، ثم بغضه للمسيحية و« يهوه »[1] بسبب اليهودى التائه . وإذا ما تحدثنا مستندين إلى النصوص المقدسة ، وإلى التحليل النفسى فى وقت واحد ، فإن هذا الانتاج « نشأ عن رغبة اليهود الملحة فى تحقيق الوعد البعيد المنال ليرجعوا إلى الأرض الموعودة » ، المعروفة جيدا لهم ، ولكنها ظلت مرحلة « تناسلية » . ولكنها بعيدة المنال : فيراها مركب « موسى - فرويد » من بعيد مكتفياً بأن يرشد إليها الشعب اليهودى دون

---

(١) Jehovah يهوه : أحد أسماء الله عند اليهود وهو مذكور فى التوراة . (المترجم)

أن يدخلها موسى[١] أو فرويد بسبب الخطيئة الوراثية التى ظهرت كحب جنسى يتمثل فى خوف رهيب من الأب ، واتجه إلى الأم ، ثم انحرف ، وتحول إلى ممارسة العادة السرية .

والغرض من ذكر هذا المثل الفج الطائش من التحليل هو أن نوضح ضروب التلاعب المختلفة بالألفاظ والحقائق عند قراءة بواعث اللاشعور ودلالاتها ؛ ومعنى هذا أن قليلين منا سيكونون أفضل حظاً أن هم عنوا بتسجيل بواعثهم الدفينة ، وألوان سلوكهم فى لحظات الغفلة المختلفة . وهذا يعزينا عما نحس به من غموض . حقيقة أننا جميعاً نعيش فى بيوت من زجاج ، ويحتمل أن نغتبط لأن الأشعة الفرويدية لا تخترقنا وتتغلغل فينا إلا بموافقتنا ورضانا .

ومن الواضح أن الهر « مايلان » يعد أشد تطرفا ، وأقل احترازا مما لا يمكن أن يكونه ممثل للحركة الفرويدية . ومن الجلى أن هدفه الظاهر هو الاستهانة بأمر فرويد ، ولكن من العسير أن نجد منطقه أكثر تكلفا من منطق فرويد فى بعض الحالات ،

---

(١) تروى التوراة أن موسى لم يدخل أرض فلسطين ، وإن كان قد رآها من بعيد لأن الله حرمه دخولها بعد أن كسر لوحة الوصايا العشرة حين غضب على قومه لعودتهم إلى عبادة الأصنام (المترجم)

ولا سيما حين يشرح فرويد نظامه لمرضاه ، وحين يطبقه على نزواتهم الخاصة ، أو على متاعبهم . وعملية تشويه شخصية فرويد بيد أحد النقاد المغرضين ليست فى جوهرها اكثر شناعة من السب العلنى الذى وجهه فرويد إلى البشرية ، وهذا ما أرفضه على أسس من علم النفس العلمى لا على أسس أخلاقية .

ومجال هذا النقد هو تحدى المبادىء الفرويدية ، فان كانت سيكولوجية فرويد خاطئة ، فان خطأها يشيع فى كل ما أنتج فرويد ، لأن الدافع على نشوء مشروعه كان القول بأن علم النفس لديه مفاتيح الاضطرابات العقلية . ومصير الطرق الفنية التى استخدمها فرويد يتقرر بالمبـــادئ التى قامت عليها . ولقد ركزت اهتمامى على معتقدات المحلل وأسبابها ، لأنها تؤثر على تصرفاته حيال المريض . وطرق التشخيص النفسى يمكن تطبيقها بحرية على الشخص السوى العادى ، وعلى سماته الخلقية ؛ كما تطبق أيضاً على المريض العصابى . أما مسألة العلاج فمشكلة أخرى ، فأن الطرق التشخيصية هى التى تسود سيادة تامة فى الأجراءات العيادية ، وبهذا يستطيع الانسان أن يميز فى الحال أنه سيجد من يصغون إلى فحص التحليل النفسى . ومن ثم نصل إلى نقطة التقاء المبادىء وتطبيقها ، أو بعبارة آخرى إلى نقطة التقاء هندسة البيت الذى بناه فرويد بالاعمال التى تجرى فيه .

وتقع على عاتق الخاص نتيجة حكمى على محاسن كل منهما وهذا الحكم يتخذ هيئة نبوءة بمستقبل هذه الحركة الخطيرة فى التاريخ الذهنى . وسأبدأ نبوئى بالوجه الخاص بالعلاج ، وبالمزاج السائد فى عمليات التطبيق ، فإن المبادىء والحجة والوسائل والعلاج كلها من طبيعة متساندة . وهنا ينتهى مافى جعبتى .

ولقد رأيت أنه من الهام إن أعرض منظرا عاما لمجموعة البناء الفرويدى بما يضم من ابتكارات رائعة ، وبما فيه من تحد لعلم النفس المعاصر . ولما وضعت الفرويدية فى الميزان ، وجدتها تنقصها المادة التى تجعلها طبيعية ؛ فعن طريق هذا النقص ، وبمعونة التحرر من السبل المنطقية الجوهرية التى قامت على أساسها العلوم الطبيعية صارت الفرويدية قلعة من الأوهام . ورغم تناقض النتيجة — وهى ظاهرة ليست فريدة فى نوعها — وأن تكن جائزة فى مضمار الاهمية ، فاننا نجد كنزا ثمينا فى قصر التيه الفرويدى ، ومسالكه الملتوية . وهو كنز جدير بأن نواصل البحث عنه باستمرار .

الباب التاسع

مستقبل فرويد

المـــزاج

إن القوة التى دفعت حركة التحليل النفسى إلى موجة عاتية من الظفر بانتباه السواد الأعظم من الناس والتى خلقت لها عدداً كبيراً من الأتباع ممن لم يقنعوا بالسبل التقليدية واتجاهاتها ، هذه القوة تكمن فى التوجيه الصريح للأدوات السيكولوجية الفاحصة بغية حل مشكلات العلاقات البشرية الجمة الملحة . وسواء أكان التحليل النفسى خاطئاً أم مصيباً فى نتائجه ، وضعيفاً أم قوياً فى حجته ، وناجعاً ، أم قاصراً ، أم مدمراً فى تطبيقه ، فإن رسالته كانت انسانية إلى مدى واسع . ولقد عرض التحليل النفسى على أنه منهج للنجاة والخلاص . وبغير هذا الإغراء ، فإن علم النفس ذاته ما كان ليظفر بمكانته الحالية من التمجيد والإجلال .

ويظهر أن رسالة فرويد كانت تدعو المرء وتقول آمن وبرهن فى نفسك بالذات ، تظفر بالراحة والخلاص ، فالأمل فى المعونة الشخصية كباعث ودافع نفسى أقوى وأكثر تغلغلا وانتشاراً

من التحمس للفهم والغيرة على حسن الإدراك ؛ فمن يحسون بالعقبات الكأداء تعترض سبيلهم ، ومن يشعرون بالخطر النفسى المؤلم ، سيستمعون لأى صوت ، ويشتركون فى أى مشروع يعدهم بفك قيودهم ؛ وأولئك الذين لم يتلاءموا مع بيئتهم ، وفى الوقت نفسه يحسون بانحرافاتهم مستعدون لتقديم كل تضحية ليتساووا مع غيرهم ؛ وأولئك البائسون والمنزعجون واليائسون يحنون ويتحرقون شوقاً إلى السعادة ، ويشتد حنينهم حتى أنهم ليبذلوا آخر قطرة من جهدهم .

ولقد جاءهم العلاج الموعود فى التحليل النفسى ، فكان أحدث أنواع العلاج وأقواها أملا ، وأكثرها أطلاقا للمرضى من أسر أنظمة العلاج التى سجلها تاريخ علاج الامراض العقلية . وكان موقف التحليل النفسى من الاتجاهات المعاصرة فى علم النفس هو اللوم والتحدى واعتبارها فاشلة ، وفى حاجة إلى تكملة ؛ أما تصرفاته الفعلية ، فانطوت على تجـــاهل تلك الاتجاهات فى غير لباقة .

ولم يكن للتحليل من صلة مباشرة بالاغراض العملية المتجهة لدراسة مدى القدرة البشرية بواسطة علم النفس التطبيقى ، ومن ثم فلم يحدث بينهما صدام ؛ ولكن هذا لم يكن إلا فتات المأدبة . وكانت الحلول التى عرضها المذهب السلوكى تسعى أيضا إلى نيل التقدير والاستحسان الشعبي بالدعوة لفكرة خفض عملية التلاؤم

مع البيئة إلى براج الافعال المنعكسة الشرطية . فكان من الضرورى أن تجده غريبا بعيدا عن المطلوب ؛ وعلى هذا وجد السلوكيون أن تعاليم التحليل النفسى غامضة ، وخيالية ، وافتراضية إلى حد بعيد . حتى مبادىء الصحة العقلية القريبة منه — كما مر الحال فى صلاتها بمجالات علم النفس المتصلة بها — فان التحليل النفسى لم يتخذ أية خطوة فى سبيل التوفيق بينه وبينها .

وكان موقف التحليل النفسى من طب الأمراض النفسية عدائياً رغم القرابة الواضحة بينهما ؛ وكان بكل صراحة يعرب عن اشمئزازه من قريبه غير التقدمى . وامتدت الخصومات بينهما حتى تناولت العقل وأمراضه ، ووصلت إلى الذروة فى العمليات التطبيقية . وكان التحليل النفسى حدثاً جديداً فى تهجمه ، وثوريا فى اجراءاته ، ومطلق الروح يفكر ويعمل كما يشاء ؛ وهذا هو الذى قرر مزاج المعركة الكلامية . ومن طريقة استقلال هذه الحركة فى ماضيها وحاضرها ، يجب أن نستخلص معياراً لتقدير مستقبلها . واصطدام الفرويدية بالنظم المستقرة يعد أساساً للتنبؤ عن هـــذا المستقبل ، ويضع العلاج التحليلى النفسى فى الخطوط الأمامية للهجوم والدفاع .

ولقد سارت الفرويدية فى طريقها الخاص منذ نشأتها وفى

أيام كفاحها المر حين كان أنصارها قلة متناثرين ، وظلت محتفظة بحريتها حتى بلغت أوج عظمتها ، فكانت تتناول بعض المشكلات والاهتمامات التى كان علم النفس الاكاديمى ينظر اليها شذرا ، ولكنه كان فى الغالب يهملها ; وقليلا ماتحدث علم النفس المألوف عن الاحلام والفلتات وأمراض العصاب . وكان ثانى الاسباب الهامة لما خلفه التحليل النفسى من أثر ، هو تمييزه لعلم « نفس الأعماق » ، وذلك منـــذ ظهر وصمد لمقاومة الاكاديميين الذين هاجموه ، فالتحليل أوثق صلة بالنفس من تحليل العوامل العقلية وتركيب عناصر العقل .

وبهذا قدم التحليل النفسى لعلم النفس مركزا جديداً من المرجح أن يحتفظ به ; فالتحليل النفسى فى جملته سيبقى ، من حيث ما يرجى منه ، ومن حيث ما ألقاه من أضواء . وسيظل العمل الذى بدأه فرويد نقطة تحول فى تاريخ علم النفس ، وفى زيادة المعلومات عن منابع السلوك البشرى ، وكيفية إدارتها ، وضبطها . وهذا المستقبل مضمون لفرويد ، ومن الجائز أن نتنبأ به .

والمزاج الذى وجه الحركة الفرويدية فى الماضى والحاضر عامل هام فى التنبؤ عن مستقبلها ، وخاصة عن المستقبل القريب ؛ فان تصرفات المدعى عليه ، كما هى الحال فى المحاكات القضائية ، لها قيمتها إلى جوار أدلته وحججه . وستظل قضية الفرويدية تعرض

للحكم المرة بعد المرة رغم أنها غالبت حركة التحزب ضدها لمنع النظر فى أمرها فى حياد وعدالة . ورغم ما تتمتع به من سعة الانتشار فى السنوات الاخيرة .

والرأى العام المعاصر يتألف على أساس الخبرة الشخصية ، وانتشار ما هو حسن ، أوسيء ، من فم إلى فم . وهو يسير فى هذا الطريق إلى أن يصدر حكمه ، فتقوم السمعة على أساس أنواع العلاج أكثر مما تقوم على النتائج المنطقية . والحركات المماثلة للحركة الفرويدية تنتعش وتضمحل بحسب مدى أنتباه الشعب اليها ، وانصرافه عنها لاسباب غامضة يصعب تحديدها . ولهذا فانه من المناسب أن نقدر المستقبل أولا وفقا لمدى تأثره بالنجاح الذى تلاقيه عمليات ممارسة التحليل النفسى ، ووفقا لصداه فى البيئة العامة المحيطة به

وتلهج السنة أكثر المعتلين بالشكر إذا ما ارتاحوا من عللهم دون أى فحص أو اختبار انتقادى للنظريات التى شفوا بها . وأى مطلع على وسائل العلاج سواء أكانت ناجحة أم فاشلة — ومنها تلك الادوية المزعومة ، والعلاجات السخيفة التى يذيع أمرها بين الناس بواسطة الدعاية البراقة التى اتسم بها العصر الحاضر — فانه ليس فى حاجة إلى من يخبره بأن الاساس العلمى لأى نظام علاجى ، إنما هو أقل العوامل أهمية فى هذا الشأن . وينشأ كثير

من هذه النظم — وهى تؤلف مجموعة خاصة — على هدى التجارب والخبرة فى أثناء الممارسة لانها تعطى نتائج أيجابية فيما يبدولنا .

ومن الجلى أن هذا لا يصدق على حالة التحليل النفسى الذى ينتمى إلى مجموعة النظم العلاجية التى تستمد أجراءاتها كلها من نظرية نشأت فى أصلها وفى مراحل نموها من ايحاءات صدرت عن الملاحظات التى يتم الحصول عليها فى العيادة الطبية . وفى هذا المجال يقول مبدأ سيكولوجى ملائم : أخلق اعتقادا فى النظرية تخلق الحقائق نفسها . وقيمة هذا الرأى تختلف بالنسبة للتحليل النفسى عن قيمته بالنسبة للروحانيات ، ولا نزاع فى أن تقدير التحليل النفسى تقديرا وافيا ، وذا أثر ناجع سيكون على أساس المبادىء التى يقوم عليها . ومع ذلك فسيظل مصيره معلقا على ما يوفق اليه فى نواحيه التطبيقية نحو عشر سنوات أو أكثر . ولا أملك إلا أن أكرر بأنى لا أرى فى هذا السبيل ما يدعمه ، بل أرى كثيرا مما يضعفه ، فأزمة التحليل النفسى قريبة الحدوث حين تصل موجة نقده وتقديره إلى ذروتها ، بل أن النقد الذى أقدمه الآن أنما هو من وحى هذا الاعتقاد .

ولقد ظهر العلاج بالتحليل النفسى فى برنامجى فى هذا الكتاب لانه يوضح بعض وجوه التعاليم الفرويدية ، ومنها عملية التنفيس أو العلاج الكلامى ، وهى إجراء قديم عرفناه فى مسألة الاعتراف

الديني . ولهـا فائدة راسخة ، فإن «العقول الملتاثة عندما تبث أسرارها إلى حشية نومها الصماء ، تستطيع أيضا أن تتخلص منها بطريقة أقوى . وأكثر تأثيرا ، بالافضاء بها إلى مستشار حصيف .

وفى عمليات الفحص الفرويدية تحول الاهتمام إلى الكشف عن العقد ، وهذا بدوره تحول إلى البحث عن أنواع التوقف فى مراحل الطفولة ؛ وكذلك تحول العلاج إلى القضاء على المقاومة أو إلى مداورتها ؛ ثم تحول مرة ثانية عندما أدخل مسألة العلاقات المعقدة الخاصة « بالتحويل » . وفى كل من هذه التحولات زاد تغلغل اجراءات العلاج فى المقدمات الافتراضية . وفى رأيى أن هذا أبعده عن القاعدة السليمة التى يمكن تحقيقها . وعن أن يكون فناً له مستقبله .

وهكذا صارت الاجراءات موضوع نزاع ونقاش . ودخلتها البدع . وأثار الموضوع المنازعات والمناقشات — وهى مناقشة خطيرة فى نتائجها — فتناول الناس مدى خضوع اجراءات إعادة تكوين الخلق ؛ والتلاؤم مع البيئة — ونحن جميعاً نتفق على هدف العلاج — إلى العامل الذهنى الخاص بالتذكر ، وإلى أى مدى تحتاج إلى عامل الانفعال الخاص بأن يحيا الإنسان تلك التجارب من جديد ، فيفصح عنها ، ويستبدل ما يرضيها بغيره ، أو أن يستسلم لنفوذها .

وقدم لنا « فيرنزى » « علاجاً فعالا » حدد فيه أوجه نشاط معينة تعمل على إطلاق البواعث النفسية المكتومة ، وهذا يتفق مع المبادىء المقررة للصحة العقلية . ولكن ما قدمه « فيرنزى » كان حافلا بالفروض الخيالية مما أخرجه من نطاق الأمور المعقولة . وكذلك قدم « رانك » نوعا من الفوضى عندما جعل كل ألوان العلاج الخاصة تتوقف على نظرية « إعادة إظهار الحالة التى داخل الرحم » . ومن الواضح أن الأمل ضعيف فى الوصول إلى علاج منطقى ثابت فى هـــذا النوع الكثير النزاع من التحليل النفسى .

أما « يونج » ، فيؤلف اجراءات علاجه فى اتجاه مختلف كل الاختلاف . فإذا انتقلنا إلى « أدلر» فإنا نجده يخرجها من مجال التحليل النفسى ، رغم أن هذه الاجراءات موجودة فعلا فى العلاج النفسى العام . والتغيرات التى استحدثها تعد ذات أهمية عظمى ، فهو يجعل العلاج النفسى قوى الصلة بالبرنامج الأخلاقى التربوى ، ويدمجه فيه إلى حد كبير حتى أنه ليفقد مميزاته ، ويتخذ مظهر دعوة تبشيرية ؛ وهذا الاتجاه ينتشر انتشاراً كبيراً ، ويصير أشبه بالطقوس الدينية . وهو يصر كذلك على اتباع طريق واحد ،وحل معين للصعوبات العصابية ؛ وهذا الحل جعل الشعور بالعظمة — وهو دائماً ما يخفى النقص أو يكون تعويضاً جيداً ،

أو سيئاً له — هو الأساس العام الشامل : وهو أساس ضعيف قلق . وغالباً ما يكون عديم القيمة ، سيء التكوين شأن أى دواء يوصف لشفاء جميع الأمراض .

وخطأ موقف أدلر جسيم فى أنه يبسط بطريقة خاطئة مشكلة من أكثر المشكلات تعقيداً ، حتى أنها لتكاد تفقد كل مادتها وقوتها ، ولا تترك إلا القليل الغامض مما لا يمكن تناوله أو استخدامه كأساس للعلاج . فليس فى وسعك أن تحول مهربا إلى مبشر دينى مخلص بمجرد لفت نظره إلى « نمط حياة » خاطىء صحب تربيته بوصفه أكبر فرد فى الأسرة . وفى هذا المجال يسود اتجاه النحلة الطقسى مرة أخرى ، ولكن ناحية واحدة مرموقة من النواحى التى تأكدت ظلت باقية . وإذا ما سرنا فى الطريق الدائرى عند أدلر ، فإننا نصادف أولا « النقص العضوى » ثم « النقص النفسى » ثم « التعويض » ثم « نمط الحياة » الذى يسود . ومن هذا الطريق الدائرى أكد أدلر أهمية « الهدف » واعتبره كالدليل المرشد للعلاج ، وعليه حشد كل وسائل علاجه .

ونتج عن هذا علم نفس « أهداف » يؤكد أهمية « الغايات » ويتناقض مع علم نفس « الدوافع » الذى يوجه اهتمامه إلى « المنابع » : ولا ريب أن النهايات ضرورية ولا غنى عنها . وفى مجال علم النفس « الحديث » لا توجد فكرة واحدة ذات نتائج جوهرية أكثر من هذه الفكرة . ولا يمكن لأى علاج أن يستمر بطريقة فعالة

منتجة بدون التركيز على الأهداف ؛ وسيوجه علم النفس فى المستقبل اهتماما متساويا إلى كل من الأهداف والدوافع . وأنى أقدم هذه الصورة عن حالة علاج الأمراض النفسية لأبرر تقديرى الضعيف لهذه الناحية ، أما العلاج فى المستقبل فسيعتمد على ادماج منطق للمبادىء التى تبدو اليوم بالغة الفوضى والتناقض .

وسيتحول التيـــار وفقاً لتحول الاهتمام الشعبى بطريقة مشروعة بفعل ما يحققه العلاج بالتحليل النفسى . ويجب أن نعى فى عقولنا الخبرة العيادية فى مجال أمراض العصاب النفسية بصفة عامة . وإذا ما قدرنا الحالات الاستثنائية ، فلهذه الأمراض فترة حددتها بنفسها ؛ فلها فترة حضانة تكثر فيها المتاعب ، وأنواع القلق ، وتفاقم اليأس والارهاق إلى أوجه ، وأن تخللته حالة تذبذب ؛ ثم تأتى فترة استسلام ، ونقه ، وتدرج فى استئناف ومزاولة حالة الانسجام السوى العادى بأوضاعها ؛ فالنموذج يشبه تدفق الموجات وانحسارها ، وهو يختلف باختلاف الأمزجة ، وبين الفترة والاخرى ، يحدث فيه تحول مفاجىء ، ولكن المريض يجتازه .

وجدير بنا أن نقدر بواعث الراحة الواضحة الناشئة عن التأكد من أن متاعب المريض تبحث بطريقة جدية ، فإن هو

انسجم مع هذا اللون من العناية ، ظفر بالارتياح المشجع ، إذ يجد نفسه مركز الاهتمام ؛ وإذا ما أدخلنا فى حسابنا الفترات الطويلة التى تحتاجها عملية التحليل، ثم قدرنا الاستعداد وهو — فى الواقع — قابلية الايحاء فى بعض الوان الأمراض العصابية (الهستريا) ، ثم قدرنا أيضاً أنه لا يوجد نظام لا يتضمن خطات فعالة من الناحية العلاجية أيا كان اتفاق هذا النظام أو تنافره مع النظم المنطقية : والواقع أنه لا يوجد نظام علاجى أيا كان بعده عن المنطق العلمى أو استحالة تنفيذه إلا وهو ضار ، ولكن هذا لن ينفى أن له أرقاما واحصائيات تبين قدرته على العلاج واحداث الشفاء ؛ إذا ما قدرنا كل هذا وسخونا فى تقدير النجاح الفعلى الذى ظفر به التحليل النفسى فإننا لا نجده أعظم أو أفضل مما قدر له .

ولا ريب أنه توجد حالات كثيرة تتلاءم مع مختلف طرق التحليل النفسى فى أشكالها الدقيقة المحبوكة . أما القول بقابليته للتطبيق على أمراض العصاب عامة ، أو على مجموعة منها بنوع خاص ، فهو أحد الاجراءات الكثيرة التى أقيمت على نظريات مختلفة أو أفكار تعسفية صريحة . وفى هذا السبيل يقول « هولنجورث » «أن فرويد أخفق فى أن يوضح سبب نجاح طرق العلاج الاخرى المغايرة لوسائله . وإذا كانت نظرياته تعرض

وفقاً لعلاجه، فماذا سنقول عن نجاح العلاج الذى سجله « بابينسكى » وهرست وروزانوف[1] وهم من غير الفرويديين بلا جدال » .

ولا يوجد فى الخبرة العلاجية ما يبرر الوسائل الفرويدية أو يدحض متناقضاتها وعدوانها على النظريات القويمة أو المعلومات المستقرة . ويجدر بنا فى هذا المجال أن نكرر أن معلومات كثيرة عن أنواع أمراض العصاب النفسية المختلفة ، والعوامل الكثيرة التى تؤلف صورها المتباينة — كثير منها معلومات حديثة — قد تجاهلها فرويد تجاهلا تاما . وفى هذه الدراسات المتنافسة تقبع لمح ايجابية تفسر بالضبط الظواهر التى لفتت نظر فرويد ، وفيها كثير من المقنع إلى حد كبير .

ولن نظفر بمعيار نزن به الصلاحية الفعلية للتحليل النفسى إلا إذا أعلن المحللون النفسيون على اختلاف مذاهبهم إحصائيات محايدة دقيقة عن حالات فشلهم ونجاحهم ، وهو اجراء لا يُحتمل تنفيذه فى حركة التحليل النفسى الآن لما يغشاها من تعصب كل مذهب لشيعته . وأفضل أن أترك مسألة الحكم فى هذا الموضوع إلى المحترفين فى علم الأعصاب والطب النفسانى .

ولكنى لا أعفى نفسى من نقد أرى ضرورة تقديمه وتأييده . وهو الاعتراض المألوف القائل بأن إنسانا لا يستطيع الحكم على

---

(١) Babinski, Hurst and Rosanoff.

نظام التحليل النفسى ، وتقدير مزاياه إلا إذا مارسه مدة طويلة بصبر وجلد ، فعاش فيه حتى صار جزءا شديد الصلة من مهنته . وهذا دفاع أعرج ، ونوع من المراوغة يستخدمه أنصار الشيع والنحل والشعوذة باستمرار ، كما يذكر المنجمون أن فى الأرض والسماء أكثر مما تحلم به فلسفاتنا . غير مدركين ما تحاول هذه الفلسفات أن تفسره على أساس من العقل والمنطق .

وتوجد عدة مهن مربحة تبرر هذه التضحية المنطقية ، ولكن الناقد العميق ، صاحب النظرة الفاحصة ، يستطيع من برجه المنعزل أن يرى ما يحقق فائدة . ولو ضوعفت حياتى تسع مرات، وفقاً لما تردده بعض الأقوال ، فإنى لن أحس بأى التزام لكى أخصص حياة منها لممارسة كل من علوم فراسة الوجه ، وفراسة تضاريس الرأس ، والتنجيم ، وعلم الاعداد ، وعلم الشفاء بالإيمان و « الفكرة الجديدة » ، وعلاج الداء بمثله ، وقراءة خطوط الكف ، والتحليل النفسى الفرويدى ؛ لو تكررت حياتى تسع مرات فلن أغامر بواحدة منها فى ممارسة أى من هذه العلوم بغية تبرير الوصول إلى تقدير القيمة الجوهرية لمبادئها وتطبيقاتها ، أو بغية أظهار ما تعرضه من عدوان أثيم طاغ على المنطق والسلامة العقلية .

ومن الواضح أنى لن أستطيع تدوين هذا الكتاب أن كنت أومن بغير هذا . ولا أستطيع أن أوافق بأية حال من الأحوال على إخلاء سبيل أولئك المؤيدين والانصار من التزامهم ووجوب اثباتهم نظرياتهم بما يرضى قضاة من ذوى العقول العلمية . ولا ريب أن عرض الدليل والحجة هو الذى يبرر صدور أى حكم .

وقبل أن نترك هذا الموضوع يحسن أن نتناول عاملا آخر ، باعتبار التحليل النفسى علاجا هدفه تخفيف الآلام عن طريق الاعتراف بحقيقة العلل النفسية . وهـــذا العامل هو علاج رجال الطب لأمراض العصاب النفسى بشىء من الاستخفاف والتهاون . ويظهر هذا العامل بجلاء فى علاجهم الاشكال الخفيفة للمرض مما يحدث لأكثر الناس فطنة وأرجحهم عقلا ، رجالا كانوا أو نساء ؛ فإن كثيرين من ممارسى الطب فى مختلف فروعه تصرفوا كلهم بغير فطنة أو حصافة حيال المرضى الذين تقدموا إليهم ، وليس فيهم أثر لاضطرابات عضوية ، فعندما فحصوا أعضاءهم لم يعبأوا باخفاء تعبيرات العطف والرثاء والتعالى والسخرية .

وكثير من الأطباء يعالجون حالات واضحة تثير فيهم اهتماما خاصا بها لأهميتها، ولكنهم يفشلون فى تمييز مراتب الذكاء والضمير والشجاعة بين مرضاهم ممن أمضوا ساعات طويلة من القلق والآلام وهم جالسون فى غرف انتظار كئيبة لا أثر فيها لما يبهج.
ويروى أن طبيباً مشخصاً كبيراً فحص مريضاً له مركزه الخطير دون أن يجد فيه أى أثر لمرض، وعند انصرافه شيعه بملاحظة أبوية، قال فيها أن انسانا فى ذكائه يجب أن تكون معلوماته أفضل من أن تجعله يستسلم لأعراض أمراض العصاب النفسية. ومثل هذه المعاملة الحمقاء غير المميزة تتكرر عدة مرات فى كل يوم إذ توجه إلى مواطنين جديرين بكل احترام عادة.

ومهنة الطب مسئولة إلى حد كبير عن التجاء المرضى اليائسين إلى الدجالين والمشعوذين بغية معونتهم، فإن أولئك المرضى كافحوا طويلا بشجاعة، وكان من الممكن أن يبلغوا مرحلة النقه والشفاء لو استخدمت معهم وسائل طبية أكثر عطفا وفهما مما أتبع. ولعل التواضع يوحى إلينا بحل أفضل لانقاذهم

فيعترف الاخصائى فى تشخيص الأمراض بأنه ليس من البارعين فى مثل هذا الداء، وأن على المريض أن يلجأ إلى استشارة من تخصصوا أكثر منه فى علاجه . وهذه المشكلة موجودة أيضاً بين أطباء الأمراض النفسية ، فإن أولئك القادرين على تشخيص الأمراض العصبية الوظيفية إنما هم قلة منتقاة .

وليس فى وسعنا أن نتجاهل خطر الفحص التحليلى النفسى ، بل أن هذا التجاهل غير جائز ، فإن أحد وجوه القصة ، هو أن « الأثرياء الخاملين » أخذوا بالبدعة الجديدة ، فوجدوا فيها « مودة » جذابة . وأن أصحاب الآراء الشهوانية والشخصيات القلقة تلقوا هذا الفحص كعامل مثير للجنس أو عشق الذات والنرجسية . وتروى أنباء فينا[1] قصص الأزواج الأمريكيين الذين لجأوا إلى أقسى التدابير لينقذوا زوجاتهم من عملية « التحويل » فى التحليل النفسى . وهى تروى أيضاً قصص مرضى أجبروا على اعترافات أثارت جراحهم

---

(١) كتاب جورج سلد George Selde « هل يمكن حدوث هذا ؟ » Can These Things Be ? الذى صدر فى عام ١٩٣١ (المؤلف)

العاطفية أكثر مما شفتها . وتقص هذه الأنباء أيضاً حكايات عن مرضى استولى عليهم اليأس بسبب آثارة انفعالاتهم .

ومثل هذه القصص يمكن أن تروى فى نيويورك ، أو فى أى مكان يمارس فيه المحللون النفسيون مهنتهم ، أو حيث يسترعى التحليل انتباه أمثال هؤلاء المرضى . ولقد كان من أيسر الأمور لأى محترف أن يمضى أشهراً قلائل فى فينا ، فإذا ما عاد أعلن أنه محلل نفسى يجوز له العبث بقدس الأقداس فى حياة المرضى المشدوهين . وهكذا تجمعت الشائعات الكريهة لتروى قصص التجرد من الفطنة ، والخروج على الآداب ، والفضائح ، ولتتناول أحاديث ألوان الحياة المحطمة ، وما تبعها من حوادث الانتحار .

وهكذا فتح باب الاتهام على مصراعيه ، وكان التحليل النفسى من أكثر المهن تعرضا للاتهام بسوء استخدام الثقة[1] ، وبالحط من قدر الجنس ، بما فسر خطأ بأنه من قبيل الاستزادة بمعلومات جديدة . وكانت أخطر التهم هى الانهيار التام الذى حل

---

(١) نشر الدكتور . تاننبوم . حادثة لو أعيد نشرها فى هذا الكتاب لتعرض ناشرها إلى عقبات محيرة (المؤلف)

ببعض المرضى المحترمين ممن قست الأمراض العصابية فى تعذيبهم فأجهز التحليل النفسى عليهم .

وحسبى فى هذا المجال أن أشير إلى قصة واحدة مما ورد فى بريدى . والكاتبة إمرأة منيت بالمتاعب المؤلمة فى زواجها ، وحصلت على الطلاق من زوجها. وقد كتبت تقول « أقنعنى طبيبى الذى أثق به إلى حد كبير بأن أجرب التحليل النفسى . ولم أكن أشعر بأية حاجة اليه ، ولكن جهلى التام بالاضطرابات العقلية ، وما منيت به من يأس ، دفعانى إلى قبول اقتراحه مما سبب لى اليأس من الحياة . واستمرت عملية التحليل أكثر من سنة . ودفعت أسرتى آلاف الدولارات كنفقات لها ، فكانت النتيجة أن صرت فى أسوأ حالات المرض . والواقع أن إحدى صدمات التحليل أدت إلى اختلال فى توازن عقلى حتى أن ميولى صارت انتحارية » وإذا ماعدنا إلى شقشقة المحلل وسألناه لماذا يعتبر اكتشاف « صدمة نفسية » مفيداً فى حالة أزمة نفسية ؟ فإنه يجيب بأن الأزمة إنما هى « هرب من الواقع » ؛ ثم يستمر ليجعل الحقيقة أسوأ مما يمكن أن تكونه .

والواقع أنه من الصعب أن نميز النعاج من العنز عندما نعتبر ما تنطوى عليه نظريات الإخفاق الجنسى كنصيحة مشروعة ، بينما هى فى الغالب مهزلة سخيفة ، وإهانة لا تغتفر المريض إذا مالاحظنا مركزه الاجتماعى وظروفه ؛ ولعله من الغبن أن نضع أوزار المحللين النفسيين المزيفين ، أو الأغبياء الذين لا يتقيدون بأى مبدأ . على كاهل الاتباع المحترمين . وليس معنى هذا أن قادة الحركة أبرياء من نتائج المغالاة والإفراط ، ولا سيما إذا شاع بينهم كثير من العبارات المجردة من تقدير المسئولية ، ثم كثرة ترديدهم لمسألة الانحرافات الجنسية .

وفى الحركة الفرويدية كثير من عمليات التحليل الطائشة التى تتفاوت فى خطرها لتشمل كل المراتب والدرجات فى مهنة التحليل النفسى . وبأى منطق نتوقع مزيداً من التعقل فى ممارسة المهنة إن كانت المبادئ نفسها فى حاجة إليـــه ؟ ويقول شمالهوزن Schmalhausen « أن ألوان الجراحات الفجة التى يرتكبها المحلل العادى المتوسط القدرة « تدل » على أن إجراءاته يجوز أن تحدث أضرارا لا حد لها » . وموقف « شمالهوزن » أزاء تشخيص الأمراض النفسية موقف عام نقدى فاحص لا يمكن اتهامه بالتحيز فى مناقشة المسائل الجنسية .

وهو يقول : « والحق أن الأضرار الفادحة التى أنزلها بعض جراحى النفس غير المدربين — ممن يطلقون على أنفسهم اسم المحللين النفسيين الحقيقيين — قد وضعت فى المرتبة الأولى ، عملياً ونظريا ، ضرورة اختبار قدرة العقل على احتمال عمليات الفحص التى يجب أن يجتازها بأى ثمن ، وعلى حساب انسجام الشخصية ؛ فإن المحلل بتأكده من تعاليمه تأكداً تحكميا ، يرضى أن يتخذ قرارات تنزل المحن بعقل يقاسى فعلا من آلام تعذبه وتتجاوز نطاق قدرته المعقولة على الاحتمال » .

« ولو تذرع الخبراء الذين يمارسون التحليل بالشجاعة الفلسفية ، وقدموا تقاريرهم عن الحالات التى أساءوا تدبيرها ، أو لم يستطيعوا فهمها (والمحلل لا يعدو أن يكون إنساناً كغيره من البشر) فإن علم التأهيل الجديد ، والذى يبشر بمستقبل باهر ، سيظفر بفائدة ضخمة من اعترافاتهم الصريحة » .

ومما يعزز التهمة تلك الحجة التى ينطوى عليها كثير من عوامل انعدام ثقتى بوسائل التحليل ، مما يوازى اعتراضى على المبادئ بأنها غير قويمة من الناحية المنطقية ، وغير طبيعية من وجهة النظر

السيكولوجية . وهـذه التهمة عبر عنها شمالهوزن بصيغة موجزة محدودة إذ قال :

« وتوجد فى وسائل التحليل « الأصلى » أساليب إجراءات تقضى على الغايات الســامية المرجوة ؛ إذ تعبث بالاحترام الشخصى للمريض ، وتضعف ثقته بنفسه ، وتثبط من شجاعته . ولهذا فلا غرابة فى أن يصير التحليل فى الغالب كثير التعقد والخلط ، حتى أنه ليجرح مشـاعر المريض وآراءه الحساسـة ويهيجها ، فيخرج من التحليل وهو فى حالة أسوأ بكثير مما كان عند بدايته » .

« وحالات الأمراض العصابية النفسية من الحالات التى يجب أن تتوفر فى تناولها الدقة واللباقة ، وهـذا العامل لا وجود له فى الغالب فى إجراءات التحليل . ومن الحقائق المرة التى تضعف من قوة العلاج بإجراءات التحليل النفسى ، ما انطوى عليه من تحكم ، وإرهاب ، وسلطة سحرية ، وتفسـير لبق لا معنى له ، ثم صمت مثير ، وألفاظ ضخام جوفاء ، والتشدق بعبارات فرويدية مبهمة لا تعنى شيئاً على وجه التحديد » .

وإذا ما حاولنا أن نضع ميزانية حسابية للتحليل النفسى فيجب أن نوجه اهتماماً خاصاً إلى الجانب المدين فيها ، فقد يمر الناس به فى غير احتفال بأمره ، بل أنهم لا يدركونه بسبب التعصب التام للتعاليم ، وأكثرها خيالى ، وبسبب المواقف الضالة والحمقاء من جانب المحللين الذين حاولوا أن يرتفعوا إلى ماهو أرقى من مستواهم الثقافى ، والمزاجى ؛ وهم فى ذلك كسواهم من المهن الأخرى . وفى هذا المجال يجب أن نذكر أن أكثر المهن احتياجاً إلى أكبر قدر من اللباقة والضمير الحى هى مهنة من يصلحون النفوس المريضة ومن يعملون على شفاء العقول المعتلة .

وكثير من المحللين النفسيين فى الوقت الحاضر يسيرون فى إجراءاتهم دون اتخاذ أية احتياطات لوقاية النفس من التلوث بأدران جديدة ؛ وهم يندفعون فى عملهم بمزاج ينفر ذوى العقول الحساسة المفكرة . وبما أن الهدف المنشود هو إحلال السلام والانسجام فى النفس ، فمن البديهى أن واجب المحلل النفسى ، هو أن يتأكد من صلاحية وسائله وجودتها للصحة . ومن الجائز أن تكون الوقاية الطبيعية للحياة الداخلية هى إنتاج حالة الإعلاء الحقيقية ؛ ولكن الحفر عند الجذور من الأعمال الخطرة . فإن تولته أيد غير خبيرة صار قاتلا .

ومما يدعونى إلى توقع انهيار سريع للتحليل النفسى ، مزاجه

فى التطبيق ، وحاجتـــه إلى ما يبرر إجراءاته ، وإلى مراعاة نمو الاعتراف بالاعتبارات العملية والاجتماعية الخالصة : ولكن هذا الإنهيار يمكن درؤه بإصلاح المعوج من معالمه . ومن العوامل الحيوية التى تعمل أيضاً على انحطاطه امتناعه عن إيجاد صلات تعاونية مع الجماعات المهنية التى ينطوى تحت لوائها . وتدل جميع العلامات التى سبق أن طبقت على حركات مماثلة، عندما انتعشت، ثم اضمحلت ، على أن التحليل النفسى فى طريقه إلى السقوط ، فإن مزاجه الأرعن قد عجل بكره الناس له.

ولا أستطيع أن أتجاهل تهمة أخرى تميل إلى جعل المحلل شخصاً غير محبوب ، وغير مقبول فى المهنة : فإن هذا الاستعلاء لسوء الحظ من السمات السائدة فى مزاج المحلل نفسه ، فإن تعصبه لمذهبه ناشىء عن التجاهل أو الجهل الآثم بكل تأكيد . ووفقاً لخبرتى الشخصية أستطيع أن أقرر مسروراً أن أحسن المحللين النفسيين براء من هـذه القيود والعيوب ، فإن الطريقة التعليمية للملمين بالتحليل النفسى ، وتقديمهم التعليمات بشكل فيه استعلاء إلى غير المطلعين ، تظهر فى مطبوعاتهم ، وفى خطبهم ، بل وفى المؤتمرات مع زملائهم من الأطباء .

أما العبارة التى يكثر ترديدها وهى قولهم « نحن معشر المحللين نعرف » ، فما هى إلا عدوان على أصول الجدل بين الأفراد

المتساوين ، ولعلها تنطوى على شيء من السذاجة والقحة ؛ أو بعبارة أكثر تسامحا ، هى مناعة ضد آداب الجدل فى هـــذا الموقف الاستعلائى ؛ إذ يبدو مرتكبها غير فطن إلى موقفه . ويظهر هذا الاتجاه فى مايروى من قصص عن مدارس التحليل واختلافاتها .

ويظهر هذا الاتجاه فيما بين طوائف مدرسة التحليل النفسى وأحزابه من احتكاكات ؛ كما يتجلى أيضاً فى الحيرة التى وقعت فيها مضيفة عندما دعت محللين معروفين للغداء على مائدتها ، وكانا من مدرستين متعارضتين ؛ وما أن وجهت الدعوة حتى عرفت أن كلا منهما يرفضها إذا حضرها الآخر. ولو عمم هذا المسلك بين شتى النحل والطوائف الدينية أو الاقتصادية المتعارضة الاتجاهات ، لا سفر عن عقبات واحتمالات غير منتظرة فى فن التشخيص النفسى . والواقع أن المحلل النفسى يحتاج إلى فن الدبلوماسية إذا ما نظرنا إليه من حيث هو صاحب رسالة ودعاية .

ودعوى الابتكار و « الاكتشاف » تظهر فى شتى نواحى النظام الفرويدى . وعليها عقب « دنلاب » بقوله :

« يقال أن الأهمية العظمى للجنس فى الحياة البشرية ظلت مجهولة تماما إلى أن وضحها فرويد ؛ ولعله مما يدهش تلاميذ ، وأتباع طبيب فينا أن باحثاً نفسياً يحتمل أن يميز أهمية الجنس ، بل ويؤكد الدور

الجوهرى الذى تلعبه الآراء الجنسية ، ونواحى النشاط الجنسى فى العقل ، حتى أنها تسيطر عليه وتقوده .
ورغم هذا ، فإن هذا الباحث لا يكون من الشيعة الفرويدية . حتى مبادئ تداعى الخواطر صارت من منتجات التحليل النفسى بالتلميح إليها بأنها كذلك فى كثير من العبارات » .

« وهناك أيضاً الحقيقة القائلة أن كل تفاصيل التصرفات الشعورية قد توجه أحياناً بفعل نتائج الخبرة السابقة . هذه الحقيقة وفقاً للتحليل النفسى لم تكن معروفة البتة قبل ظهور كتاب فرويد عن « علم النفس المرضى فى الحياة اليومية » . ولاريب أن غير المطلعين على علم النفس ، والذين يحصلون على أول معلوماتهم العامة عنه من مصادر فرويدية ، يعدون فرويد المؤسس لعلم النفس الحديث » .

وحتى مثل هذه النتيجة الجوهرية قد تظفر بالقبول العام الشامل ، فتجدها فى كلمات عالم أمريكى جيولوجى معروف[1] اشتهر بدعوته الإنسانية بفضل خلقه ومزاجه ، ولكنه يجهل فرويد كل الجهل ؛ فيقول :

---

(١) « ناثانيال شالر « Nathaniel Shaler فى كتابه « الجار » The Neighbour
(المؤلف)

« ليس من الإسراف ، أن نقول أن كل الأخطاء الهامة فى تصرفاتنا ، وكل أعباء الناس والجماعات إنما حدثت بفعل عدم الانسجام فى الترابط بين الانفعالات الحيوانية البدائية ، وبين تلك القوى العقلية التى نمت بسرعة فى النوع البشرى ». وهذا هو جوهر الصراع .

وأذكر مثلا آخر ، ولكن فى اتجاه جديد : فأردد عبارة قالها أحد ممثلى[1] التحليل فى حديثه عن التحليل النفسى « واكتشافه للرمزية » ، فعزا إلى التحليل أنه أول من ميز البنية الجنسية النفسية فى الإنسان . وادعى أيضاً بأن التحليل قد « فتح المجال لتطبيق نظرية التطور فى تفسير العمليات العقلية » . وقال أيضاً « إننا نتعلم كيف نطبق وجهة نظر العلوم الطبيعية فى دراسة مشكلات العلاقة التى بين العقل والجسم بدلا من الإغراق فى التأملات الخاملة فيما وراء الطبيعة مما هو متبع حتى الآن .

وقد تجاهل إدعاء التحليل النفسى هذا جانباً

---

(١) فان تسلار Van Teslaar فى كتابه « هيكل التحليل النفسى » An Outline of Psychoanalysis ١٩٢٥ . (المؤلف)

كبيراً من علم النفس الذى لم يسمع البتة عن فرويد. وعلى عاتق هذا الادعاء تقع مسئولية تفسير أن « ما وراء علم النفس » هو تعبير لوجهة النظر الطبيعية. وليس من الواضح قوله أيضاً « أننا معشر المحللين النفسيين نشهد فى كل يوم الصراع الناشب بين الغرائز الأولى للإنسان، وبين اتجاهاته العليا » مما يوجب أن نكون بغير استثناء قادرين على الظفر بهذه البصيرة.

وقد سجل الكاتب الإنجليزى ه. ج. ولز H.G. Wells مقال مديح يتألف من أربع صفحات عن قيمة علم النفس وتطبيقاته لخدمة التقدم البشرى. وفيه لم يشر الكاتب مرة واحدة إلى التحليل النفسى، كما أنه لم يستخدم اللفظ البتة، مما يدل على أن هذا الكاتب المعروف عبر عن نفسه أصدق تعبير بصدد موضوع التحليل النفسى، وما يرجى منه لاسعاد البشرية.

ولا ريب أن هذه النغمات الشاذة الناشزة هى التى تعبث بمدلولات الحجة الفرويدية، كما تبين فى جلاء تنافرها مع حقائق القضية. وهكذا فإن تحديه بقية مبادىء علم النفس لا يصل إلى احتقار هذا العلم أو الاقلال من شأنه.

ولقد كانت نزعة الطائفية ، والتقديس ، والتعصب الأعمى ، بعيدة الأثر فى استقبال الحركة الفرويدية . وقد ظل أثرها واضحاً فترة طويلة . ويكفى فى هذا المضمار أن أقتبس فقرة واحدة لأحد الأنصار إذ قال « لم يطرأ ما يدعو إلى التخلص من شيء ما مما صاغه الاستاذ فرويد من البداية » . وهذا يدل على إجلال بابوى لا يتفق البتة مع مغامرة علمية من الواضح أنها لا تعدو أن تكون محاولة .

وخبرتى واسعة بمزاج الطوائف والنحل ؛ فمن سمات أعضائها وطقوسهم أن يشتركوا فى ترديد ما يضعه الزعيم من النصوص . وعندئذ يخطىء الناس ، ويظنون أن هذا التكرار المستمر أدلة جديدة ؛ فالطقوس تؤدى إلى الطائفية، وإلى انشقاق الصفوف . وكل منها لا يرى فى غيره إلا الزندقة التافهة . وقد كان هذا حالها فى أقدم الأيام حين اختلفوا على مركز الابن من الأب فانشقوا إلى طائفتين يسمى أنصار أحداهما Homoousians ويسمى الآخرين Homoiousians . ومن طبيعة النحل أن تبتعد وتتخلف عن ركب التقدم .

ولقد سمعت أحد المحللين يبدى ملاحظته، فقال أن الفرويدية ستصير مقصورة على أتباعها الفرويديين بسبب صلاتهم الاجتماعية والمهنية . وقال أن بقية العالم لن تفهمهم لا هم ولا وجهة نظرهم .

ولقد كررت مراراً أن المقومات الفرويدية تحتوى على لب علمى سليم ، ولكنه يكاد يضيع فى وسط ماطرأ عليها من الطقوس الطائفية . وهذه الطائفية فى التحليل النفسى هى التى تنذر بانهيار بيت فرويد .

أحكام

تؤلف الأحكام الصادرة من الأكفاء المخلصين قاعدة أخرى للتنبؤ عن مآل الفرويدية ، وسأعرض هنا لمجموعة مختلفة الدراسات من شتى الزوايا والملاحظات ؛ فالتحليل النفسى يقدم نفسه كحل لمشكلات ضخمة معينة تواجه علم النفس الذى يراه المهتمون بالعلوم الطبيعية جزءاً من علم الحياة الواسع . وإذا ما أهمل هذا الأساس ، أو أسىء وضعه ، فإن كل خلل فى مبنى واحد سيكون خللا أساسيا فى كل منشآت علوم الحياة . ويتمسك « هالدان » Haldan الأخصائى فى علم وظائف الأعضاء ، بأن هذا الأساس يسرى أيضاً على التحليل النفسى فيقول .

« أن نوع الكائن الذى تصوره فرويد ليس ألا من انتاج خياله ... أما عن سمات النشاط الشعورى، فأن فكرته لم تقدم أى دليل عنها ... وكل بينة لعلم نفس من هذا القبيل تقوم على أساس ردىء من « الفيزيقيا »

وعلم وظائف الأعضاء . فضلا عن أن فكرته غير كافية البتة من وجهة النظر الخاصة بعلم النفس ، فهى تسىء تمثيل أعمالنا لأنها تسىء تمثيل كل من مدركاتنا الحسية وعواطفنا .

ويصر الباحث النفسى « دنلاب » على أتخاذ موقف أشد صرامة فى رفض التحليل النفسى ، ويقول أن حاجته إلى الأساس الطبيعى « جعلته أعتداء على لب علوم الحياة ، فهو يتستر بلباس العلم كى يتسلل إليها ، ثم يخنقها من الداخل ، وتشبثه الشديد الملح بأتجاهه التأملى ليس بالاتجاه الوحيد الذى يضايق كل عالم ينحو إلى الاتجاه التجريبى .

أما الباحث النفسى المتسامح « دودج Dodge فيقول بصراحة، «أن الحقائق بغير فروض شىء ميت » ، ثم يضيف قوله والفروض التى لا يمكن تحقيقها أولى بها أن تعد ميتة » .

ويظهر غزو الفرويدية لبيت العلم على هيئة تدخل سافر وعدوان. أما سبب هذا الأعتبار وكيفيته ، فمسألة يتعذر شرحها ، فإن مكان التحليل النفسى لا يبدو بين العلوم ، أذ يحمل جوا أجنبياً عنها . ويوضح الباحث الأجتماعى « تروتر » Trotter مسألة بعد التحليل النفسى عن العلم ببراعة ، فيقول :

« من الجائز أن يؤخذ الانسان إلى حد كبير بعظمة الصرح الذى شيده فرويد ؛ فأذا ما غادر جو العلوم البيولوجية المنشط ، ودخل بيت فرويد ، فلا بد أنه تضايقه رائحة الأنسانية المنتشرة فى البيت كله . وأينما ذهب يجد ميلا إلى قبول معايير بشرية ; وفى أحيان أخرى يميل إلى قبول ادعاءات انسانية .مما يحتم خلق نوع من القلق بشأن صلاحية الصيغ التى وصفت فيها مبادؤه . ولعله يصاب بالقلق من أجل المبادىء عينها . ومن أصعب الأمور التعبير بالفاظ محدودة عن الخاصية التى أريد وصفها من غير مبالغة فيها أو تحريف لها » .

وإذا ما أنتقلنا من رافضى التحليل النفسى إلى مؤيديه ، طالعنا رأى العالم النفسى هولت [1] ، فقد كتب فى عام ١٩١٥ يقول أن ما قدمه فرويد يعتبر بداية عهد جديد من حيث أنه زود علم العقل بفصل على" وقال أيضاً .

« لقد كان أول مفتاح ظفر به علم النفس . فكان

---

(١) E. B. Holt فى كتابه «الرغبة الفرويدية» The Freudian Wish ـ ١٩١٥ (المؤلف)

مفتاحاً ملائماً له ،وأنى لأعتقد أنه المفتاح الوحيد الذى يحتاج اليه علم النفس . ومع أن أساتذة المدرسة القديمة الجالسين فى راحة وأسترخاء يمكنهم أن يطعنوا هاتين العبارتين بعنف ، فأنهم قد أصيبوا بشيء من الذهول من جراء عمل فرويد . وهم يعانون من خوف غير مريح لهم ، لأن فرويد قد صنع شيئا . والواقع أنه أظهرهم أيضاً بمظهر غير الأكفاء الذين لارجاء منهم »

وبعد أن قال هولت هذه العبارات ، تدفق الكثير من النبع الفرويدى ؛ ولما سألته أن كان لا يزال محتفظا برأيه ، كانت أجابته العامة بالتأكيد ، ولكنها كانت سلبية فى مسائل معينة .

فهو يستمسك برأيه فيما يخص « الرغبة ، وصراع الرغبات ، وتدعيمها المتبادل ، وهذا فى رأيه هو روح المبادىء المقبولة فى الفرويدية « ومن الجهة الأخرى ، فأنى قليل الأهتمام بالتحليل النفسى ، من حيث هو علاج ؛ وأعتقد أن مدركات « اللبيد » والإعلاء خاطئة ، ومضللة بالطريقة التى استخدمت بها فعلا » وختم هولت رأيه بقوله « أن فرويد لا يستحق الحملات العنيفة التى وجهت اليه ، ولا ما أضفى عليه من تقديس وعبادة جنونية »

وأنى لا ستمسك بهـذا الرأى كنقد بنائى مبكر له أهميته ؛ فقد رأى هولت ، حتى فى ذلك الوقت ، الحاجة إلى أعادة تفسير فرويد ، وصور الجسر الذى يمكن بناؤه على الدعامات والأعمدة الفرويدية ».

وكانت مهمة الرغبة الفرويدية عند « هولت » تنشيط الغرض أو المشروع لتحقيق برنامج من الأعمال سواء أكان لا يزال فى العقل ، أو منفذاً فعلا . وهو تمييز قليل الأهمية فى الواقع ؛ ورأى « هولت » هام من الناحية العملية أو الأجتماعية ، وأن كان لا يرقى إلى مجال تشكيل الموقف ، وكان من الجائز أن « تستبدل رغبة هولت الفرويدية الاتجاه إلى عمل ما بالغرض أو المقصد — سواء كان ذلك الاتجاه مجرد فكرة تختلج فى العقل أم عملا ينفذ فعلا — وهو تمييز ليس بذى أهمية تذكر » من حيث تشكيله لموقف الإنسان وأن يكن هاماً من الوجهة العملية والاجتماعية . وكان من الممكن أن تجمع بين الغرض ،والنية ، والميل ، والتحزب لها أو عليها ، وكذا الرغبات ، وعوامل الجذب والطرد ، والدوافع الجنسية ؛ وسيان فى هذا إن كانت طاقتها المحركة تجرى فوق سطح الشعور المتماوج أو تحته .

وهذا القصور جوهرى لسيكولوجية الصراع ، سواء أكان

مجرد نزاع منزلى أم مناقشة منطقية حادة فى مداولات هيئة الأمم. ولو سارت الفريدية فى نموها داخل نطاق الخطوط التى رسمها « هولت » لكان مستقبلها — وهو الآن ماضيها — شيئاً آخر مختلفاً كل الاختلاف عما هى عليـــه فى محتوياتها ونزعتها؛ وكان من الجائز أن يتسع مدرك الصراع ليشمل شتى العلاقات البشرية فى نواحيها المتعددة، وفى اختلافها وانسجامها، وفى كل ما تتحمس له أو تكرهه؛ ولكان من الميسور عندئذ أن تندمج العوامل الفرويدية فى القوى المحركة فى اللاشعور؛ ولكان القول « بالعودة إلى فكرة هولت » هو الصيحة الملائمة فى الوقت الحاضر، ولكن هذا لم يقدر له أن يكون.

وعندما تحدث « هولت » عن موقف نوعى محدد، فأنه أضطر أن يسجل قوله « أن فرويد لم يثر ألبتة هذه المسألة بمثل هـــذا الوضوح » وقال مرة ثانية « أعترف أن ما سأقوله أكثر مما قاله فرويد؛ وهو على أية حال، وكما أعتقد، الاستنتاج المباشر الذى لا مفر منه لما قاله ».

والواقع أن ما سجله هولت لا يقتصر على أنه « أكثر »، بل هو مع الأسف شيء مختلف كل الاختلاف عما قاله فرويد منذ ذلك الوقت. ولا ريب أن ابتسار غيرى لموقفى والنظر إليه

من زاوية أخرى ليلق منى ترحيبا خاصاً ؛ فإن « بوتنام » J.J. Putnam فى دفاعه عن وجهة النظر الفرويدية، أدلى بملاحظات كالتى أبديتها ، ولكن من الناحية العيادية . وأنك لتجد فى ملاحظاته عطفا على الغـــرض السليم من إجراءات التحليل النفسى ومزاياه . أما رأى الدكتور « بوتنام » لو أنه عاش . وشاهد نمو الحركة . وتجاوزها لرسالتهـا العلاجية التى ظفرت بتأييده ، فمسألة تخمينية ، ولكنى أستنتج أنه كان يتخذ موقفه مع موقف الفرويديين المحافظين .

وانتقل الآن إلى وجهات النظر النقدية كما ظهرت فى المانيا(٢) ، فهناك أثيرت المسألة حول ما يمكن أن يبقى ويسود ؛ فقيل : —

« أن المعلومات الحالية الجديدة المقررة ، ذات الاوجه المتعددة عن الحياة العقلية للانسان ، ومنهـا التحليل النفسى كطريقة وكنظرية ، هذه المعلومات تجد لهـا مكانا مع سواها : وكلها معلومات صحيحة نسبيا ؛ ولكن هل يبقى التحليل النفسى وحده بتعاليمه

(١) اقتبسها « فان تـلو » ، وسبق ذكرها . وهى رأى نشره بمناسبة زيارة فرويد ويونج لأمريكا (المؤلف)

(٢) Prinzhorn : Die Krisis in Der Psychoanalyse ١٩٢٩ (المؤلف)

التى تتناول جانبا واحدا ، وتتمسك بوجهة نظر واحدة تجعلها شيئا نهائيا مطلقا ؟

وقد نعى كثيرون من المحللين على التحليل النفسى ضروب الافراط التى تطرفت إلى نظرياته وممارسته ، وما جرته من اهتمام شعبي بها ، واعتبروها « زوائد » شاذة لا تؤثر على ما فيه من لب الحقيقة الحيوى . ونعود مرة ثانية إلى اقتباس وجهة نظر ألمانية :

« إن القشور تحيط بالتعاليم وتغطيها . وهـــذه التعاليم تتخذ باستمرار مظهر علم من علوم الأسرار ، ولا سيما فى المسألة الخاصة بتفسير الأحلام ؛ فإن ضروب الإفراط ، والمغالاة فى الماضى والحاضر واسعة كل السعة حتى أنها لتجعل الإنتاج كله أمراً لا يمكن قبوله ؛ وهذا كله يقبع فى المقدمة ، ويقرر ما يتركه فى المرء من أثر ، ولكنه ليس بروح التحليل ولا جوهره .

ومن جهة أخرى يعترف « كرابلين » Kraepelin فيقول : « ورغم كل ما بذلته من جهد ورغم ما توفر من حسن النية ، فإنى لم أستطع تتبع خطوط فكرة « ما وراء الطب النفسى » هـذه ، فهى تبدو كعقدة تكتنف طريقة الملاحظة العيادية الرشيدة » .
ونلتقى أيضاً « ببلويلر » وهو من المؤيدين لكثير من تعاليم فرويد ، ولكنه كثير الاعتراضات على بعضها ، ورفض كثيراً منها ، حتى

أن فرويد قال : « أنه ليدهشني أن أعرف ما نبقى بعد ذلك من ولائه وتقديره » . وتحدث « ريجر » Rieger عن المشتقات الشديدة التطرف ، فقال : « كنت دائما أعتبر هـذا النوع هراء مخيفا لامعنى له » . وردد بومكه[1] أنه إذا بقى التحليل النفسى قائما ، فإن « ماظهر منه حتى الآن كعلم سيختفى ; ومن الطبيعى عندئذ أن عملى المتواضع كطبيب أمراض نفسية سينتهى » .

ويعد « ريفرز » كريماً فى حكمه ; وله عدة تصحيحات للتعاليم الفرويدية . مما يعد إعادة صياغة لها ; وقد قال :

« وعلى أية حال ، فإن أتباع فرويد انغمروا فى الجانب الفج من الحياة الجنسية ، حتى أن مؤلفاتهم يغلب عليها أن تكون إسهاما فى التصوير الداعر أكثر مما هى أسهام فى علم الطب . وقد انهمك بعض أتباع فرويد فى المسائل الجنسية إلى مدى بعيد ، حتى أن الميول والآراء الشهوانية صارت ترى فى كل فكرة تطرأ لأى مريض يعنون بأمره سواء واتته الفكرة فى نومه أو فى يقظته » .

« والخطأ الذى يرتكبه الآن كثيرون ، هو

(١) Oswald Bumke: Die Psychoanalyse. Eine Kritik صدر هذا الكتاب فى عام ١٩٣٠ . وهو نقد حديث هام لطبيب أمراض نفسية معروف . وقد تناوله بالنقد الدكتور ساش Sachs فى مجلة الصحة العقلية عام ١٩٣٢ (المؤلف) .

اعتبارهم هذا اللون من الإفراط كجزء ضرورى من الخطة الفرويدية ، وأجدر بهم أن يعتبروه زائدة منكودة الحظ : ولعل هذه الزائدة قد نشأت بسبب البيئة الاجتماعية التى شهدت نشأة الفكرة » .

وهى ليست فى نظرى سوى مجرد فرض وضع كأى فرض آخر ليدفع إلى الفحص ، وليقدم لنا العون فى عملنا عندما نتلمس طريقنا إلى الحقيقة بشأن طبيعة الاضطرابات العقلية . فهل يجوز أن نرفض بازدراء معونة تقدم لنا لأنها فى بعض الأحيان تقودنا إلى اكتشاف نواحى غيرسارة فى الطبيعة البشرية ، ولأنها قادمة من فينَّا ؟ »

ومن أطباء النفس الأمريكيين الذى كتبوا فى الموضوع نفسه الدكتور «موس» Moss وهو يقول : « لا يوجد شىء أشد فتكا بالتقدم فى المستقبل ، وبالفهم العلمى الصحيح للاضطرابات العقلية ، من التسليم العام بنظرية تفسر الأمراض العقلية بعبارات غامضة عن أسباب نفسية عضوية نشأت من كبت ذكريات التجارب الجنسية فى الطفولة » .

وكتب « ميرسون » Myerson يقول : « ومن أغرب المسائل فى تاريخ العلم ، أن ترقى وتسود بعض

النظريات العلمية التي تسعى لاحتلال مكانها كاعتقاد حتمي يعوق حرية نمو المعرفة ».

ومن الآراء الهامة في نقد التحليل النفسي ما كتبه « ليري[1] » وهو محاولة منسقة إنشائية، لادماج التحليل النفسي في نطاق تفسير معقول يساير الأوضاع الطبيعية . وهو يقول :

« ظل التحليل النفسي ، ولايزال ، في حالة ميئوس منها من الارتباك بسبب سوء الفهم ،وقلة المعلومات ، والتحزب ، والمنافسة ؛ ويضاف إلى هذا . . . اهتمام شعبي ضخم . . . مما أدى إلى زيادة حالة الارتباك » .

« وكثير من منطق حركة التحليل إنما هو من الطراز الذي تسميه تعاليمه نفسها بالاجتراري ؛ أو الخيالي ، أو البدائي ، ومما قبل المنطق ؛ أو غير المنطقي ؛ ويعبرعنه بأوضاع الرغبات ، والارتباطات ، والمصادفة ، وضروب التمثيل ، والغرض ، والغاية ، بدلا من أن يعبر عنه وفقاً للحقائق ، والملاحظات

---

(١) Daniel Bell Leary: Modern Psychology: Normal and Abnormal. « علم النفس الحديث : السوي والشاذ » وقد صدر في عام ١٩٢٨ . وفيه وصل « ليري » إلى كثير من الأحكام الشديدة الشبه بأحكامي ، ومن ذلك التنبؤات . وعمليات التنقيح ، والتصحيح ؛ ولهذا فاني أسجل أن أحكامي تكونت بدون علم بآرائه . وإني أرحب وأزكي الفصل الذي كتبه عن التحليل النفسي (المؤلف)

والعلاقات المتبادلة ؛ والتجارب ، والتوافق مع الاكتشافات الأخرى .

أما هولنجورث[1] فيعرض المسألة بطريقة أبسط ، بأن يجعل عنوان الفصل الذى قدم فيه التحليل النفسى « قصص فرويدية » . وهو يطلق بطريقة عامة ، كاسحة ، على كل المحاولات التى ترمى إلى إقامة التفسيرات على أسس افتراضية عبارة « التمثيل النفسى » Psychoanalogical . « وهى فى بعض الأحيان تسمى بالدراسة التحليلية النفسية ، وهى تسمية لا معنى لها » .

ويوافق « ليرى » على أن ألفاظ « الرقيب » و « التنفيس » « وتفسير الأحلام » و « اللبيد » و « الإعلاء » و « اللاشعور » إما أن تكون أشياء خيالية ، أو فروضاً غير منطقية ؛ ولكنها جميعاً تحتوى على لب حقيقى يمكن أن ينتظم مع الحقائق الطبيعية بل والسلوكية أيضاً .

---

(١) فى كتابه « علم نفس الشــواذ : مدركاته ونظرياته » Abnormal Psychology: Its Concepts and Theories : H .H. Holingworth. 1930

ويعد هذا الكتاب أهم عرض نقدى لكل مدركات المشكلات التى يشملها مضمار الاهتمامات المتبادلة لعلم النفس والطب النفسى . وفيه يوضح «هولنجورث» بالتفصيل كيف أن تعاليم فرويد كررت ما سبق أن قاله « هربرت » Herbert بما فى ذلك الرسوم البيانية للقوى ، ولكن فى عبارات بيولوجية فعالة دينامية أو تبدو شبه حقيقية أو انتحالية (المؤلف)

وقد عرض « هولنجورث » بطريقة مقنعة لموضوع مجافاة التفسيرات الفرويدية للمنطق مجافاة تامة حتى فى نفس المقدمات التى بنيت عليها التفسيرات . وفى التفسيرات التى تقررت للظواهر نفسها والتى وضعها الفرويديون أنفسهم . وبين هولنجورث فى تحليله النقص البالغ فى تفسيرات فرويد من بدء قصة التحليل النفسى إلى آخرها ، بما فى ذلك أول حالة تحليل نفسى ؛ والمراحل المتسلسلة والعبارات التى حوتها الجعبة الفرويدية من « الفروض البسيطة » إلى « التعاليم المفرطة التى تتسم بأوسع حرية غريبة يتخيلها المرء » وهو يقول :

فى وسعنا أن نستغنى عن « اللا شعور » ، وعقدة « أوديب » ، «والإسقاط» ، كما نفعل بالجنيات ، والشياطين وسانتا كلوز ... « فالتمثيل النفسى » كله مفسر فى نظرية المحلل ، وليس فى مادة الحالة . وهذا يتناقض كل التناقض مع الفروض ، ويمكن تفسيره فى يسر بدونها ... وكل هذه « التمثيلات الأدبية » خطرة ، وقد يعدها السذج وصفاً لشىء يحتمل حدوثه حقاً . والتفسيرات المنطقية ذات المدركات البسيطة يحتمل أن تحتل مكاناً ما فى التحليل النفسى وما يضم من روحانية وخفايا .

والتفاصيل خاطئة كذلك ؛ فمدرك تحويل الانفعال

مثلا إلى رعشة أو ساق متوترة يمثل صورة تحول العناصر إلى شيء آخر ليس فى طبيعتها. ولا يملك معه أبرع خبراء الراديوم، وأكثرهم علماً، إلا أن ينسحب».
وهكذا فإن الحقائق العادية الشائعة عن الانفعالات الممنوعة أعيدت صياغتها فى مبدأ يحمل الاسم المنذر: التناقض الوجدانى.

«فمن الجائز أن يعجب طفل بجمال أمه، ورقتها، ولكنه يحس نحوها بعدم الاحترام لجبنها وضعفها الجثمانى. ومن الجائز أيضاً أن تكون فطائر الطباخة شهية، ولكن مزاجها «مكروه». وفى مجال التطبيق إذا جاز لفرويد أن يقول أن الهستريا صورة كاريكاتورية للابتكار الفنى، وأن القهر العصابى كاريكاتور آخر للدين، وأن البارانويا صورة فجة لنظام فلسفى، إن جاز هذا فتفسير فرويد للقهر العصابى صورة فجة لقصص «أيسوب».

وقد كتب ليرى نبوءته المماثلة لما حاولت التنبؤ به فقال: «أنها جديدة، ولكن جدتها ليست بعيدة المدى فيما يتعلق بما تنطوى عليه من الحقائق المنفصلة؛ فهى جديدة من وجهة النظر الدينامية المحركة، والنشوئية،

والموحدة . وفى نظرتها إلى سلوك الشخصية : فهى توجه الانتباه ، فى هذا المجال الموحد لوجهات النظر، إلى تلك العوامل التى استخف الباحثون بأمرها عادة ، أو لم يعرفوها ، أو أهملوها عن عمد » .

وعلى أية حال ، فلكى نظفر بإعادة صياغة التحليل النفسى صياغة تكفل له أن يقف فى صف واحد مع المعلومات الأخرى التى عن الطبيعة البشرية ، فيجب أولا ، أن نلخص تاريخ التحليل النفسى ونموه ، ثم نبدأ عملية تقدير الفروض المختلفة ، والنتائج الداخلة فى نطاقها بطريقة عادية ، على أن يتم هذا فى مجال النظرة العامة التى نسعى لإيجادها » .

أما فيما يتصل بالنتائج العملية للحركة ، فإن خصما عنيداً مثل « دنلاب » اعترف بأن « النتيجة النهائية للحركة الفرويدية يحتمل أن تكون مفيدة رغم أن التأثير العاجل سيكون خداع عدد كبير من الناس ، وتعطيل البحوث السيكولوجية مؤقتاً ؛ وكما أن علم الشفاء بالإيمان زاد فى سرعة تقدم الطب العلمى زيادة كبيرة ، فكذلك سيفعل التحليل النفسى ، إذ يضطر علم النفس إلى أن ينظم بيته ، ومن ثم يساعد على صقل علم النفس العلمى الذى يهدف التحليل إلى طرحه جانباً » .

وعبارة « تنظيم بيت علم النفس » أكثر من عبارة لبقة ؛ فهى تدل على مهمة نشيطة ؛ فإن الغزو الفرويدى أكره الأنظار على أن تتجه إلى المشكلات الحيوية للبواعث ، والشخصية ؛ تلك المشكلات التى كانت بعيدة عن متناول أوجه الاهتمام التجريبية المبكرة ؛ ومع ذلك فإن علم النفس كان يسير مستقلا فى طريقه لاستكمال أهدافه . ومن الجائز أن فرويد حفزه ، وأثاره ، ودفعه إلى الأمام ، أو رده إلى الخلف . وعلى أية حال فإنك لن تجد فى كل القصة الأكاديمية لعلم العقل سيرة أكثر إثارة من تلك التى اقترنت باسم فرويد .

ولعل هذا الاقتباس المنتقى يكفينا لتوضيح الاختلاف الحاد فى داخل صفوف علم النفس ، وما يتصل به من علوم ، وليبين أيضاً ظهور المزاج الانتقادى فى تقدير ما انطوت عليه المدركات الفرويدية من صواب وعدوان مما يبدو لى كأنه يؤكد انتشار عدم الثقة ، ويعزز الرفض ، ويشير إلى سرعة تدهور حركة التحليل النفسى ، رغم ما لقيه من نجاح .

وإنى لأعرف حق المعرفة ، أن الفرويديين سيقرؤون هذه العبارة ، ويفسرونها كلها تفسيراً آخر ، رغم أنهم نادراً ما يتخلون عن مهمتهم المفضلة ، وهى إضافة تفسيرات ضعيفة إلى فروض ، ونظريات لم تختبر ، ولم تحقق بعد . فهم لا يتخلون عن هذه المهمة

المحبوبة منهم ، إلا ليزاولوا أخرى تتساوى معها فى الظفر بغرامهم ؛ والإفراط فى التأمل بغية نمو مجموعة مؤلفاتهم : ثم التحدث فى ثقة ، وإيمان ، وإصدار التعليمات إلى غير المطلعين . وإذا مانظرنا إليهم ، وهم فى أحسن أوضاعهم ، رأيناهم يتجاهلون أمر الثائرين عليهم ، والمناوئين لهم ؛ فإن ذكروهم هزوا أكتافهم بشكل لاندرى معناه ؛ وأنه لمن واجبنا أن نذكرهم فى حزم وتسامح — لاننتظر منهم مثيله — بأن موقفهم ليس إلا موقف دفاع . وأن أزمة التحليل النفسى يمكن أن تواجه بموقف واحد ، هو الاعتراف باحتجاجات النقاد الذين يعطفون عليهم ، وتمييز مداها وقوتها . فإن التحليل النفسى يجب أن يسير فى صفوف علم النفس وطب الأمراض النفسية . وإلا فإنه يغامر بابتعاده عن تيارات التقدم .

المســــتقبل

تتجمع علامات الزمان وتسجل حكمها علناً بحروف بارزة : وليس فى وسع الحكم النهائى إلا أن يتأثر بحالات العدوان على النواحى الأساسية فى علم النفس ، وعلى قواعد المنطق ، فى مختلف مراحل البناء من أساسه إلى نهايته . وإذا مافحصنا البيت الذى بناه فرويد على هذا الضوء ، فإننا نجده مشيداً على الرمال ، وبالأسمنت القابل للتفتت . ومن عملوا على رفع مستوى علم النفس ،

من نظام غير ثابت إلى مكانة مضمونة بين العلوم . يقولون إن بيت الخيال ، والأساطير ، والأحلام لن يجد فى المستقبل مكاناً لنفسه فى مملكة علم النفس .

ولو استقر هذا الحكم وساد ، لكان مصير محاولتى للتنبؤ عن مصير الفرويدية ومستقبلها : هو لاشىء : كتنبوات كثيرين ، إذ أن التحليل النفسى سيعلن طريداً من القانون ودعياً ، مغتصباً . وعندما يخبو السعير الذى أشعله ، فلن يكون لسيادته من أثر فى الأيام التالية . وإذا صح هذا القرار ، وصار نهائياً . لكانت الفرويدية أروع الأوهام فى عصر ساده العلم ، ولكانت سراباً حديثاً بين مهن الإنسان الكثيرة التى تستشف الأشياء بوضوح .

وإنى لآومن بأن النتيجة ستكون مخالفة لما قالوا . وأعتقد أنه من الممكن انقاذ ما له قيمة فى هـــذا البحث الواسع ، الشامل للانسان ، وأعماله من زاوية جديدة . وفى كل الحركات الذهنية المماثلة فى الماضى ، لاأجد حركة واحدة تضارع الحركة الفرويدية : فعلم الفراسة خبا ، واندثر بعد لمعة خاطفة . والواقع أنه لم يعش البتة ؛ فلا مجال لمثله فى عالم طبع عقله بالطابع العلمى . ولم يبق من أثر « للمغناطيسية الحيوانية » ، سواء فىالتنويم المغناطيسى ، أو فى الإيحاء ، أوفى التفكك . وهذا يصدق أيضاً على مسألة علاج الداء بمسبباته التى اندثر كل أثر لها من الطب الحديث .

ومثل هذه الحركات ليست مجرد وسائل تؤدى إلى غيرها. بل هى منعرجات تافهة تنحرف بنا عن الطريق السوى. والتاريخ حافل بمثلها، ومسار الانسان فى الإدارة، وفى المعرفة لا يلتزم طريقاً مستقيما، بل أن طريق النجاح كثير الانحرافات والتعرجات، والاضطرابات. وأعترف بأن ما أتوقعه ليس له من مثيل سابق، ولكن مكانة الفرويدية فريدة أيضاً من عدة أوجه، وعلى ذلك، فاعتقادى أن مصيرها سيكون فريداً كذلك.

وفى تحليلى للفرويدية، ظهر أنها تحمل علامات تقدم أصيل، وبصيرة صادقة. وهى تبدو لى فكرة عظيمة تحولت إلى وهم ضخم نشأ عن طريق اختلاف الصفات والمواهب للعقل الذى تولى القيادة فى ابتكار المشروع. ولقد أحسست بهذه الأهمية الكامنة فى لب التحليل النفسى ومجراه، فقلت من ١٥ سنة إنه اكتشاف عظيم توصل إليه غير من كان يجب أن يكتشفه.

ويصلح الأساس الذى أقمت عليه هذه النتيجة تطبيقاً هاماً لإكتشاف سيكولوجى، هو عدم المساواة فى نمو قوى العقل الابتكارية، وقواه النقدية الفاحصة. وهى حالة تتفق مع عمليات توزيع الكفايات الخاصة الممتازة التى صارت حاسمة فى عصر اتسم بالتخصص. ان العقول الجبارة قادرة، ولاشك، على أداء الكثير

فى عدة مجالات : ولكن هذه القدرة مقصورة على فئة قليلة .

ولو أجرينا عملية تبادل فى المهن بين المبتكرين والنقاد ، لكانت النتيجة كارثة تحل بالمسائل الذهنية ، لأن كلا من الفريقين سيعجز كل العجز عندما يحاول أن يؤدى عمل الفريق الآخر : ومع ذلك فكل من الفريقين بحاجة إلى مواهب ممتازة . وهذا قول حق معترف به على وجه التحديد . أما فى عقلية فرويد فإن عدم التكافؤ فى نمو الملكتين المطلوبتين ، يصل إلى أقصى مداه .

ويقودنى هذا إلى نتيجة غريبة ، وهى أن « التحليل النفسى » نشأ بتدبير غير هين من الكروموزومات[1] والتقاليد الذهنية لنمسوى لامع ؛ فجعله ذا قدرة ابتكارية بالغة ، كما جرده من الملكة الانتقادية كل التجريد . ويحلق شبح الكوارث عندما يتولى عقل ابتكارى فقط مهمة تحتاج إلى بصيرة ابتداعية نافذة لتدرك أسرار هذه المهمة ، ولتضع لها ماينبغى من خطط ، فإن هذه المهمة فى تنفيذها تحتاج أيضاً إلى قدرة مماثلة على النقد والفحص الدقيقين ، ولعله مما يساعدنا على تقدير الموقف أن نتخيل حالة مماثلة ؛ فنتصور ما كانت تؤول إليه نظرية التطور مثلا ، لو أن عقلية داروين الابتكارية

---

(١) Chromosomes «الكروموزومات» : جسيمات تشترك فى عملية انقسام الخلية الملقحة . ويقال أنها تحمل الوراثيات Genes التى بها السمات الوراثية (المترجم)

كانت جريئة فى تأملاتها ، وشديدة الضعف فى النقد ، ودقة الفحص .

وأياً كان مصدر الاختلاف ، فإن تأثيره بشأن قبول آراء فرويد كان بارزاً ؛ فالعقل هو العقل بكل مايحوى من متناقضات كما أن الانسان هو الانسان بكل ما به من اختلافات . وقد تثبت الأيام خطأ ما أتوقع — من انقاذ القيم الجوهرية التى فى التحليل النفسى ، وإصلاح ما فى مدركاته من أخطاء — لغير السبب الذى ذكرته ؛ وهو أن خطط فرويد ستدرج فى زوايا النسيان . فمن الجائز أن ننقذ القيم لسبب مضاد : وهو الترحيب بالمشروع من أجل قيمته الذاتية فنغتفر له أخطاءه وننساها .

وهـــذا هو رأى « ستيفان زفايج[1] » . وقد رسم لفرويد صورة قلبية تعرب عن تقدير طيب من صديق معجب . وهو يعد ظهور فرويد تحقيقاً لنبوءة ، فيردد عبارة « شيلر » التى لا تنطوى على إشارة محدودة حين قال « لو ظهر فى العالم لينايوس[2] جديد

(١) Stefan Zweig فى كتابه « معالجو العقل » Mental Healers الذى صدر فى عام ١٩٣٢ . وهو نظرة تقدير كبيرة لفرويد فى شخصه وأعماله . (المؤلف)

(٢) Linnaeus كارل فون لينايوس عالم سويدى عاش من سنة ١٧٠٧ إلى ١٧٧٨ ، واشتهر بتصنيفه لأنواع النبات وتبويبها وفقاً لأعضائها التناسلية . وقد كان لعمله فى هذا المجال أهمية كبيرة فى دراسة النبات (المترجم) .

ليصنف الدوافع والميول ، فإنه سيقدم للبشرية مفاجأة ضخمة » . أو قول « نيتشه » الذى لا يقل غموضاً : « كل ما هو عميق يغشاه الغموض » . ويثق زفايج من أن النهضة التى استحدثها فرويد ستكون محل التقدير والاعتبار فى شتى العصور ؛ « فإن اكتشافات فرويد عن القوى المحركة للعقل ، واستنباطه لطريقة جديدة فى الفحص ، وتمييزه للاشعور ، كلها من عمل عبقرية فذة » . وهذا فى رأى « زفايج » يؤكد مستقبل فرويد . فإن صح هذا « فما قيمة التفاصيل بعدئذ ؟ » .

أما أنا فأرى أن التفاصيل كبيرة القيمة ، وقد كانت هامة للغاية « لداروين » ، حتى أنها شغلته طول حياته . فهى أثر من آثار السعى وراء فكرة جبارة من حيث الفحص والنقد . ونؤثر فى هذا المجال أن نعرض خلاصة ما قاله الكاتب « ولز » ، وما كتبه « هكسلى وولز » إذ قالا « إن اسم سيجموند فرويد هام فى تاريخ الفكر البشرى أهمية اسم كشارلس داروين » ؛ ولكنهما أدركا أن مجال إسهامه يجب أن يتجه إلى ناحية أخرى لأسباب يعتبر كتابى هذا تعبيراً عنها .

ويقول مؤلفو كتاب « علم الحياة » : يجب أن لا يفهم نقـــدنا على أنه من قبيل التقليل من أعمال الفرويديين أو الحط من شأن فرويد ... » وتنبأوا

بقولهم « إننا نتوقع واثقين : أنه بعد مرور ربع قرن من الزمان ستضم المنازعات بين أنصار فرويد ويونج وآدلر وغيرهم من أصحاب المذاهب النفسية إلى سجلات التاريخ العلمي ... فإن كل فريق يسهم بنصيبه للوصول إلى حقيقة . أما الباحثون النفسيون الأقل تحزباً فإنهم يقتبسون من كل من الباحثين المختلفي المشارب في مجال الدراسات النفسية . للوصول إلى إقامة نظرية أكثر ثباتاً واستقراراً .

وأيا كان الحكم الصادر بعدئذ . فالاهتمام السائد يتجه إلى إنقاذ القيم الفرويدية لترشدنا في تفكيرنا ، وفي ممارستنا لمهنتنا ، وفي محاولاتنا تتبع فرويد باستمرار ، ودراسته في مجموعه . يسرنا أن نسجل أن ما رفع فرويد إلى مصاف أساطين علم النفس في شتى العصور ، هو أدراكه لمجموع النشاط النفسي البشري ، ونظمه في مجال موحد من البواعث النفسية .

وكان من الجائز أن تصير هـذه النظرة الدينامية الفعالة من المسائل الشائعة المتداولة بين الناس شيوع « الرغبة الفرويدية » : فرغم أن الدراسات الحديثة تنطوي على هذا التصور ، فإنا في حاجة إلى لفظ شامل يمتد مداه من الدافع إلى الخطة المنطقية المقبولة . ومبعث توجيه الاهتمام البالغ إلى الدافع — على ما به من

غموض — هو أن ما به من توكيد بارز ، يعد مكملا للاهتمام القديم بمسألة التفكير . وتوجيه الاهتمام إلى الدافع يحمل بين طياته أسبقية كل ما هو بدائى ، وغريزى ، وقديم ، وعاطفى ، ومبكر الظهور ؛ والشعور به فج ناقص . ويلتقى هذا الاهتمام الخاص عند الدوافع اللبيدية — ومركزه هو اللبيد الجنسى — فى الجانب الانفعالى على « اللاشعور » فى كل أوجه نشاطه الذهنى .

وكما يجب علينا أن نسجل فى الصورة الفرويدية محاسنها الجذابة ، فإن الواجب يقضينا أيضا أن نسجل الاتجاهات والاوضاع المشتركة المسئولية فى أخطاء النظام كله ، كالخطأ فى فهم اللبيد ، والتطرف فى صبغه بالصبغة الجنسية ، وأنواع سوء فهم أوجه نشاط اللاشعور ، والزج بعلاقات نشوئية موجهة توجيها خاطئا ، ثم الاخفاق فى تتبع الاتجاهات البيولوجية . وهكذا تظهر سيكولوجية الدوافع الفرويدية ، ولها نظرة أصيلة شاملة تضيء السبيل ، وتلقى بضوئها على الإنسان ، فتعرض النفس البشرية فى جملتها كاملة من جديد ، دينامية حيوية ، لها دلالتها وأهميتها .

وهذه السيكولوجية تكمل عملية الأنهماك فى تفصيلات الناحية الذهنية ، وتصحح قيود الدراسات السلوكية التى تعد منبهة وموقظة . وفى الوظائف الأول شانا يسود العامل المنبه ، ويقترح

الاتجاهات : على حين أن الكائن نفسه هو الذى يتصرف . أما فى الوظائف العليا ، فإن زيادة تعقيدات « الرغبة » الدافعة هى التى تقرر السلوك الذى يجب أتباعه . وتظهر سيكولوجية الأهداف فى دلالات الرغبة .

وتنظم وجهة النظر الفرويدية كل أنواع السلوك فى وظائف أولية ، وأخرى ثانوية ؛ فترى فى صراعها مصدر عدم الانسجام سواء أكان قاسيا أم خفيفا ، كما ترى فى اتفاقها مفتاحا ودليلا يرشد إلى العلاج وإلى فن ضبط النفس . وهذه النظرة تتفق مع اتجاه علم نفس تكاملى ينشأ من أندماج نظامى الوظائف الذى يظهر بوضوح فى مبدأى اللذة والواقع .

وتوجه النظرة الفرويدية أنوار هذا الضوء الموحد الكاشفة إلى منتجات النفس البشرية فى ماضيها وحاضرها ، وإلى الأعمال العرضية والهامة ، فى اللعب والعمل ؛ فهى ترى فى الشخصية البشرية فى مجموعها — وفى المسرى العام الشامل للاعمال الإنسانية — تجسيما وتكبيرا للتصرف الأساسى لهذه القوى فى الصراع وفى الأعلاء ؛ فهى تقدم لنا مرشدا يدلنا على أشياء كثيرة كانت تظهر عديمة المعنى ، وتعيد بناء تقديرنا فيما نعتبره هاما ، وتفتح لنا باب الأمل فى إدارة أكثر صراحة ، وتحررا ، وحكمة مما ألفنا .

هذا هو البيت الدائم الذى بناه فرويد . ومع ذلك فانه عندما وضع خطط مشروع بنائه ، سحب منه الدعامات التى تسنده .

« يظهر لى أن النمو الحالى للجنس البشرى لا يحتاج إلى أى تفسير يغاير ما ينطبق على الحيوان . فإن ما يظهر فى أقلية من الأفراد كحافز قلق لمزيد من الكمال ، يمكن فهمه كنتيجة لغرائز فاشلة بنى عليها أسمى ما فى الثقافة البشرية من قيم » .

ومفاد هذا بالضبط ، هو أن العوامل التى زودت الأوضاع الفرويدية ، وجعلت لها أهمية ، قد هبطت فى منابعها ; ومن ثم تبرأت من الأعلاء نفسه . وهو العامل الذى ييسر الثقافة : وصارت فلسفة فرويد التى أقامها على دراسته الرائعة شيئا ميئوسا منه ; وهو القائل « أن لب وجودنا يتكون من رغبات لا سبيل إلى تحقيقها ، ومع ذلك لا يمكننا وقفها أو التخلص منها » . وخضوعنا الشديد للدوافع . ولا سيما الجنسية منها ، هو العقبة التى تعترض سبيلنا ، فإذا أنكرنا ذلك أصبنا بالأمراض ; وإذا ما تجنبناه حلقنا فى عالم الأوهام .

وفلسفة أى أنسان ليست إلا نظرته الخاصة إلى الحياة من ـث محنها وآمالها . ولعل « فرويد المستقبل » يبنى فلسفة إعلاء

على مثل هذا الاساس نفسه ، ويضع برنامجا لاطلاق العواطف المكبوتة عن طريق أيمان أقوى بالاهداف . وتكامل الدوافع النفسية . ولقد تغلغل التحليل النفسى حتى صار مفتاح المزاج الحديث . ومرشدا للفلسفة . وتأثير فرويد يمتد إلى مدى بعيد ويصل إلى حدود الفكر السائد .

ولقد تورطت الحركة الفرويدية فى موقفها الحاضر لعدم تعاونها مع غيرها ، وبسبب عزلتها ، وتجاهلها لغيرها من العاملين فى حقول علم النفس : ولهذا ظهرت العراقيل فى طريق الاعتراف بأفضل ما قدمه التحليل النفسى من آراء ودراسات . وهذا الموقف يجعل إجراء عملية انقاذ وترميم أمرا لابد منه ؛ ولا يجوز أن تقتصر العملية على تصحيحات الفرويدين المحدثين ، بل تمتد إلى حركة جديدة لما « بعد الفرويدية » ، وفيها نحتاج إلى تفسيرات حديثة . ومن الجائز فى هذا السبيل أن ننتظر ظهور عقلية جبارة كعقلية فرويد ، ولكن هذه العقلية يجب أن تكون من طراز آخر حتى يتيسر لها إنجاز مهمتها .

وتغرى الطريقة الفرويدية ومزاجها بتفسير الأمور تفسيراً تحكمياً مغرضاً ، ولهذا السبب فإن إصلاحها قد يتحقق بالتزام الحذر ، وببصيرة محايدة لا تعرف التحزب . ولسوء الحظ فإنك

نادراً ماتعثر على هذين العاملين فى سجلات الحركة الفرويدية الميالة إلى النزاع والخصام . ومن المتعذر فى هذه الأيام على أية حركة مثلها أن تبـدأ فى أداء رسالتها بتجاهل النتائج المقنعة الراسخة التى وصـل إليها الباحثون التقدميون فى طب الأمراض النفسية وعلم النفس . وأقاموها على دراسات الخبرة العيادية فى دراسة أقل تحزباً وأكثر خلواً من الهوى .

وكان علماء النفس وأطباؤها مستعدين للسير وفقاً لما يجب أن نسميه الآن بالخطوط الفرويدية ، ووجدوا فيها ما نبههم وأيقظهم مما سيظل معــــروفاً فى تاريخ الحقائق باسم النهضة الفرويدية . ويتوقف مستقبل فرويد على احتضان أطباء الأمراض النفسية والسيكولوجيين المسئولين للآراء الهامة التى تعد من مفاتيح المواقف ، وذلك بعد تجريدها من التضمينات المبالغ فيها ، والتأملات والأوهام التى جعلتها غامضة ومنكرة . والواقع أن الوصول إلى تعاليم فرويدية سليمة مأمونة ، ليس فقط من الأمور الممكنة الحدوث ، بل أنه أمر حتمى .

وقد تخلى المزاج الفرويدى عن أحد المبادىء الهامة من تعاليمه . وهو الإعلاء ، القــــائل بأن التوجيه الحكيم للدوافع الفطرية وإصلاحها يتألف من توجيهها إلى أعمال نافعة إنشائية ، كما يتألف من تهذيبها وصقلها . ومعنى هذا من الناحية الفسيولوجية : هو

تفريغ طاقة عضوية وضيعة فى منافذ سيكولوجية سامية أجيد تنظيمها . ومن الشروط التى يجب توافرها فى الطبيب النفسى أكثر من أى ممارس لأية مهنة طبية أخرى أن يكون إنسانياً . والمبادىء الإنسانية والمبادىء السحرية لا يتلاءمان .

ويبين تاريخ علم النفس بوضوح تام أن التخمينات المغرضة كانت تحمل أكفانها معها ، وأن الباحثين النفسيين أقاموا معبودهم فى محراب العلم ، وتصوروه على صورتهم ومثالهم . ومهما كان النقص والقصور فى بصيرة الإنسان . فليس فى وسعه إلا أن يرى نفسه فى وضعه الصحيح ، ويراها فى مجموعها . وما نعرفه عن النفس البشرية ليس إلا شيئاً أبتر ، فنحس بالدافع الملح لإعادتها إلى ما كانت عليه من الكمال البشرى .

ومهما كانت أطماع المحاولة الفرويدية ، ومدى نقصها وبعدها عن المنطق ، فإنها كانت تعبر عن دافع يبغى كمال الفهم مما يرجع عهد التفكير فيه إلى أولى الفترات العظيمة لليقظة الذهنية ، وإلى القول المأثور : « أيها الإنسان اعرف نفسك ! » . وشتان بين الأكاديميات التى كانت قائمة فى أحراش أثينا القديمة ، وبين عيادات التحليل النفسى فى فينا . وإنا لنتساءل عن مدى ما قدمه المزاج الفرويدى من تنظيم وترتيب للعالم البشرى ، ومدى ما عمله لزيادة القيم البشرية وتوضيحها . أو لتحريفها وتشويهها . . . كل هذه أسئلة ذات أهمية كبيرة للأجيال القادمة .

وإذا ما واجه مؤرخ علم النفس فى المستقبل « نظريات

الفرويدية وتطبيقاتها ، فإنه قد يعتبر الجانب الأكبر من جملة التحليل النفسي في الوقت الحاضر من أغرب أنواع الشذوذ والشرود الخيالية التي ظهرت في مطالع القرن العشرين، فإن كان متسامحا ، فيحتمل أن يجد في الحركة ذاتها لحظة ممتازة حقاً في محاولة فهم ذلك اللغز المقيم الدائم : لغز النفس البشرية .

أما عن رأي فرويد نفسه في بنائه ، فقد ضمنه العبارة التالية ، وهي الختام المتواضع لكتابه عن تاريخ حياته ، إذ قال :

« وإذا ما تلفت ورائي ، وألقيت نظرة على عملي المرقع الذي أمضيت فيه حياتي ، فإني أستطيع أن أقول إني بدأت عدة مرات ، ونبذت كثيراً من الآراء. وسيؤدي عملي هذا إلى شيء في المستقبل ، ولكني لا أستطيع أن أقول إن كان هذا الشيء سيكون كبيرا أم صغيرا » .

أما عبارة فرويد التي أضفت علي أكبر قدر من الغبطة ، فقد احتفظت بها لتكون مسك الختام وهي قوله :

« ولعل بعضهم يسألني عن مدى اقتناعي بصحة الفروض التي قدمتها هنا ، وجوابي على هذا إني أنا نفسي غير مقتنع بها ، ولا أطلب من الآخرين أن يؤمنوا بها . وبعبارة أفضل فإني لا أعرف مدى إيماني بها » .

[تم]

فهـــرس

مجموعة الألف كتاب

ألوانها وأرقامها

لكل كتاب رقمان : الأول . الرقم العام ويدل على رقم الكتاب فى السلسلة وهو مكتوب على الصحائف الأولى وعلى كعب الكتاب ، بين اسم الكتاب واسم المؤلف .

والثانى . الرقم الخاص ويدل على رقم الكتاب من حيث الموضوع وهو مكتوب على الغلاف عند أسفل الكعب .

صدر من كتب العلوم الإنسانية فى مجموعة الألف كتاب

[اجتماع ، اقتصاد ، تربية ، علم نفس ، تاريخ وتراجم ، جغرافيا رحلات ، دين ، سياسة ، فلسفة ، قانون ، معارف عامة]

عنوان الكتاب	المؤلف	الناشر	الثمن
١ — حضارة الإسلام	جوستاف جرونباوم	مكتبة مصر	٤٠
٢ — اتجاهات الفلسفة المعاصرة	أميل برهييه	« دار الكشاف	١٢
٣ — البوليس والكشف عن الجريمة اليوم	ريجنالد موريش	مكتبة النهضة المصرية	٢٢
٤ — سكتلنديارد	سير هارولد سكوت	مكتبة النهضة المصرية	٢٢
٥ — فلسفة الخير	لويس ديكنسن	« الأنجلو	١٨
٦ — حركات الشباب الاجتماعية	الصاغ الدكتور محمد فتحى	« الشرق	١٥
٧ — بيلاد مابين النهرين	ل . ديلا بورت	« الآداب	٤٠
٨ — بسمارك	أميل لدفيج	« دار الهلال	٥٠
٩ — آثار حضارة الفراعنة	الأستاذ محرم كمال	« « «	١٤
١٠ — الحياة الناجحة	اوستاس تشسر	« نهضة مصر	١٥
١١ — كيف تقرأ الجريدة	ادجار ديل	مطابع الشعب	١٧

عنوان الكتاب	المؤلف	الناشر	الثمن
١٢ ــ الحياة اليومية فى مصر القديمة	الن شورتر	مكتبة الأنجلو	٢٣
١٣ ــ الديانات فى أفريقيا السوداء	هـ . ديشان	دار الكتاب المصرى	١٤
١٤ ــ الطفل من الخامسة إلى العاشرة جزء ١	ارنولد جزل	لجنة التأليف والترجمة	٣٢
١٥ ــ علم نفسك الاقتصاد	إيفلين توماس	لجنة التأليف والترجمة	١٧
١٦ ــ تاريخ العالم من ١٩١٤ — ١٩٥٠	دافيد تومسون	مكتبة النهضة	٢٣
١٧ ــ نحو مجتمع أفضل	برتراند رسل	مكتبة العالمية	١٧
١٨ ــ الأحلام والجنس (جزء ١)	فرويد	دار الكتاب المصرى	١٥
١٩ ــ تاريخ طابع البريد	يوجان فاييه	مكتبة الأنجلو	١٢
٢٠ ــ صحوة أفريقيا	نازيل دافيدس	» »	٢٧
٢١ ــ الانقلاب الصناعى	ت . س . اشتن	» نهضة مصر	٢٣
٢٢ ــ مدخل إلى علم الآثار	السير ليونارد وولى	» سعد مصر	١٤
٢٣ ــ الجغرافيا والسيادة العالمية	جيمس فير جريف	» النهضة	٢٩

مجموعة مشروع الألف كتاب

تصدر بإشراف إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

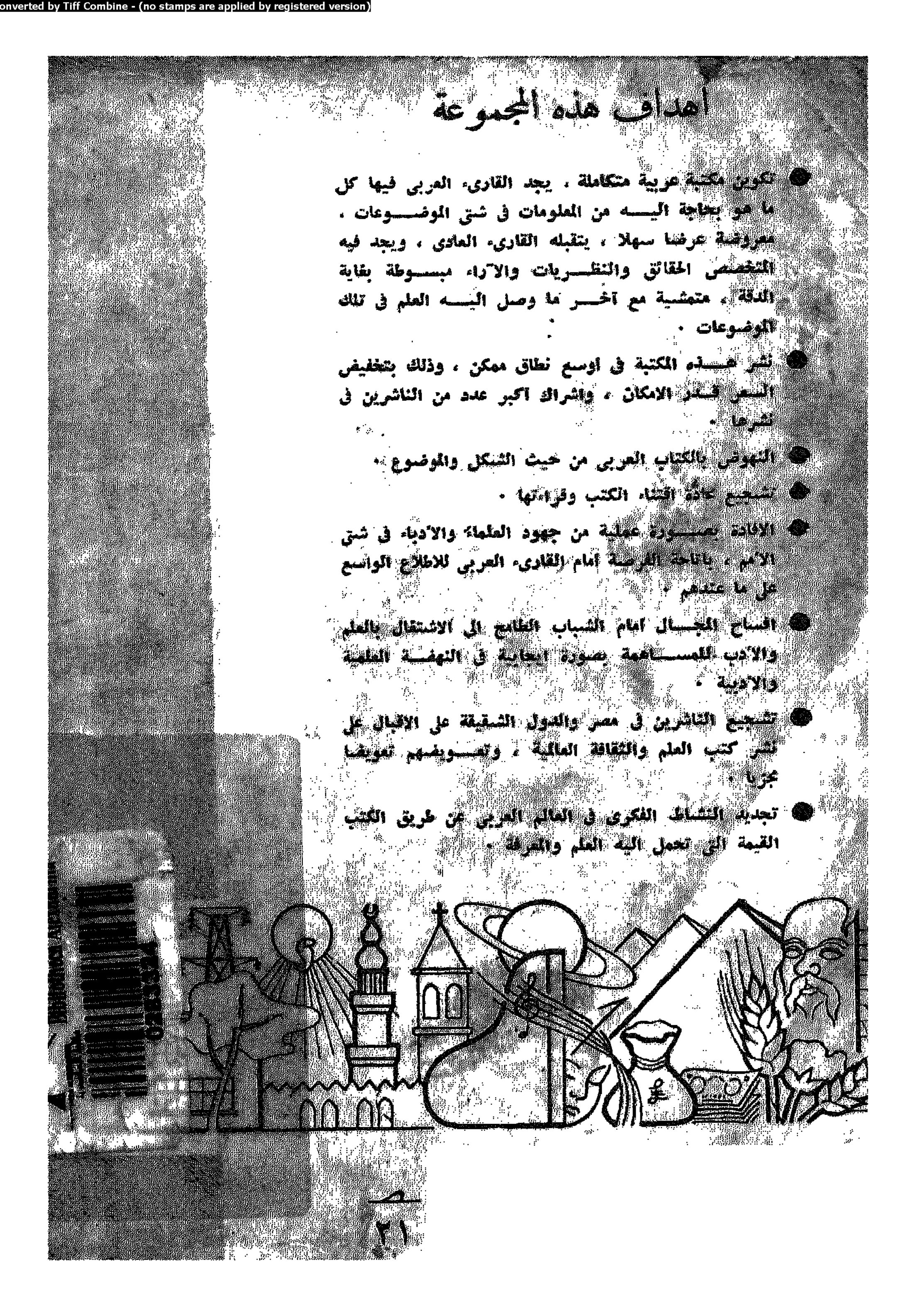
الكتب التى تولت « دار الكتاب المصرى » نشرها :

اسم الكتاب	تأليف	قرش
الفيروس والإنسان	دكتور ف . م . برنت	١٨
استخدام الطاقة الذرية	أوتوهان	
أساطير من الأمم المتحدة	فرانسيس فروست	٢٠
الديانات فى إفريقيا السوداء	ه . ديشان	١٤
الأحلام والجنس (الجزء الأول)	جوزيف جاسترو	١٤

مطابع
دار الكتاب المصري
٨٣ شارع القصر العيني تليفون ٢٦٥١١







أهداف هذه المجموعة

- تكوين مكتبة عربية متكاملة ، يجد القارئ العربي فيها كل ما هو بحاجة اليه من المعلومات في شتى الموضوعات ، معروضة عرضا سهلا ، يتقبله القارئ العادي ، ويجد فيه المتخصص الحقائق والنظريات والآراء مبسوطة بغاية الدقة ، متمشية مع آخر ما وصل اليه العلم في تلك الموضوعات .
- نشر هذه المكتبة في أوسع نطاق ممكن ، وذلك بتخفيض الثمن قدر الامكان ، واشراك أكبر عدد من الناشرين في نشرها .
- النهوض بالكتاب العربي من حيث الشكل والموضوع .
- تشجيع عادة اقتناء الكتب وقراءتها .
- الافادة بصورة عملية من جهود العلماء والأدباء في شتى الأمم ، باتاحة الفرصة أمام القارئ العربي للاطلاع الواسع على ما عندهم .
- افساح المجال أمام الشباب الطامح الى الاشتغال بالعلم والأدب للمساهمة بصورة ايجابية في النهضة العلمية والأدبية .
- تشجيع الناشرين في مصر والدول الشقيقة على الاقبال على نشر كتب العلم والثقافة العالية ، وتعويضهم تعويضا مجزيا .
- تجديد النشاط الفكري في العالم العربي عن طريق الكتب القيمة التي تحمل اليه العلم والمعرفة .